

المملكة العربية السعودية

وزارة التعليم

جامعة أم القرى

كلية الشريعة والدراسات الإسلامية

قسم التاريخ

أثر الغزو المغولي على المظاهر الحضارية في بغداد

(٦٥٦- ٧٤٠ هـ/١٢٥٨- ١٣٣٩م)

بحث مقدَّم لنيل درجة الماجستير في التاريخ الإسلامي

إرشاد الأستاذ الدكتور

سعد بن عبد الله بن صالح البشري

إعداد الطالب:

محمد بن سليمان بن محمد خان

١٤٣٨هـ/ ٢٠١٧م


بسم الله الرحمن الرحيم

ملخص البحث باللغة العربية

"أثر الغزو المغولي على المظاهر الحضارية في بغداد"

(٦٥٦- ٧٤٠ هـ/١٢٥٨- ١٣٣٩م)

يحاول هذا البحث رصد أثر الغزو المغولي لبغداد سنة ٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م على المظاهر الحضارية فيها، وينقسم إلى مقدمة وتمهيد وأربعة فصول وخاتمة على النحول التالي:

التمهيد: ويعرض بإيجاز لأوضاع العراق السياسية والإدارية والدينية والاقتصادية والاجتماعية في ظل الخلافة العباسية قبيل الغزو المغولي، ثم سقوط بغداد على أيدي المغول وانتهاء الخلافة العباسية، ثم احتلال المغول الإيلخانيين العراق وإقامة الدولة الإيلخانية.

الفصل الأول: يتناول قيام الدولة الإيلخانية ويعرّف بهذه الدولة وعاصمتها وحدودها الزمنية والجغرافية وأبرز سلاطينها.

الفصل الثاني: يتناول الآثار الاقتصادية للغزو المغولي لبغداد مسلطا الضوء على الآثار التي لحقت بالزراعة والصناعة والتجارة في العراق نتيجة للغزو المغولي، ويعرض بإيجاز الضرائب والمصادرات في العراق في العصر الإيلخاني.

الفصل الثالث: يتناول الآثار الاجتماعية والعمرانية للغزو المغولي لبغداد موضحا آثار الغزو على التركيبة السكانية لعناصر المجتمع البغدادي.

الفصل الرابع: يتناول الآثار الدينية والثقافية للغزو المغولي لبغداد، ويرصد مواقف أهل الديانات المختلفة من اليهود والنصارى والمسلمين من الغزو، وموقف المغول من أهل كل ديانة، ثم يعرض للآثار العلمية والثقافية للغزو مركزا على اعتماد اللغة

الفارسية لغة رسمية في البلاط الإيلخاني وإدارات دواوين الولايات، ومنها ولاية العراق العربي.

الخاتمة: وتتضمن أبرز نتائج البحث التي كان على رأسها أن الآثار التي ترتبت على الغزو المغولي لبغداد تنوعت فكان من بينها آثار سياسية واقتصادية واجتماعية ودينية وثقافية، كما ضمت الخاتمة بعض التوصيات المهمة ومنها ضرورة أن يركز الباحثون زاوية البحث التاريخي في العصر المغولي على النواحي الحضارية ويتجنبوا قصر بحوثهم على النواحي السياسية.

الملاحق: وتتضم قائمة بأسماء وتواريخ عهود إيلخانات المغول وخريطة للدولة الإيلخانية.

قائمة المصادر والمراجع: وقد ضمت أكثر من مائة وخمسة وأربعين من المصادر والمراجع المتنوعة بين مخطوطات ومصادر ومراجع عربية ومترجمة إلى العربية، ومصادر ومراجع فارسية ومترجمة إلى الفارسية، ورسائل ماجستير ودكتوراه، ومراجع أوربية غير مترجمة.

****

**

*

Abstract

"The Impact of the Mongol Invasion on The Cultural Aspects of Baghdad"

(656-740 A.H / 1258- 1339 A.D)

This paper seeks to define the impacts of Mongolian conquer on Baghdad's civilian forms in 656 H/1258 A.C and it has been divided into an introduction, preface, four chapters and conclusion as follows:

Conclusion:

It displays briefly Iraq's political, administrative, religious, economic and social conditions under the Abbasid Caliphate prior to Mongolian conquer, and then it deals with the fall of Baghdad by Mongols and the end of Abbasid Caliphate and ultimately the occupation of Iraq by Ilkhanian Mongols and the establishment of Ilkhanate State.

First Chapter:

It deals with the establishment of Ilkhanate State and defines this State, its capital, time and geographic borders and its most prominent Sultans.

Second Chapter:

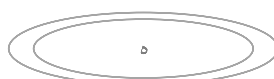
It discusses the economic impacts of Mongolian conquer to Baghdad highlighting the impacts on agricultural, industrial and commercial conditions in Iraq due to Mongolian conquer. As it displays in brief the taxes, confiscates in Iraq during Ilkhanate era.

Third Chapter:

It handles with the urban and social impacts of Mongolian conquer to Baghdad highlighting the impacts of this conquer on the census structure for the society elements in Baghdad.

Fourth Chapter:

It highlights the cultural and religious impacts on Baghdad due to Mongolian conquer and defines the attitude of people with various creeds like Jews,



Christians and Muslims toward the conquer and the Mongols' one toward the people of each creed. Then, it displays the cultural and scientific impacts of the conquer focusing on adapting the Persian language to be the official language into Ilkhanian royal court and the administrations of counties' bureaus including the county of Arabic Iraq.

Conclusion:

It includes the most significant paper results and that the most prominent ones are the impacts resulted from Mongolian conquer to Baghdad which were various; such as the political, economic, social, religious and cultural ones. Also, the conclusion included some important recommendations including the need of placing the base of historical study in Mongolian era on the civilian sides by the researchers and to avoid limiting their researching work to the political ones.

Appendixes:

Appendixes include a list of names, dates of Mongolian Ilkhanates' eras and a map of Ilkhanate State.

References:

References included over one hundred and forty five various source and reference from manuscripts, Arabic sources and references translated into Arabic, Persian sources and references translated into Persian, master and Ph.D. theses and non-translated European references.

إهداء

"إلى الوالدين الكريمين: أبي الفاضل وأمي الفاضلة، أهدي هذا العمل اليسير، وأسأل الله تعالى أن يعينني على برّهما، وعلى ردّ شيء من الجميل لهما، وأن يجزيهما عنِّي جزاء الصالحين. آمين".

****

شكر وتقدير

أتقدم بخالص الشكر والتقدير إلى أستاذي الجليل، الأستاذ الدكتور **سعد بن عبد الله ابن صالح البشري**، أستاذ التاريخ بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية بجامعة أم القرى، الذي علَّمني وشملني بوافر عنايته وثمين وقته ورشيد توجيهه، فتفضل بقبول الإشراف على البحث، فكان خير أستاذ مرشد وخبير مقوِّم فجزاه الله عني خير الجزاء، وأطال الله عمره وجعل عمله هذا في ميزان حسناته يوم القيامة.

كما أتقدم بخالص الشكر والعرفان للعالمين الجليلين:

الأستاذ الدكتور/ حسين شافعي، أستاذ التاريخ بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية بجامعة أم القرى. والأستاذ الدكتور/ عبد الله الغامدي، أستاذ التاريخ بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية بجامعة أم القرى؛ وذلك لتفضلهما بالموافقة على مناقشة الطالب وتوجيهه وتقويم بحثه، وأسأل الله أن أكون أهلا لما تفضلا به عليّ من وقتهما وجهدهما، وأن ينفعني بعلمهما، ويجعل عملهما هذا في ميزان حسناتهما يوم القيامة إنه سميع مجيب.

كما أتقدم بخالص الشكر والتوقير إلى السادة القائمين على المكتبات التي ترددت عليها لجمع مادة هذا البحث داخل المملكة العربية السعودية وخارجها، وذلك على ما قدموه للباحث من عون، وما أسبغوه عليه من فضل.

وكل الشكر لإخوتي وأهلي وكل من شرفني بحضور مناقشة هذا العمل من أساتذتي وزملائي الأعزاء، وكل من أمدني بكتاب أو نصيحة، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين،،،

الباحث،،،

مقدمة



بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد النبيّ الأمين، وعلى آله وصحبه أجمعين، ومن تبعه بإحسان واتبع سنته إلى يوم الدين.

أما بعد ،،،،

فقد أدى توحيد القبائل المغولية في مطلع القرن السابع الهجري تحت زعامة جنكيز خان إلى توجه أطماع المغول للتوسع نحو المشرق الإسلامي فاصطدموا بالدولة الخوارزمية، وتمكنوا من القضاء عليها سنة ٦٢٨هـ/ ١٢٣٠م، ثمّ ثبتوا أركان ملكهم في مناطق إيران مجاورين بذلك أملاك الخلافة العباسية في العراق.

ثم ما لبثت أن جاءت موجة مغولية أخرى بقيادة هولاكو خان ابن تولوي بن جنكيز خان، فواصلت غزو المشرق الإسلامي حتى بلغت العراق فاجتاحته، وأسقطت الخلافة العباسية في بغداد سنة ٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م.

ولقد كان لسقوط بغداد على أيدي المغول آثاره العميقة والمتنوعة من كافة النواحي التاريخية السياسية والحضارية، ومن تلك الآثار تأسيس هولاكو دولةً مغوليةً خاصةً به وبأبنائه وأحفاده من بعده، عرفت في التاريخ باسم الدولة الإيلخانية، وامتدَّ نفوذها في مناطق إيران والعراق وأذربيجان وكردستان وأرمينية وشَرْوان وأرَّان وما تبقى من أملاك دولة سلاجقة الروم بآسيا الصغرى عندئذٍ، وقد عُرف المغول الذين استقرت إقامتهم في تلك المناطق بمغول إيران أو "الإيلخانيين".

وكان للدولة الإيلخانية التي استمرت حوالَ قرنٍ من الزمان (٦٥٦ – ٧٥٦هـ/ ١٢٥٨-١٣٥٥م) آثارها السياسية والثقافية العميقة على الأمة الإسلامية، وهو ما دفعني لاختيار هذا موضوع هذا البحث، وعنوانه: **(أثر الغزو المغولي على المظاهر الحضارية في بغداد ٦٥٦-٧٤٠هـ/ ١٢٥٨- ١٣٣٩م)**، ومن المعروف أن العراق خرج من سيطرة الحكم الإيلخاني

ودان لدولة ناشئة تعرف بالدولة الجلائرية، وقد قامت سنة ٧٤٠هـ/ ١٣٣٩م؛ واذا جعل البحث من تلك السنة حدا زمنيا له.

ومع تنوع الأثر بين السياسة والحضارة فقد آثرت تركيز زاوية الدراسة في الموضوع على الجانب الحضاري نتيجة لقلة اهتمام الباحثين نسبيا بهذا الجانب إذا ما قورن بالجانب السياسي، وذلك مع عدم إغفال الجانب المتعلق بالأثر السياسي لكونه ممثلا للسياق التاريخي للموضوع.

وقد تنوعت الآثار الحضاريّة للغزو المغولي لبغداد، فكان منها الآثار الاقتصادية، والآثار الاجتماعية والعمرانية، والآثار الدينية والمذهبيَّة والآثار الثقافية.

أهمية البحث وأسباب اختياره

لعل أبرز أسباب اختيار الموضوع ما يلي:

١- أن للعصر المغولي أهمية بالغة في التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية؛ وذلك لما له من دور بارز في التأثير على الحياة السياسية والحضارية لأواسط آسيا وشرق أوروبا في العصور الوسطى.

٢- أنّ معظم الدراسات التي تناولت العصر المغولي ركزت على حروبه وأحداثه السياسيّة العامة أكثر من تركيزها على النواحي الحضارية، وكذلك معظم الدراسات التي تناولت أحداث الغزو المغولي لبغداد حاضرة الخلافة العباسية.

٣- رغبة الباحث في التخصص في دراسة العصر المغولي والتركيز على آثار الغزو المغولي للعالم الإسلامي من الناحيتين السياسية والحضارية.

٤- الرغبة في تسليط الضوء على إسلام المغول طواعية واختيارا وأثر إسلامهم على النواحي الحضارية في البلاد الإسلامية.

٥- محاولة رصد الآثار الاقتصادية المترتبة على الغزو المغولي لبغداد.

٦- محاولة الوقوف على الآثار الدينية للغزو المغولي لبغداد، وتحليل موقف السلطة الإيلخانية من أهل الديانات اليهودية والمسيحية والإسلام في العقود التالية للغزو المغولي لبغداد.

٧- محاولة رصد وتحديد الآثار الثقافية للغزو المغولي لبغداد وما ارتبط بها من اتخاذ الفارسية لغة رسمية للديوان المغولي في بغداد، ووقوع الصراع الثقافي بين العرب والفرس من عمال المغول.

الدراسات السابقة لعلّ أبرز الدراسات السابقة المتعلقة بموضوع البحث ما يلي:

١- فؤاد عبد المعطي الصياد: الشرق الإسلامي في عهد الإيلخانيين (أسرة هولاكو خان).

يتناول هذا الكتاب التاريخ العام للدولة الإيلخانية من خلال المصادر والمراجع الفارسية في المقام الأول، مع التركيز على علاقات المغول الإيلخانيين بدولة المماليك في مصر والشام بوجه خاص.

٢- مصطفى طه بدر: محنة الإسلام الكبرى أو زوال الخلافة العباسية من بغداد على أيدي المغول.

يعد المؤلف من أوائل من كتبوا عن جهود جنكيزخان في توحيد قبائل المغول، وعن الكارثة التي حلّت بالمسلمين متمثلة في زوال الخلافة العباسية واحتلال المغول بغداد وتخريبها.

٣- محمد صالح داوود القزاز: الحياة السياسية في العراق في عهد السيطرة المغولية.

يتناول هذا الكتاب النظام السياسي والإداري الذي أقرّه المغول في العراق بعد احتلالهم بغداد، وقضائهم على الخلافة العباسية، كما يولي النواحي الاقتصادية في العراق تحت حكم المغول بعض اهتمامه.

٤- صبري عبد اللطيف سليم: الصراع السياسي والمذهبي بين الشيعة والسنة في عهد سيطرة إيلخانات المغول في إيران (٦٥٠-٧٣٦هـ/ ١٢٥٢-١٣٣٥م).

رسالة دكتوراه تتناول العديد من القضايا السياسية والدينية والمذهبية والثقافية في العراق وإيران وغيرها من المناطق التي خضعت للدولة الإيلخانية حتى نهاية عهد السلطان أبي سعيد بهادر خان.

٥- مصطفى محمد حسين: الدور السياسي والحضاري للوزراء زمن المغول الإيلخانيين في إيران (٦٥٦- ٧٥٦هـ/ ١٢٥٨- ١٣٥٥م)

رسالة ماجستير بقسم التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية بكلية دار العلوم جامعة القاهرة، وبها تفصيل وافٍ ودراسة مستفيضة في الكثير من جوانب تاريخ الحياة السياسية والإدارية والاقتصادية والاجتماعية والدينية لدولة المغول الإيلخانيين من خلال المصادر الفارسية والعربية والمراجع الأوربية، كما أنها تناولت إسهامات أبرز الشخصيات التي خدمت المغول وفي مقدِّمتها الوزراء والولاة على المستويين السياسي والحضاري.

وطبقا لأهداف الدراسة الحالية فقد تم تقسيمها إلى ما يلي:

مقدمة: تتناول عرضا موجزا لفكرة الموضوع وأسباب اختياره والمنهج المتبع في تناوله وأبرز المشكلات التي واجهت الباحث.

تمهيد: ويتناول:

- أوضاع العراق السياسية والإدارية والدينية والاجتماعية والاقتصادية في ظل الخلافة العباسية قبيل احتلال المغول.

- سقوط بغداد على أيدي المغول ونهاية الخلافة العباسية.
- احتلال المغول العراق وتأسيسهم الدولة الإلخانية.
- إعادة تشكيل الخريطة السياسية بعد سقوط بغداد.

<u>الفصل الأول: وعنوانه: قيام الدولة الإيلخانية</u> وهو فصل تمهيدي يهدف إلى التعريف بالأوضاع السياسية المحيطة بمسرح البحث ويوطئ للدخول في النواحي الحضارية فيما يلي من فصول، ويعرض هذا الفصل للمباحث التالية:

- اختلاف المؤرخين حول تاريخ تأسيس الدولة.
- الحدود الزمنية والجغرافية للدولة الإيلخانية.
- النظام السياسي والإداري للدولة الإيلخانية.
- تعريف موجز بسلاطين الدولة الإيلخانية وعرض لأبرز احداث عهودهم.
- مكانة بغداد في العهد الإيلخاني.

<u>الفصل الثاني: وعنوانه</u> "الآثار الاقتصادية للغزو المغولي لبغداد" ويتناول المباحث التالية:

- أثر تخريب المغول بغداد على الحياة الاقتصادية فيها.
- تأثير الغزو المغولي لبغداد على الزراعة.
- تأثير الغزو المغولي على الصناعة والتجارة.
- السياسة المالية المغولية في بغداد والعراق.
- الضرائب والمصادرات وأثرهما على الحياة الاقتصادية.

الفصل الثالث: وعنوانه "الآثار الاجتماعية والعمرانية للغزو المغولي لبغداد". ويتناول المباحث التالية:

- حجم التخريب الذي أصاب بغداد على أيدي المغول.

- الأوبئة والامراض الناتجة عن غزو بغداد.

- أثر الغزو المغولي على التريكيبة السكانية لبغداد

- عناصر المجتمع وطبقاته قبل الغزو المغولي.

- تغير التركيبة السكانية لبغداد بعد الغزو.

- أبرز طبقات المجتمع البغدادي في ظلّ الحكم المغولي.

- الاستقرار الإداري وأثره في إعادة إعمار بغداد.

- **الفصل الرابع والأخير وعنوانه "الآثار الدينية والثقافية للغزو المغولي لبغداد" ويعرض لعدة مباحث أبرزها:**

- دين المغول: الديانة الشامانية

- موقف اليهود والنصارى من غزو المغول بغداد

- موقف المغول من أهل الديانات (اليهود – النصارى– المسلمين)

- موقف المغول من الصراع المذهبي بين الشيعة والسنة.

- الآثار الثقافية للغزو المغولي لبغداد.

- موقف المغول الإيلخانيين من الثقافتين العربية والفارسية.

- استعانة المغول بأهل البلاد المفتوحة في إدارتها وأثر ذلك على الثقافة.

- الإدارة المغولية لبغداد كأداة لفرض الثقافة.

- محاولات الفرس فرض ثقافتهم على المجتمع العراقي بمعاونة المغول.

- اعتماد الفارسية لغة رسمية في البلاط الإيلخاني وأثر ذلك على المجتمع البغدادي.

- موقف المغول من الصراع الثقافي بين العرب والفرس.

- اهتمام المغول بالتنجيم والمنجمين والمراصد الفلكية.

- رعاية العلماء والأدباء من جانب المغول وعمالهم، وتوظيف ذلك لفرض سلطتهم.

وفي النهاية جاءت خاتمة البحث لتعرض أبرز ما توصل إليه من نتائج وتوصيات، ثم قائمة المصادر والمراجع التي تضم المصادر والمراجع التي اعتمد عليها الباحث في تناول الموضوع، ثم ألحقت بالبحث خريطة للدولة الإيلخانية التي استولت على العراق وجعلت بغداد مجرد مركز إداري لإحدى الولايات، واختتم البحث بملخص باللغة العربية ثم ملخص باللغة الإنجليزية.

المنهج المتبع

أما المنهج الذي اتبعه الباحث في جمع وتنظيم وصياغة المادة العلمية، فهو المنهج الوصفي التحليلي الذي يعني بوصف الظواهر والأحداث والقضايا التاريخية وتحليل الروايات تحليلا ناقدا، مع العناية بترجمة المادة غير العربية، وعزو كل رأي إلى صاحبه، وتوثيق النصوص المقتبسة كافة، مع الإدلاء بالرأي والتعليق ما كان ذلك لازما، كما اعتمد الباحث المنهج المقارن في بعض المواضع التي لم يكن فيها بديل عن المقارنة والترجيح.

الجديد في البحث

يتمثل الجديد الذي يقدمه البحث فيما يلي:

١- أنَّ هذه أول دراسة أكاديمية تحاول رصد الآثار الاقتصادية والاجتماعية والدينية والثقافية لغزو المغول بغداد بعيدا عن الاستغراق في السرد التاريخي للأحداث، أو الانشغال بالتفاصيل السياسية عن الجوانب الحضارية.

٢- اشتملت الدراسة على العديد من النصوص المترجمة من المصادر والمراجع الفارسية والإنجليزية.

٣- عنيت الدراسة بتحديد عناصر المجتمع البغدادي بعد الغزو المغولي، ورصدت التغير الذي أصاب التركيبة السكانية لبغداد، وما ارتبط بذلك من آثار اجتماعية نتجت عن الغزو المغولي لتلك المدينة.

وأخيرا، فهذا جهدي أقدِّمه بين يدي أساتذتي معتذرا عما أصابه من خطأ أو سهو أو تقصير، فإن كان التوفيق فمن الله وبفضله وعونه، وإن كان غير ذلك فمن نفسي ومن الشيطان، وحسبي أني حاولت، وعلى الله قصد السبيل، والحمد لله رب العالمين.

الباحث

محمد بن سليمان بن محمد خان

التمهيد

مباحث التمهيد:

مدخل وتوطئة

المبحث الأول: أوضاع العراق في ظل الخلافة العباسية قبيل الغزو المغولي.

أ- الأوضاع السياسية والإدارية.

ب- الأوضاع الدينية والمذهبية.

جـ - الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية.

المبحث الثاني: سقوط بغداد على أيدي المغول ونهاية الخلافة العباسية.

المبحث الثالث: احتلال المغول العراق وتأسيسهم الدولة الإيلخانية.

المبحث الرابع: إعادة تشكيل الخريطة السياسية بعد سقوط بغداد.

تعقيب.

مدخل وتوطئة:

ما من شك في أن المغول كان لديهم من أسباب القوة ما كفل لهم الانتصار على خصومهم وتوسيع رقعة ملكهم، لكن انتصارهم على الخلافة العباسية في العراق وقضاءهم على تلك الخلافة واستيلاءهم على الحاضرة العريقة بغداد لم يكن راجعا إلى قوتهم بقدر ما كان راجعا إلى بلوغ أوضاع الخلافة العباسية درجة من الضعف جعلت سقوط عرش العباسيين على أيدي المغول أمرا حتميا.

وإذا كانت الآثار الحضارية للغزو المغولي لبغداد تمثل المحور الأساسي لهذا البحث، فيلزم قبل البدء في تناول تلك الآثار عرض إطلالة سريعة على الأوضاع العامة التي كانت سائدة قبيل الغزو المغولي للعراق والاستيلاء على بغداد حاضرة الخلافة العباسية، وذلك فيما يلي.

المبحث الأول: أوضاع العراق في ظل الخلافة العباسية قبيل الغزو المغولي

من المتفق عليه تاريخيا بين المؤرخين أن العراق في العقود الأخيرة من عمر الدولة العباسية بلغ من الضعف السياسي والإداري والديني والمذهبي ما جعله صيدا سهلا لهجمات المغول وأطماعهم، وقد تمثلت مظاهر الضعف فيما يلي:

أ- الأوضاع السياسية والإدارية:

تمثلت مظاهر الضعف السياسي والإداري أقوى ما تمثلت فيما يلي:

١- ضعف شخصية الخلفاء: كان معظم خلفاء الفترة الأخيرة من عمر الخلافة العباسية ضعاف الشخصية لا دراية لهم بشئون الحكم(1)، وكانت الخلافة العباسية

(1) بدر: مصطفى طه: محنة الإسلام الكبرى، أو زوال الخلافة العباسية من بغداد على أيدي المغول، الطبعة الثانية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، سنة ١٩٩٩م، صـ٣٩.

قبيل حملة هولاكو خان قد تطاول عليها الزمن وأصابتها الشيخوخة وبدت عليها مظاهر الانهيار(١)، وكان مرجع ذلك في المقام الأول إلى ضعف شخصية الخلفاء الأواخر، الذي بلغ ذروته في شخصية الخليفة المستعصم بالله آخر الخلفاء العباسيين (٦٤٠- ٦٥٦هـ)، الذي يقول عنه أحد المؤرخين إنه كان « مستضعف الرأي، ضعيف البطش قليل الخبرة بأمور المملكة، مطموعا فيه غير مهيب في النفوس، ولا مطلع على حقائق الأمور، وكان زمانه ينقضي أكثره بسماع الأغاني، والتفرج على المساخرة... وكان أصحابه مستولين عليه، وكلهم جُهّال من أراذل العوام»(٢).

وعن المستعصم بالله يقول مؤرخ آخر إنه كان « قليل المعرفة والتدبير والتيقظ، نازل الهمة محبا للمال، مهملا للأمور، يتكل فيها على غيره»(٣).

٢- ضعف الإدارة:

من أبرز مظاهر الضعف التي خيمت على الخلافة العباسية في سنواتها الأخيرة ضعف السياسة الإدارية؛ ذلك أن جذور الضعف امتدت في جسم الدولة العباسية منذ أن سيطر الفرس أولا على الدولة ثم غلب الأتراك عليها ثانيا، بعد أن فتح لهم الخليفة المعتصم بالله الباب على مصراعيه فاستأثروا بالنفوذ وطغوا على سلطان الخلفاء، ولا شك أن تهاون العباسيين وانصرافهم عن العرب لَمِن أهم العوامل التي أدت إلى سقوط

---

(١) الصياد: فؤاد عبد المعطي: المغول في التاريخ، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، سنة ١٩٨٠م، صـ٢٤٩.

(٢) ابن طباطبا: محمد بن علي بن طباطبا المعروف بابن الطقطقي: الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، مطبعة الموسوعات بمصر، سنة ١٣١٧هـ، صـ٢٩٠.

(٣) ابن شاكر: محمد بن شاكر بن أحمد بن عبد الرحمن الكتبي: فوات الوفيات والذيل عليها، تحقيق إحسان عباس، الطبعة الأولى، دار صادر، بيروت، سنة ١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣م، جـ١، صـ٤٩٦.

هيبة الخلافة[١]، فاعتلال الإدارة وشغب الموالي وتطاولهم على الخلافة واستئثارهم بالنفوذ والصولة، كان له أعظم الأثر في وهن السلطة المركزية؛ فالخلفاء صاغرون أذلّاء، قد رضوا لأنفسهم الهوان والإساءة، وهم يستوون والوزراء والقضاة ورؤساء العسكر في أنهم راشون مرتشون يعيشون في جوٍّ من الغموض والريبة[٢].

٣- الصراع السياسي الداخلي:

كان الصراع والتشاحن سمة بارزة مخيمة على السلطة الحاكمة متمثلة في الخليفة وكبار رجال دولته وقادة جيشه، ذلك أنه « لم يكن زمام الأمور في بغداد مُركّزا في يد واحدة، بل كانت هناك سلطات مختلفة متعارضة، كل منها يجور على السلطة الأخرى... ولم تكن هناك رابطة تجمع الحكام ومن بيدهم تصريف شئون الدولة، بل كانا متنازعين متباغضين، كل منهم ينقم على الآخر، ويدبر ضدّه المؤامرات، ويسفه رأيه عند الخليفة»[٣]، ولم يكن هناك خلاف أشد آنئذ مما كان بين أقوى رجلين بعد الخليفة، وهما مؤيد الدين ابن العلقمي، الوزير الشيعي الشهير، ومجاهد الدين أيبك الدواتدار الصغير للخليفة فقد كان « كلاهما يكيد للآخر عند الخليفة، مما كان له أثره السيء في اضطراب الأمور، وتقويض سلطة الخلافة»[٤].

ب- الأوضاع الدينية والمذهبية:

كان من أبرز مظاهر الضعف والتفكك في بغداد قبيل الغزو المغولي احتدام الصراع الديني والمذهبي بصورة حادة أثرت تأثيرا سلبيا على التماسك الاجتماعي

---

(١) الصياد: المغول في التاريخ، صـ٢٤٩.

(٢) الصياد: المرجع السابق، صـ٢٥٠.

(٣) الصياد: المرجع السابق، صـ٢٥٣.

(٤) الصياد: المرجع نفسه، صـ٢٥٣.

للمجتمع البغدادي، وجعلته غير مؤهل لمقاومة الأخطار الخارجية « فقد كان سكان بغداد من أهل السنة والشيعة والمسيحيين واليهود، وكان هؤلاء جميعا في خلاف دائم حول المسائل الدينية، كما كانوا يختلفون في الميول السياسية، ولا شك أن مثل هذه الحالة كثيرا ما كانت تثير الفتن والمنازعات بين السكان»[١]، وقد زاد من هوة الخلاف الديني والمذهبي ما ذكرته المصادر من القتال الذي نشب بين أهل السنة والشيعة في بغداد قبيل الغزو المغولي، والذي تصرف فيه أبو بكر ابن الخليفة تصرفا أوغر صدور الشيعة بوجه خاص، وكان من أبرز العوامل التي دفعت الوزير ابن العلقمي لممالأة المغول وتشجيعهم على غزو بلاد الخليفة[٢].

لقد كان الخلفاء العباسيون يعتنقون المذهب السني، ولم تكن سياستهم تجاه السنة والشيعة في بغداد متوازنة، بل كانوا « يتخذون الوزراء والقضاة وكبار رجال الدولة من طائفة أهل السنة، هذا إلى أنهم كانوا ينشئون لهم المدارس والربط، والمارستانات والمساجد، وقد ذكروا أنّ مدارسهم في بغداد بلغت الثلاثين في أيام الناصر... أما الشيعة فإنهم وإن لم يكونوا في ذلك الوقت موضع استبداد أو ظلم من الخلفاء، إلا أنهم كانوا في مكانة أدنى من مكانة أهل السنة، ولم يكن الخلفاء يتخذون منهم وزراء

---

(١) الصياد: المرجع السابق، صـ٢٥٤.

(٢) راجع التفاصيل لدى: جوزجاني: أبي عمرو منهاج الدين عثمان بن سراج الدين، معروف به "منهاج سراج": طبقات ناصري، (أُلّف في الفترة ما بين ٦٥٧- ٦٥٨هـ)، تحقيق عبد الحي حبيبي قندهاري، كابل، ١٣٤٣هـ.ش، صـ٤٤٤؛ أبي الفداء: الملك المؤيد عماد الدين إسماعيل بن علي بن محمود بن عمر بن شاهنشاه بن أيوب: تاريخ أبي الفداء المسمّى "المختصر في أخبار البشر"، علق عليه ووضع حواشيه محمود ديّوب، دار الكتب العلمية، بيروت، بدون تاريخ، جـ٣، صـ٢٠٢؛ السيوطي: الإمام جلال الدين: تاريخ الخلفاء، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، القاهرة، سنة ١٣٧١هـ/ ١٩٥٢م، صـ٤٦٥.

أو أعوانا»[١]، لكن هذا كان الغالب فحسب؛ وقد اتخذ بعض الخلفاء وزراء من الشيعة، ومنهم الخليفة الناصر الذي استوزر نصير الدين العلوي الشيعي سنة ٦٠٤هـ فأغضب أهل السنة[٢]، وكذلك الخليفة المستعصم الذي اتخذ ابن العلقمي الشيعي وزيرا له.

وتجدر الإشارة إلى أن الباحث لا يأخذ على الخلفاء اعتمادهم على أهل السنة دون الشيعة بوجه عام إلا قليلا، بل يأخذ عليهم أنهم لم يتخذوا من التدابير ما يضمن ولاء الجميع للخلافة، ويجنب المجتمع البغدادي الفرقة والانقسام والصراع المذهبي الذي كان من أبرز العوامل التي استغلها المغول لإسقاط الخلافة والاستيلاء على بغداد.

ومع كلٍّ فقد كان لسياسة الخلفاء تجاه السنة والشيعة «أثرها السيء؛ لأن الشيعة أصبحوا يكرهون أهل السنّة ويحقدون عليهم تمتعهم بالمراكز العليا دونهم وقربهم من الخلفاء، ولذلك كانت المعارك كثيرا ما تقوم بين الفريقين فيقوض النظام ويضطرب الأمن»[٣].

أما عن أوضاع المسيحيين في بغداد قبيل الغزو المغولي، فقد كان لهم مركز ثابت وكان الخلفاء العباسيون يحسنون معاملتهم، وقد سمحوا لهم بإقامة الكنائس والأديرة، ومزاولة طقوسهم الدينية، وكان لهم في بغداد الغربية أديرة كثيرة، منها دير العذارى في حي الكرخ، ودير درتا، ودير القباب ودير أشموني وغيرها من الأديرة،

---

(١) مصطفى طه: محنة الإسلام الكبرى، صـ٤٩.

(٢) مصطفى طه: المرجع السابق، الصفحة نفسها.

(٣) مصطفى طه: المرجع السابق، صـ٥٠.

وكانت توجد في بغداد الشرقية كنيستان، إحداهما للنسطوريين والأخرى لليعقوبيين(١)، وعلى الرغم مما لقيه المسيحيون من رعاية وعطف من الخلفاء العباسيين، إلا أن موقفهم كان مخزيا أمام الغزو المغولي كما تؤكد ذلك بعض الروايات لدى المؤرخ المسيحي ابن العبري(٢).

ولم تختلف أوضاع اليهود في بغداد عن المسيحيين في أيام الخلفاء العباسيين، فقد عاشوا آمنين مطمئنين، واستمرت أحوالهم على تلك الحال من حسن المعاملة والتقريب من قبل الخلفاء العباسيين « كما كانوا يتمتعون بسلام وراحة وجاه عظيم، وكانت لهم مدارس لدراسة القانون الموسوي بلغت العشرة، وكان لهم رئيس يسمونه أمير الأسر، ويسميه المسلمون حفيد داوود النبيل، وتحت سلطته كلّ الجمعيات اليهودية، ويتمتع بدخل واسع، وكان الخلفاء العباسيون يقربون اليهود، ويأمرون الناس باحترام رئيسهم والقيام في حضرته، وكان لليهود ثمانية عشر معبدا بعضها في بغداد الشرقية، وبعضها في الكرخ، وكانت هذه المعابد فخمة بها أعمدة الرخام ونقوش الذهب؛ وذلك لأن اليهود في بغداد كانوا أغنياء يملكون البساتين والعقارات، ويشتغلون بالتجارة»(٣).

جـ- الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية:

لم تكن الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية في بغداد قبيل الغزو المغولي بأفضل حالا من الأوضاع الأخرى، فقد كانت تلك الأوضاع بالغة السوء والفساد، وأسهم ذلك بدور كبير في التعجيل بسقوط الخلافة العباسية وتيسير مهمة الغزاة المغول في

---

(١) مصطفى طه: المرجع السابق، الصفحة نفسها.

(٢) سيأتي الحديث عن ذلك فيما يأتي.

(٣) مصطفى طه: المرجع السابق، والصفحة، Asher: A.: The Itinerary of Rabbi Benjamin of Tudela, translated and edited by A.Asher, London and Berlin, 1840, pp. 100-104

السيطرة السريعة الخاطفة على مقاليد الأمور في بغداد وما تبقى حولها من أملاك الخلافة التي بلغت أضيق رقعة في عهد الخليفة المستعصم.

من الناحية الاجتماعية كان المجتمع البغدادي مجتمعا طبقيا مفككا تسود فيه طبقة عليا وتستحوذ على كافة المنافع والامتيازات دون غيرها من سائر أهل بغداد، وقد أسهم سلوك الخليفة وحاشيته في تعميق التفكك الاجتماعي وشدة احتداد التمييز الطبقي بين الناس، إذ كان الخلفاء «يعيشون في قصورهم الواسعة ولا يظهرون للناس إلا نادرا، وقد كانت الحكومة في زمنهم في أيدي غلمان القصر وعلى رأسهم أستاذ دار الخليفة يحركها كيف يشاء»[١]، ولا شكّ أنّ انعزال الخلفاء وحاشيتهم عن الناس أذكى روح الطبقية في المجتمع البغدادي آنذاك.

لقد كان كبار رجال الدولة من الوزراء والقادة وحاشية الخليفة يتصرفون كما لو كانوا يعيشون وحدهم في بغداد، « وقد بلغ من ازدياد سلطة أساتذة الدار أن طغوا على الوزراء، فلم نعد نسمع عنهم شيئا... وكان من أثر ضعف الخلفاء في هذه الفترة وتقلص سلطة الوزراء أمام تيار غلمان القصر وأساتذة الدار الجارف أن اعتلّت الإدارة في العراق، وبدأ العامة يحسون بضعف الحكومة وعجزها عن تسيير دفة البلاد؛ ولذلك نجدهم يستهترون بها، فتعم الفتن وتكثر الاضطرابات فيما بينهم»[٢]، وهذا كله أسهم في تعميق الطبقية في المجتمع، وزاد من حدّة تلك الطبقيّة الصراعات المذهبية التي كانت محتدمة بين الشيعة والسنة في ذلك الوقت.

---

(١) مصطفى طه: محنة الإسلام الكبرى، صـ٤٥.

(٢) مصطفى طه: المرجع السابق، صـ٤٦.

ومن الناحية الاقتصادية، تأكد من خلال السياسة الاقتصادية للخلافة العباسية في عهدها الأخير أنّ الدولة في طريقها إلى الزوال، وقد أسهم الركود الاقتصادي بنصيب كبير في تيسير مهمة الغزو المغولي؛ « فقد أثّرت العوامل الاقتصادية وأولها الخراج المرهق، وخطة التحكم في شئون الأمصار لمصلحة الطبقة الحاكمة، مما آل إلى كساد الحياة الزراعية والصناعية، وكان كلما ازداد الحكام غنى، ازداد الفقراء فقرا، ولما تجزأت الدولة إلى دويلات قام كل من أولياء الأمر بابتزاز أموال رعيته، وقضت الحروب المتواصلة بإنقاص عدد الرجال العاملين، فغدت أكثر المزارع مهجورة خرِبة، وزاد الخرابَ تكرّرُ الفيضان في سهول العراق الجنوبية»[١].

وقد زاد من سوء الأحوال الاقتصادية في العراق عامة وبغداد خاصة قبيل الغزو المغولي ما حدث في آواخر صيف سنة ٦٥٤هـ/ ١٢٥٦م؛ إذ أصاب مطر عظيم بغداد وأغرق العديد من أحيائها ومنازلها، واستمر المطر يهطل في تلك الديار خمسين يوما كاملة، ثم بدأ في التناقص مخلّفا أسوأ النتائج حتى شهد أحد المؤرخين الكبار بأن هذا المطر قد أفضى إلى أن أصبح نصف أراضي العراق في ذلك الوقت خرابا يبابا[٢].

---

(١) فيليب حتى: تاريخ العرب، جـ٢ صـ٥٨٢، الطبعة الرابعة، بدون تاريخ.

(٢) انظر: رشيد الدين: جامع التواريخ: تاريخ المغول، المجلد الثاني، الجزء الأول، تاريخ هولاكو مع مقدمة كاترمير، نقله عن الفارسية الأستاذ محمد صادق نشأت، والدكتور محمد موسى هنداوي، والدكتور فؤاد عبد المعطي الصياد، وترجم مقدمة كاترمير عن الفرنسية الدكتور محمد القصاص، القاهرة، ١٩٦٠م، م٢جـ١، صـ٢٦٢؛ الصياد: المغول في التاريخ، صـ٢٥٤- ٢٥٥.

ويتحدث العَيْنيّ عن هذا الطوفان أو الفيضان الذي أصاب عاصمة الخلافة قبيل سقوطها فيذكر أنه «أصابها غرق عظيم حتى دخل الماء من أسوار بغداد إلى البلد، وغرق كثير من البلد ودخل الماء دار الخليفة وسط البلد، وتهدمت دار الوزير وثلاثمائة وثمانون دارا، وانهدم مخزن الخليفة وهلك من خزانة السلاح شيء كثير بل أتلفه كله، وأشرف الناس على الهلاك، وعادت السفن تدخل إلى وسط البلد وتخترق أزقّة بغداد»[١].

ومن المقرر أن الحرفة الأولى في العراق في العصر العباسي كانت الزراعة، وتشير المصادر إلى أن الخلفاء العباسيين – وبخاصة المتأخرون منهم– أهملوا المشروعات الزراعية، ولم يهتموا بتيسير شئون الزراعة وسبل الريّ، فكان الحصول على الماء للريّ متعذّرا، كما كانت المزروعات عرضة لخطر الفيضانات المتكرّرة، فساءت أوضاع أهل العراق آنئذ وساءت أحوالهم[٢].

وكانت السياسة الاقتصادية السيئة للخلفاء المتأخرين من الوضوح بحيث أثارت اهتمام المؤرخين، فالخليفة الناصر (٦٢٢– ٦٤٠هـ/ ١٢٢٥– ١٢٤٢م) كان سيء السيرة بحيث خربت العراق في أيامه، مما أحدثه من الرسوم، وما اغتصبه من الأموال والأملاك، حتى أصبح الخراج في أيامه أضعاف ما كان عليه قبل عهده، لدرجة أن بعقوبا التي كان المتحصّل منها لا يتجاوز عشرة آلاف دينار، أصبحت

---

(١) بدر الدين محمود بن أحمد العَيْني (ت٨٥٥هـ): عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، عصر سلاطين المماليك، جـ١، حوادث وتراجم ٦٤٨– ٦٦٤هـ، تحقيق محمد محمد أمين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، سنة ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م، ص١٢٦– ١٢٧.

(٢) Richard Coke: Baghdad the City of Peace, London, 1927, p. 125; مصطفى طه: محنة الإسلام الكبرى، صـ٥٢.

يؤخذ منها في عهد الخليفة الناصر ثمانين ألف دينار[١]، وقد استمرت الحال على ذلك في عهد الخليفة الأخير المستعصم بالله، ولا شكّ أنه ليس أضرّ على أحوال الرعايا الاقتصادية من إثقال كواهلهم بأعباء الضرائب والمكوس.

ولم تكن أحوال التجارة بأفضل حالا من الزراعة وشئونها؛ فقد أهملها الخلفاء العباسيون هي الأخرى، ولم تذكر المصادر أنهم اهتموا بالفلاحين من رعاياهم «فكان جشعهم سببا في كسادها»[٢].

المبحث الثاني: سقوط بغداد على أيدي المغول ونهاية الخلافة العباسية

بعد استقرار الأوضاع في إيران للمغول على أثر إسقاط الدولة الخوارزمية، وجد الخاقان المغولي "منكو قاآن" الظروف مواتية لمواصلة الزحف المغولي غربا باتجاه الخلافة العباسية في العراق، وكلّف أخاه هولاكو على رأس جيش جرار بإخضاع ما تبقى من إيران للمغول بالقضاء على الدولة التي كان الشيعة الروافض قد أقاموها لأنفسهم، وعرفت في التاريخ بـ"دولة الشيعة الإسماعيلية"[٣]، وذلك بمنطقة آلَمَوْت[١]،

---

(١) انظر: السيوطي: تاريخ الخلفاء، صـ١٨١؛ مصطفى طه: محنة الإسلام الكبرى، صـ٥٢-٥٣.

(٢) مصطفى طه: محنة الإسلام الكبرى، صـ٥٣.

(٣) حول هذه الدولة راجع: خليل أدهم: تاريخ الدول الإسلامية ومعجم الأسر الحاكمة، نقله عن التركية الدكتور أحمد السعيد سليمان، طبعة دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٢م، جـ١ صـ٣٠٣- ٣٠٤؛ جمال الدين: محمد السعيد: دولة الإسماعيلية في إيران- بحث في تطور الدعوة الإسماعيليّة إلى قيام الدولة مع ترجمة للنص الفارسي الذي ورد عنها في كتاب "تاريخ جهانگشاى" لعطا ملك الجويني، مطابع سجل العرب، سنة ١٩٧٥م.

وكانت هذه الدولة قد قامت في الفترة (٤٨٣- ٦٥٤هـ/ ١٠٩٠- ١٢٥٦م)[٢] وسيطرت على ما يقارب مائة وخمسين قلعة حصينة[٣] بمناطق الجبال في وسط إيران.

وهناك أسباب عديدة دفعت المغول للقضاء على إسماعيلية إيران، لا يتسع المقام لذكرها[٤]، لكن ما يعنينا من تلك الأسباب أنّ المغول أدركوا جيدا « أنّ وجود

---

(١) هذا المركّبُ فارسيّ الأصل، يتكون من: "آلُه" أي "عقاب"، و"آمُوت": مخفّف المصدر آموختن (أن يتعلم)؛ فالمعنى إذن تعليم العقاب (تاريخ مفصل ايران از استيلاى مغول تا اعلان مشروطيت، در جهار جلد، جلد اول، از حمله چنگيز تا تشكيل دولت تيمورى، مطبعة مجلس، طهران، ١٣١٢هـ.ش، حاشية رقم ١ ص١٧١) وقيل عش العقاب، وهي على ستة فراسخ من مدينة قزوين. لسترنج (كِي): بلدان الخلافة الشرقية، نقله إلى العربية بشير فرنسيس وكوكيس عواد، الطبعة الثانية، مؤسسة الرسالة، سنة ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥، صـ٢٥٦.

(٢) خليل أدهم: تاريخ الدول الإسلامية ومعجم الأسر الحاكمة، الترجمة العربية، جـ١ ص٣٠٣- ٣٠٤.

(٣) عباس اقبال: تاريخ مفصل ايران، م١ ص١٧٢، الترجمة العربية، ص191، وحول هذه القلاع راجع: پيتر ويلى: قلاع حشاشين، ترجمه وحواشى از على محمد ساكى چاپ دوم، انتشارات علمى، تهران، ١٣٧٤هـ. ش؛ حسين: مصطفى محمد: الدور السياسي والحضاري للوزراء زمن المغول الإيلخانيين في إيران(٦٥٦- ٧٥٦هـ/ ١٢٥٨- ١٣٥٥م) رسالة ماجستير غير مطبوعة من قسم التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية بكلية دار العلوم جامعة القاهرة، سنة ٢٠١٠م، جـ١ صـ٩.

(٤) من هذه الأسباب الاغتيالات التي نفذها فداوية الإسماعيلية ضد بعض قادة المغول، ومحاولات الاسماعيلية التحالف مع بعض ملوك أوربا ضد المغول. راجع التفاصيل المتعلقة بذلك لدى: رشيد الدين: تاريخ جنكيز خان، مخطوط رقم ١٠٧ بمعهد إحياء المخطوطات العربية بالقاهرة، ص٣١١ أ، ٤٥ أ؛ عباس إقبال: تاريخ إيران بعد الإسلام من بداية الدولة الطاهرية حتى نهاية الدولة القاجارية (سنة ٢٠٥- ١٢٤٣هـ/ ٨٢٠- ١٩٢٥م، نقله إلى العربية الدكتور محمد علاء الدين منصور، الطبعة الأولى، دار الثقافة والنشر والتوزيع، القاهرة، سنة ١٩٨٩م، ص٤٢٨؛ سليم: صبري عبد اللطيف: الصراع السياسي والمذهبي بين الشيعة والسنة في عصر سيطرة إيلخانات المغول في إيران (٦٥٠-٧٣٦هـ/ ١٢٥٢-

الإسماعيلية يمثل عقبة كبرى أمام أطماع المغول وجيوشهم المتجهة غربا، ويشكل تهديدا قويا للدولة المستقرة التي كان الخاقان المغولي يريد بناءها لأخيه هولاكو وأسرته في المنطقة الواقعة بين شواطئ جيحون وحدود مصر »[١].

وكانت المهمة التالية التي كلف بها الخاقان "منكو قآن" أخاه هولاكو تتمثل في القضاء على الخليفة العباسي والاستيلاء على العراق والجزيرة ثم الشام ومصر، وكان الخاقان « يعرف جيدا أن هولاكو خان، يستطيع بجيشه الذي أُمّر عليه أن يكون ملكا مسيطرا ومتمكنا في ممالك إيران، وأن هذا المُلك سوف يثبت بحالة وطيدة مستقرة له ولأسرته المشهورة »[٢].

وقد أفاضت المصادر في الحديث عن حملة هولاكو والاهتمام البالغ الذي لقيته من قبل الخاقان المغولي[٣]، والواقع أنه « لم يكن قدوم هولاكو على رأس جيش كبير إلى إيران مجرد حملة عسكرية تهدف إلى تحقيق مكاسب مؤقتة، بل كانت ترمي إلى

١٣٣٥م)، رسالة دكتوراه غير مطبوعة من قسم التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية بكلية دار العلوم جامعة القاهرة، سنة ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م، صـ١٨٠- ١٨١؛ رنسيمان: ستيفن: تاريخ الحروب الصليبية، نقله إلى العربية الدكتور السيد الباز العريني، نشر دار الثقافة، بيروت، سنة ١٣٨٩هـ/ ١٩٦٩م، جـ٣ صـ٤٣٧؛ مصطفى حسين: الدور السياسي والحضاري للوزراء زمن المغول الإيلخانيين في إيران، جـ١ صـ٩- ١٠.

(١) مصطفى حسين: المرجع السابق، جـ١ صـ١٠.

(٢) رشيد الدين: جامع التواريخ: م٢ جـ١، صـ١٤٤.

(٣) حول هذه الحملة راجع على سبيل المثال: رشيد الدين: المصدر السابق، ص١٤٤ فما بعدها، صـ٢٣٦- ٢٣٧؛ الجويني: تاريخ جهانكشاى جلد سوم، در تايخ منگو قآن وهولاگو واسماعيليه، بتصحيح محمد بن عبد الوهاب قزوينى، ليدن، هلاند، ١٣٥٥هـ/ ١٩٣٧م، صـ٩٦؛ مصطفى حسين: المرجع السابق، جـ١، ص٧-١٣.

تأسيس ملك خاص بهولاكو وأبنائه من بعده»[١]، وقد تحركت هذه الحملة في أواخر سنة ٦٥١هـ/ ١٢٥٣م وعبرت نهر جيحون سنة ٦٥٣هـ/ ١٢٥٥م، وتمكن هولاكو من القضاء على دولة إسماعيلية إيران في أواخر سنة ٦٥٤هـ/ ١٢٥٦م، ولم يتبق من أهداف الحملة سوى إسقاط الخلافة العباسية والاستيلاء على العراق.

وقد أعدّ هولاكو ومساعدوه خطة محكمة لحصار بغداد والاستيلاء عليها في أقصر وقت وجهد ممكنين، وكعادته في إتقان الإعداد والتزام الترقب والاستطلاع وإعداد الجيوش « استغرق هولاكو ما يقرب من عشرة أشهر حتى تيقن من أنّ الفرصة باتت سانحة لتنفيذ مهمة الاستيلاء على بغداد» [٢]، وفي خلال هذه الفترة لم تتوقف المراسلات بين هولاكو والخليفة المستعصم، وبدا الخليفة في ردوده على الغزاة المغول في صورة المستهين بهم، المعتمد على ماضيه التليد وزعامته الدينية للعالم الإسلامي آنئذ، وقد أثبتت الأحداث التالية قصر نظر الخليفة وضعف سياسته وعدم إدراكه لخطورة الظروف المحدقة به وبرعاياه ودولته الآخذة في طريقها نحو الزوال.

ومن العجيب الذي تذكره المصادر عن المغول القساة أنّ الخاقان المغولي "منكو قآن" الأخ الأكبر لهولاكو كان قد أوصى الأخير بألّا يتعرض للخليفة العباسي المستعصم بسوء مطلقا إذا بادر إلى الطاعة والتسليم[٣]، وبعد كثير من تبادل

---

(١) مصطفى حسين: الدور السياسي والحضاري للوزراء زمن المغول الإيلخانيين في إيران، جـ١، صـ٧.

(٢) Schneider: Bret. E, Mediaeval researches from Eastern Asiatic Sources (st. Peters burg- London 1887) Vol.1 P.118.

(٣) انظر: رشيد الدين: جامع التواريخ، م٢، جـ١، الترجمة العربية، ص٢٣٧؛ مصطفى طه: محنة الإسلام الكبرى، صـ١٥٠؛ صبري سليم: الصراع السياسي والمذهبي بين الشيعة والسنة في عصر سيطرة إيلخانات المغول في إيران، صـ١٨٧؛ مصطفى حسين: المرجع السابق، جـ١ صـ١١.

المراسلات بين الجانبين، ووقوع بعض المواجهات الاستكشافية المتقطعة، تأكّد هولاكو أنّ أمر بغداد ليس بالسهل اليسير، فاستخدم الحنكة والخداع، واستعان بمن انضم إليه من المسلمين وغيرهم، وحشد الجيوش وأتقن الاستعداد، حتى أزال الحوائل بينه وبين المدينة، ثم استولى على "بغداد الغربية" في منتصف المحرم سنة ٦٥٦هـ/ أواخر فبراير سنة ١٢٥٨م بعد هزيمة جيش الخليفة(١).

وتؤكد المصادر أنّ هولاكو بعد أن استولى على بغداد الغربية «ضرب حصارا حول "بغداد الشرقية"، وشرع في الهجوم على أسوارها حتي سقطت بعض أبراجها، ثم اضطر الخليفة المستعصم، آخر الخلفاء العباسيين ببغداد، للرضوخ فسلم نفسه لهولاكو في يوم الأحد الرابع من صفر من السنة نفسها» (٢).

وكما يقول أحد الباحثين، فإن استسلام الخليفة ورضوخه لهولاكو خان «لم يضع حدّا للحرب والحصار، بل كان إيذانا بإعمال التخريب والقتل العام في المدينة، فكان ذلك من أشدِّ النكبات التي أصابت العالم الإسلامي في العصور الوسطى، وخاصة أن هولاكو أطلق العنان لنفسه ولجنده، فقتل الخليفة وحاشيته ورعيته، ولم يفرّق في ذلك بين خاص أو عام» (٣).

---

(١) راجع التفاصيل لدى: رشيد الدين: جامع التواريخ، م٢، جـ١، الترجمة العربية، صـ٢٨٥-٢٨٦؛ مصطفى طه: محنة الإسلام الكبرى، صـ١٦٧- ١٦٨؛ مصطفى حسين: الدور السياسي والحضاري للوزراء زمن المغول، جـ١، صـ١١.

(٢) رشيد الدين: المصدر السابق، ص٢٩٠؛ عباس اقبال: تاريخ مفصل ايران، م١ ص١٨٤، الترجمة العربية، ص201.

(٣) مصطفى حسين: المرجع السابق، الصفحة نفسها؛ راجع أيضا: مصطفى طه: المرجع السابق، ص١٧٨؛ فهمي: عبد السلام عبد العزيز: تاريخ الدولة المغولية في إيران، طبعة دار المعارف، القاهرة، سنة ١٩٨١م، ص١٢٤.

وقد خالف هولاكو بقتل الخليفة العباسي وصية أخيه الخاقان الأعظم للمغول الذي كان قد أوصاه بعدم التعرض للخليفة حال خضوعه واستسلامه؛ ذلك أنّ الغدر وخيانة العهد كانت السمة البارزة في صراعات المغول المسلحة وحروبهم، وبخاصة في قضائهم على مدن وحواضر الدولة الخوارزمية بمنتهى القسوة والوحشية، ويبدو أن موقف هولاكو من الخليفة قد أثّر تأثيرا سلبيا على علاقاته بأبناء عمومته المعروفين بـ"مغول القبيلة الذهبية"(١)، فوقعت بينهم الحروب والصراعات على مدى عقود تالية(٢).

وخلاصة القول فقد « كان سقوط بغداد وقتل الخليفة يعني نهاية الخلافة العباسية بالعراق، بعد أن استمرت أكثر من خمسة قرون، وبداية القيام الفعلي

---

(١) ترد في المراجع الإنجليزية (Golden Horde)، نسبة إلى اللون الذهبي الذي اشتهرت به مخيماتها، وقد أقامها المغول المعروفون أيضا بـ"مغول القبجاق" و"دولة بني جوجي". كان جنكيزخان قد قسم البلاد التي استولى عليها قبيل وفاته بين أبنائه الأربعة المشاهير، وكانت الأجزاء الواقعة غربي قزوين وحوض نهر الفولجا من نصيب ابنه جوجي فأقام هناك دولته المشار إليها، وكان ابنه بركة خان من أوائل القادة المغول الذين اعتنقوا الإسلام، وقد برهن على صدق عقيدته بحروبه مع هولاكو وبنيه الإيلخانيين، وعمله على تقوية أواصر الصداقة بين مغول القبيلة الذهبية ودولة المماليك في مصر والشام. للمزيد راجع: عاشور: سعيد عبد الفتاح: العصر المماليكي في مصر والشام، الطبعة الثانية، القاهرة، سنة ١٩٧٦م، صـ٢٢٤؛ الحجي: حياة ناصر: العلاقات بين دولة المماليك ودولة مغول القفجاق في الفترة ما بين ٦٥٨– ٧٤١هـ/ ١٢٦٠– ١٣٤١م، الحولية الثانية لكلية الآداب، جامعة الكويت، ١٩٨١م/ ١٤٠٠هـ.

(٢) حول الصراع الحربي بين المغول الإيلخانيين ومغول القبيلة الذهبية راجع: الصياد: فؤاد عبد المعطي: الشرق الإسلامي في عهد الإيلخانيين (أسرة هولاكو خان)، منشورات مركز الوثائق والدراسات الإنسانية بجامعة قطر، سنة ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م ، صـ٤١– ٤٣.

لإيلخانية إيران المغولية، التي أخذت تسيطر على أحداث الشرق الإسلامي، وتمثل إلى جانب دولة المماليك بمصر والشام أكبر قوتين متنافستين آنئذٍ»[١].

المبحث الثالث: احتلال المغول العراق وتأسيسهم الدولة الإيلخانية

تمثل الأثر السياسيّ الأكبر والأعمق للغزو المغولي لبغداد، حاضرة الخلافة العباسية، في تكوين كيان سياسي جديد، مثّل أحد أكبر القوى التي سيطرت على الأحداث في تلك الحقبة من التاريخ الوسيط، وهذا الكيان هو ما يعرف في التاريخ بالدولة الإيلخانية، أو "إيلخانية إيران[٢] المغولية" نسبة إلى لفظة "إيلخان" التي تعني عند المغول "الحاكم التابع"[٣]، وهذه الدولة تنسب لأسرة هولاكو خان الذي أسسها ثم حكمها هو وعدد من أبنائه وأحفاده، وبعض المنتسبين إليهم على مدى قرن من الزمان يبدأ بسقوط بغداد سنة ٦٥٦هـ، وينتهي بسقوط تلك الدولة سنة ٧٥٦هـ وفقا لبعض الشواهد الأثرية التي تشير إلى أنّ الدولة كانت لا تزال قائمة حتى تلك السنة[٤]، وبذلك تكون تلك الدولة قد قامت منذ حوالي منتصف القرن السابع حتى منتصف القرن الثامن الهجري (منتصف القرن الثالث عشر حتى منتصف القرن الرابع عشر الميلادي).

(١) مصطفى حسين: الدور السياسي والحضاري للوزراء زمن المغول الإيلخانيين، جـ١، صـ١١.

(٢) خصص المرحوم الدكتور فؤاد عبد المعطي الصياد كتابا ضخما لتناول التاريخ السياسي وكثيرا من جوانب الحياة الحضارية للدولة الإيلخانية وعلاقاتها بالقوى المعاصرة لها، وأسماه "الشرق الإسلامي في عهد الإيلخانيين- أسرة هولاكو خان"، وهذا الكتاب يعد المرجع الرئيس الذي لا غنى عنه لكل من يريد دراسة العصر الإيلخاني.

(٣) حول مصطلح "إيلخان" راجع: مصطفى حسين: الدور السياسي والحضاري للوزراء زمن المغول الإيلخانيين، جـ١، صـ١٦.

(٤) سيأتي بحث تاريخ قيام وسقوط الدولة الإيلخانية في الفصل الأول من الدراسة.

المبحث الرابع: إعادة تشكيل الخريطة السياسية بعد سقوط بغداد

كان سقوط بغداد والقضاء المغولي على الخلافة العباسية مؤذنًا بإعادة تشكيل الخريطة السياسية للعراق والجزيرة والشام، وإحداث تغيير جذري في الصراع السياسي بين المغول من ناحية والقوى الممثلة للمسلمين آنئذ من ناحية أخرى، فقد وقفت دولة المماليك بمصر والشام، التي نشأت قبيل سقوط بغداد بسنوات معدودة (أي سنة ٦٤٨هـ/ ١٢٥٠م)، في وجه المغول الغزاة، وأوقفت زحفهم عند "عين جالوت" على مشارف حدود مصر مع الشام في الموقعة الشهيرة سنة ٦٥٨هـ/ ١٢٦٠م(١)، وبذلك صار مماليك مصر والشام من ناحية والمغول من ناحية أخرى، قطبي الصراع في غرب آسيا منذ النصف الثاني من القرن السابع الهجري، وقد امتدّ هذا الصراع لعقود من الزمان أكدت في نهايتها تفوق المماليك على المغول وتمكنهم من الحفاظ على ما تبقى من العالم الإسلامي في يد المسلمين.

وباستقرار المغول في العراق أصبح نهر الفرات حدًّا طبيعيا فاصلا بين أملاك الدولة الإيلخانية الناشئة ودولة المماليك بمصر والشام، التي كانت هي الأخرى حديثة النشأة؛ إذ كان قيامها في سنة ٦٤٨هـ/ ١٢٥٠م، لتكون القوة الإسلامية الفتيّة المدافعة عما تبقى من العالم الإسلامي، الذي كان يتهدده آنئذ الخطر المغولي والصليبي في آنٍ معا.

---

(١) حول موقعة عين جالوت التي انتصر فيها مماليك مصر والشام على المغول راجع: الصياد: فؤاد عبد المعطي: المغول في التاريخ، صـ٢٩٧- ٣٢٠؛ العلبي: أكرم حسن: معارك المغول الكبرى في بلاد الشام، دار المأمون للتراث، الطبعة الأولى، بيروت، سنة١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.

تعقيب:

هكذا كانت أوضاع الحاضرة العباسية بغداد قبيل سقوطها في أيدي المغول، تلك الأوضاع التي كانت من الضعف والسوء بحيث تمكن المغول من الاستيلاء عليها، وأقاموا لأنفسهم دولة في رقعة شاسعة من مناطق العراق وإيران وغيرهما، واتخذ حكمهم طابعا عسكريا اعتاده المغول في معظم تاريخهم، ويبدو أن أوضاع الحكم والإدارة في العراق تحت الاحتلال المغولي كانت تسير بآلية واحدة لا تختلف عن سياستهم التي اتبعوها في حكم مناطق إيران التي استولوا عليها من قبل؛ إذ « كان الخاقان المغولي يرسل حكاما عسكريين من كبار الأمراء لإحكام السيطرة الأمنية على المنطقة والإشراف على تنظيم الشئون الإدارية والمالية، وجمع الضرائب وإقرار الأمن، فكان هؤلاء يستعينون بعمال من أهل البلاد لتدبير الشئون وقضاء المصالح»[1].

والواقع أن الخراب الذي أصاب مناطق إيران والعراق وغيرهما على أثر الغزو المغولي كان كفيلا بأن يجعل عودة الاستقرار والنظام إلى تلك المناطق أمرا بعيد المنال، يحتاج تحقيقه إلى سنوات طويلة وجهود مُضنية، ورجال ذوي قوة ودراية وحسن تدبير.

وعلى الرغم مما بُذل من جهود طيبة في المناطق التي خرّبتها جيوش المغول في إيران والعراق قبل قيام الدولة الإيلخانية، إلا أنّ « معظم هذه الجهود كانت

---

(1) انظر: عباس اقبال: تاريخ مفصل ايران، ص١٦٥؛ عبد الوهاب علوب: المرجع نفسه مترجمًا إلى العربية بعنوان: تاريخ المغول منذ حملة جنكيز خان حتى قيام الدولة التيمورية، المجمع الثقافي، أبو ظبي، الإمارات العربية المتحدة، ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م، ص١٨٥.

منصبّة على النواحي السياسية والإدارية التي تهدف إلى تثبيت أقدام الغزاة المغول في البلاد وتنظيم شئونها الإدارية بشكل يعين على الاستفادة بخيراتها في يسر، أما الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والمعيشية للرعايا المغلوبين على أمرهم، فقد كانت سيئة بوجه عام؛ فعلاوة على إزهاق الأرواح وتخريب البلاد، فقد نالت المؤسسات الاقتصادية والاجتماعية ضربة على يد الغزاة المغول لا يمكن جبرها»(١)، كما أنّ الغزو المغولي وما أعقبه من صراعات بين أمراء المغول، أحدثا تأثيرا سلبيا قويا على النظام الاقتصادي والاجتماعي في إيران والعراق، فساءت أحوال الناس وتراجعت أوضاع الثقافة والحضارة على نحوٍ ملحوظ، وصارت الصناعة والزراعة وأسلوب الحياة المدنية عرضة للانحطاط(٢)؛ ويبدو أن ذلك كان ناتجا - إلى حدٍّ كبير- عن حرص الغزاة المغول على فرض سيطرتهم على الناس بالقوة والبطش، وعملهم الدائم على تكليف الرعايا فوق طاقتهم بفرض الضرائب الباهظة عليهم.

ولأنّ البحث معنيٌّ -في المقام الأول- بالآثار الحضارية للغزو المغولي لبغداد، فسيجعل من عرض تلك الآثار، والوقوف على مدى تأثر المجتمع العراقي عامة والبغدادي خاصة في تلك الحقبة بتلك الآثار- محورا رئيسا يدور حوله، ويتّخذ منه منطلقا لبحث عدد من القضايا التي من شأن البحث فيها أن يمنح الصورة السياسية والحضارية للعراق عامة وبغداد خاصة إبّان الغزو المغولي مزيدا من الوضوح.

---

(١) انظر: زاده: هاشم رجب: آئين كشورداری در عهد وزارت رشيد الدين فضل الله همدانی (متوفی ٧١٨هـ)، انتشارات توس، دانشگاه تهران، ٢٥٣٥ شاهنشاهی، صـ٥ (والترجمة العربية لعنوان هذا المرجع: النظم الإدارية في ظل وزارة رشيد الدين فضل الله الهمذاني).

(٢) انظر: المرجع السابق، صـ٢٦٩.

وإذا كانت الآثار الحضاريّة شديدة الارتباط والتأثر بالأوضاع السياسية، فقد كان لزاما على البحث الحالي أن يوطئ لدراسة تلك الآثار بعرض موجز للحالة السياسية التي سادت مناطق العراق –وبخاصة بغداد– في ظل قيام الدولة المغولية الإيلخانية التي أنشأها هولاكو لتكون معقلا لأسرته على مدى قرن من الزمان، وهذا هو موضوع الفصل الأول من هذه الدراسة، الذي يأتي عرض مباحثه في السطور التالية.

****

***

*



الفصل الأول

قيام الدولة الإيلخانية



مدخل:

إذا كان هذا البحث يهدف في المقام الأول إلى رصد الآثار الحضارية للغزو المغولي لبغداد حاضرة الخلافة العباسية، فإنّ هذا الهدف لا يمكن تحقيقه على نحو سليم إلا بالوقوف على الأوضاع السياسية المحيطة بالمسرح الجغرافي والإطار الزمني له؛ فالتاريخ سياسة وحضارة، والنشاط الحضاري مرتبط ارتباطا وثيقا بالأوضاع السياسية، وعند تركيز زاوية النظر في البحث على الجوانب الحضارية فإنه ينبغي عدم إهمال الجانب السياسي، ومن هذا المنطلق فقد كان لزاما على الباحث أن يخصص الفصل الأول للتعريف بالأوضاع السياسية المحيطة بمسرح البحث؛ وذلك توطئة للدخول في عرض الآثار الحضارية للغزو المغولي لبغداد تباعا فيما يلي من فصول.

لقد أصبحت مدينة بغداد مركزا لولاية من ولايات الدولة الإيلخانية ومقرًّا لحاكمها الإداري وديوانها المالي والإداري، فتراجع دورها من عاصمة للخلافة العباسية الزاهرة إلى ذلك الدور الإقليمي المحدود، وهذا الأثر السياسي الذي أصاب بغداد كانت له جوانب حضارية اقتصادية واجتماعية وثقافية متنوعة، وهو مرتبط بلا شكّ بالأوضاع السياسية للدولة الإيلخانية التي أصبحت بغداد مدينة من مدنها، وعلى هذا الأساس كان تحديد موضوع هذا الفصل.

وقد تمثل الملمح السياسي الأبرز بعد الغزو المغولي لبغداد سنة ٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م في إقامة دولة مغولية فتيّة استمرت زهاء قرن من الزمان، وكثيرا ما يأتي الحديث في المصادر والمراجع عن تاريخ تلك الدولة على نحوٍ معمّم غير مخصص؛ فيقال جاء المغول وفعل المغول دون تحديد للشعبة المعيَّنة أو الدولة المعينة من دول المغول، مع أن المقصود غالبا ما يكون في مثل تلك السياقات إنما هو المغول الإيلخانيون، أو مغول إيران أو الدولة الإيلخانية، وتلك كلها مسميات شائعة لدولة واحدة أسسها هولاكو

خان، وحكمها هو ثم أبناؤه وأحفاده من بعده وبعض من انضم إليهم من المنتسبين لأسرة هولاكو.

وثمة بعض النقاط المشكلة المرتبطة بالدولة الإيلخانية، وهذه النقاط بحاجة إلى مزيد بيان، وأهمها الاختلاف بين المؤرخين حول التاريخ الحقيقي لتأسيس تلك الدولة، وهل كان قبل سقوط بغداد في أيدي المغول أو بعده؟ وكذلك فإنّ الحدود الجغرافيّة والزمنية لتلك الدولة، والتاريخ الفعلي لسقوطها، من القضايا التي يعدّ الوقوف عليها ضرورة ملحّة للبحث الحاضر.

وعلى الرغم من أن سلسلة سلاطين المغول الإيلخانيين قد بلغت سبعة عشر إيلخانا، فإن معظم هؤلاء السلاطين غير معروفين بالدرجة المطلوبة لدى بعض المتخصصين، فضلا عن غير المتخصصين في دراسة التاريخ عامة وتاريخ المغول خاصة.

وفيما يبدو، فإن الشهرة التي بلغها هولاكو خان – رأس الأسرة الإيلخانية ومؤسس الدولة – قد غطت على كثير ممن جاء بعده من سلاطين الدولة، وربما يعرف المطالع للمصادر "آباقا خان" بن هولاكو، المعروف في المصادر العربية بـ"أبغا"، وكذلك السلطان غازان خان حفيد آباقا، الذي تتابعت حروبه مع المماليك في الشام وآسيا الصغرى، ثم أبو سعيد آخر السلاطين الإيلخانيين الأكثر شهرة، وبين هؤلاء الأربعة أسماء أخرى لسلاطين حكموا الدولة ووجهوا سياستها في فترات مهمة، وكان لهم اهتمام ومواقف تجاه ولاية العراق العربي ومركزها المتمثل في مدينة بغداد، وقد جاء بعد أبي سعيد ثمانية آخرون من السلاطين الإيلخانيين حتى سقطت الدولة، لكنهم كانوا مغمورين في أغلب الأحيان، وهذا كله يجعل التعريف الموجز بالسلاطين الإيلخانيين جميعا ضرورة لازمة للبحث الحاضر.

ومن خلال ما سبق يتضح أن هذا الفصل يمكن أن يحقق أهدافه من خلال تناول خمسة مباحث بالدراسة والتفصيل، وهي:

المبحث الأول: اختلاف المؤرخين حول تاريخ تأسيس الدولة الإيلخانية.

المبحث الثاني: الحدود الزمنية والجغرافية للدولة الإيلخانية.

المبحث الثالث: النظام السياسي والإداري للدولة الإيلخانية.

المبحث الرابع: تعريف موجز بسلاطين الدولة الإيلخانية وأبرز أحداث عهودهم.

المبحث الخامس: مكانة بغداد في العهد الإيلخاني.

وفيما يلي عرض مفصل لتلك المباحث.

المبحث الأول: اختلاف المؤرخين حول تاريخ تأسيس الدولة الإيلخانية

قد يتبادر إلى الذهن أن قيام الدولة الإيلخانية كان بعد الاستيلاء على العاصمة العباسية بغداد سنة ٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م، لكنه بالرجوع إلى المصادر يتبين أن المؤرخين والباحثين اختلفوا في تحديد تاريخ معيّن لقيام تلك الدولة، ومن الآراء التي وردت في هذه المسألة ما يلي:

أولا: أن قيام الدولة الإيلخانية كان سنة ٦٥٤هـ/ ١٢٥٦م:

إلى هذا الرأي ذهب بعض المؤرخين الذين يؤرخون بداية إيلخانية إيران المغولية بسنة ٦٥٤هـ/ ١٢٥٦م، يعني قبل سقوط بغداد في أيدي المغول بقرابة سنتين، ويأتي

على رأس هؤلاء المؤرخ الإيراني الشهير رشيد الدين فضل الله الهمذاني[1] الذي يذكر في معرض سرد أحداث ربيع سنة ٦٥٤هـ أنه تم تجهيز سرادق مهيب أشبه بالعرش الملكي لهولاكو خان، فيقول: «وفي يوم تمّت فيه أسباب السعادة، أعدّت الخيمة وزُيّنت قاعة المجلس بكل أنواع الزينة، فأُعجب هولاكو خان بذلك المنظر، وفي هذه الظروف المباركة ذات الطالع الأغرّ، جلس على عرش السعادة ومسند التوفيق، وكان يحضر هذا الاجتماع الخواتين[2] والنبلاء والأمراء، وجميع أركان الدولة وأعيان الحضرة،

---

(١) هو الوزير المؤرخ والعالم الموسوعي رشيد الدين فضل الله بن أبي الخير الهمذاني الطبيب المتوفى مقتولا سنة ٧١٨هـ/ ١٢١٨م، كان طبيب البلاط الإيلخاني لفترة طويلة، ثم ارتقى ليكون الوزير الأعظم لكافة البلاد الإيلخانية في عهد السلطان محمود غازان بن أرغون (٦٩٤- ٧٠٣هـ) بمشاركة وزير آخر، وقد احتفظ بمنصبه في عهد السلطان أولجايتو محمد خدابنده (٧٠٣- ٧١٦هـ) وبقي في المنصب ذاته إلى أوائل عهد السلطان أبي سعيد بن أولجايتو (٧١٧- ٧٣٦هـ) حتى اتُّهم بدسِّ السم للسلطان أولجايتو بوشاية شريكه في الوزارة تاج الدين عليشاه، وقتل سنة ٧١٨هـ/ ١٣١٨م مع ابنه عز الدين إبراهيم، عن عمر يتجاوز السبعين من عمره. كان رشيد الدين وزيرا حاذقا وعالما موسوعيا ومؤرخا فذًّا، وإليه يرجع أكثر الفضل في معرفتنا بتاريخ المغول، وله العديد من المصنفات الطبية والفلسفية والتاريخية، أبرزها على الإطلاق كتابه "جامع التواريخ" في عدّة مجلدات باللغة الفارسية. للمزيد عن رشيد الدين راجع: فؤاد عبد المعطي الصياد: مؤرخ المغول الكبير رشيد الدين فضل الله الهمذاني، الطبعة الأولى، دار الكاتب العربي، القاهرة، ١٣٨٦هـ/ ١٩٦٧م.

(٢) "خَوَاتين" جمع مفرده "خَاتُون"، وهي لفظة فارسية أصلها تركي، ومعناها: "السيدة" وتستخدم لقب تشريف للسيدات في مقابل "خان" للرجال. إبراهيم الدسوقي شتا: المعجم الفارسي الكبير (فرهنگ بزرگ فارسى)، فارسي- عربي، مكتبة مدبولي (كتانفروشى مدبولى)، القاهرة، ١٤١٢هـ. ق/ ١٣٧٠هـ. ش/ ١٩٩٢م، م١ صـ٩٨٩.

وملوك الأطراف وحكامها، فأدَّوا جميع المراسم والآيين»[1]، وبهذا يؤرخ رشيد الدين مراسم الاحتفال بتنصيب هولاكو إيلخانا على عرش إيران في ربيع السنة المذكورة.

وقد وافق رشيدَ الدين فيما ذهب إليه بعضُ المُحْدَثين، ومنهم خليل أدهم الذي اختار سنة ٦٥٤هـ (١٢٥٦م) بداية لحكم سلسلة سلاطين إيلخانية إيران المغولية من سلالة هولاكو خان[2]، وكذلك فؤاد الصياد الذي يذكر أن هولاكو خان كوّن «في إيران مملكة خاصة به وبأبنائه من بعده، وحكمت أسرته حكما مستقلا تاما زهاء قرن من الزمان، من سنة ٦٥٤هـ/ ١٢٥٦م إلى سنة ٧٥٤هـ/ ١٣٥٣م على وجه التقريب»[3]، وإلى الرأي نفسه ذهب أيضا الباحث الإيراني رضا شعباني في كتابه الذي ترجمة عنوانه "المختار من تاريخ إيران"[4].

ثانيا: أن قيام الدولة الإيلخانية كان سنة ٦٦٣هـ/ ١٢٦٤م:

وعلى عكس الرأي السابق، يذهب بعض الباحثين المُحْدَثين إلى أن الدولة الإيلخانية قامت سنة ٦٦٣هـ/ ١٢٦٤م، وهي السنة التي مات فيها هولاكو خان، وخلفه على العرش ابنه الأكبر "آباقا خان" الذي اشتهر في المصادر العربية بـ"أبغا خان"، فآباقا خان – وفقا لهذا الرأي– هو أول سلسلة مغول إيران الإيلخانيين، وقد

---

(١) رشيد الدين: جامع التواريخ، م٢، جـ١، الترجمة العربية، ص٢٤١– ٢٤٢. و"الآيين" كلمة فارسية تستخدم لعدة معانٍ منها: "القاعدة والقانون والشعيرة والبروتوكول والتشريفات". شتا: المعجم الفارسي الكبير، م١ ، صـ٢٣٣

(٢) انظر: تاريخ الدول الإسلامية، جـ٢ ، صـ٤٨٠.

(٣) الشرق الإسلامي في عهد الإيلخانيين، صـ١٤.

(٤) گزيده تاريخ ايران، چاپ اول، مركز مطالعات فرهنگى بين المللى، تهران، ١٣٨١هـ. ش، صـ٢٢٠.

أسس أصحاب هذا الرأي ما ذهبوا إليه على اعتبار أن رأس الأسرة ومؤسسها هولاكو خان لم يكن ملكه مستقلا تماما، وإنما كان يحكم نيابة عن أخيه الأكبر "منكو قاآن" الذي كان عندئذ الخاقان الأعظم للمغول بمقرِّ دولتهم العظمى الأصلية في منغوليا، أما آباقا فالمشهور عنه أنه أسقط اسم الخاقان الأعظم من المراسيم والأحكام، وأعلن نفسه ملكا مستقلا على إيران، ولم يترك للخاقان سوى الولاء الاسمي والعلاقة الطيبة بالعشيرة، ومنذ تولي آباقا خان العرش أخذ نفوذ الخاقان وسلطته يزولان تدريجيا عن الدولة الإيلخانية القائمة في إيران والعراق وآسيا الصغرى وبقية مناطق إيلخانية إيران المغولية.

وعلى رأس القائلين بهذا الرأي الكاتب والمحقق الإيراني الأستاذ عباس إقبال الذي اختار سنة ٦٦٣هـ/ ١٢٦٤م بداية لتاريخ دولة سلاطين إيران الإيلخانيين، وفي هذا يقول: «يُعرف أباقا وغيره من خلفاء هولاكو، ممن حكموا إيران منذ ذلك الوقت حتى زوال هذه الأسرة، بسلاطين المغول الإيلخانيين، ولم تعد لهذه الأسرة صلة كبيرة بخوانين منغوليا، ولا تخضع لسلطة بلاط قراقورم؛ فهي تعدُّ أسرة مستقلة، ومنذ تتويج أباقا بدأ زوال نفوذ المغول وسلطة خوانين منغوليا عن إيران، حيث اتبع خلفاء هولاكو نهج سلاطين إيران، ويعدون في الحقيقة صِنفا مستقلا من ملوك تلك البلاد»[١].

وإلى الرأي نفسه ذهب الباحث العراقي عباس العزاوي[٢]، وكذلك الباحث الإيراني منوچهر مرتضوي[١]، وعبد السلام فهمي[٢]، وشيرين عبد النعيم[٣].

---

(١) عباس إقبال: تاريخ مفصل ايران، م١، الترجمة العربية، صـ217.

(٢) العزاوي: عباس: تاريخ العراق بين احتلالين، الجزء الأول: حكومة المغول، بغداد، سنة ١٣٥٣هـ/ ١٩٣٨م، صـ٢٥٧.

وبناء على ما سبق يتضح أن أصحاب الرأي الثاني يجعلون قيام الدولة الإيلخانية متأخرا عن سقوط بغداد في أيدي المغول بسبع سنوات كاملة، وهذا أمر لافت للنظر.

ثالثا: أن قيام الدولة الإيلخانية كان عقب سقوط بغداد سنة ٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م:

وبين الرأيين السابقين يقف أصحاب الرأي الثالث الذين يذهبون إلى أن قيام إيلخانية إيران المغولية كان في أوائل سنة ٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م، وذلك عقب قيام هولاكو خان بالقضاء على الخلافة العباسية بالعراق، والاستيلاء على بغداد حاضرة تلك الخلافة، وقتل الخليفة المستعصم بالله، آخر الخلفاء العباسيين بالعراق.

وإلى هذا الرأي ذهب شوكت حجة الذي يقول تعقيبا على سقوط بغداد في أيدي المغول سنة ٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م: «وبذلك أصبح سقوط بغداد بمثابة اللَّبنة الأولى لتأسيس دولة مغولية تتاخم حدود الشام ومصر- إيلخانية فارس- في وقت فقد فيهما هذان

---

(١) انظر: مؤلّفه بالفارسية: مسائل عصر ايلخانان، چاپ دوم، مؤسسه انتشارات آگاه، تبريز، ١٣٧٠هـ. ش، صـ١٠- ١١.

(٢) انظر: تاريخ الدولة المغولية في إيران، صـ٤.

(٣) حسنين: شيرين عبد النعيم: الثقافة العربية الإسلامية في إيران في العصرين المغولي والتيموري، مجلة ثقافتنا للدراسات والبحوث، المجلد الخامس، العدد الثامن عشر، سنة ١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨م، صـ١٣٣، وتعتبر الباحثة أباقا خان أول ملوك إيران الإيلخانيين، غير أنها تذكر أنه تولى العرش سنة ٦٠٠هـ، إلا أن المقابلة الميلادية بسنة ١٢٦٤م تؤكد أن التاريخ الهجري المذكور مجرد خطأ مطبعي صوابه ٦٦٣هـ.

الإقليمان وحدتهما الإدارية، واشتد النزاع بين الأيوبيين ودولة المماليك الناشئة في السيطرة عليهما»[١].

واختار الرأي نفسه صبحي عبد المنعم الذي يقول: « وبسقوط بغداد تأسست دولة مغول إيران ليحكمها هولاكو وأبناؤه من بعده بعد أن اختار مدينة مراغة[٢] في أذربيجان عاصمة له، وسُمِّيت بالدولة الإيلخانية، وصارت أملاكها تجاور أملاك سلاطين المماليك في مصر والشام، فكان لابد من أن يقع الاحتكاك والصدام بين الطرفين »[٣].

---

(١) مواقف أئمة المسلمين من الغزو الإيلخاني (مغول فارس) لبلاد الشام ومصر، بحث بمجلة الجامعة الإسلامية (سلسلة الدراسات الإنسانية)، المجلد الخامس عشر، العدد الثاني، يونيو، سنة 2007 م، صـ346. ويبدو أن عنوان هذا البحث ليس بالدقة الكافية؛ لأن الغزو المغولي وقف عند حدود الشام ولم يستطع المغول السيطرة على بلاد الشام أو الاستقرار بها، كما أن المغول لم يتمكنوا من مهاجمة مصر، وقد وضعت هزيمتهم على أيدي مماليك مصر في موقعة "عين جالوت" سنة ٦٥٨هـ/ ١٢٦٠م حدّا لتوسعهم نحو الشرق الإسلامي.

(٢) مراغة من أكبر مدن إقليم أذربيجان، وتقع على مسافة ٧٠ ميلاً جنوبي تبريز، وقد تعرضت لهجوم المغول سنة ٦١٨هـ. انظر: شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي البغدادي: معجم البلدان، الطبعة الأولى، دار صادر، بيروت، (د.ت)، جـ٥ ، صـ٩٣، زكريا بن محمد بن محمود القزويني: آثار البلاد وأخبار العباد، الطبعة الأولى، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، سنة ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م، صـ٥٦٢.

(٣) سياسة المغول الإيلخانيين تجاه دولة المماليك في مصر والشام زمن الإيلخان أبي سعيد (٧١٦- ٧٣٦/ ١٣١٦- ١٣٣٥م)، الطبعة الأولى، العربي للنشر والتوزيع، سنة ٢٠٠٠م، ص١٦- ١٧.

وإلى الرأي نفسه ذهب مصطفى حسين إذ يقول: « قدِم هولاكو خان بن تولوي ابن جنگيز خان على رأس جيش كبير إلى إيران، موفدا من قبل أخيه "منگو قآن" الخاقان الأعظم للمغول عندئذٍ، واستطاع إنهاء دولة الشيعة الإسماعيلية بمنطقة قُهَستان وآلموت، وبحلول سنة ٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م، قضى على الخلافة العباسية في بغداد، ثم أسس لأسرته دولة كبرى في مناطق إيران والعراق وآذربيجان وكردستان وأرمينية وشِروان وأرّان وبقايا أملاك دولة سلاجقة الروم بآسيا الصغرى وغيرها من الأقاليم الأقل شهرة، وقد عُرفت هذه الدولة في التاريخ بالدولة الإيلخانية»(١)، ويميل إلى الرأي نفسه أيضا الباحث الإيراني جعفر مهدي(٢).

الترجيح بين الآراء الثلاثة:

من خلال تحليل الآراء الثلاثة السابقة يمكن ملاحظة ما يلي:

١- **فيما يتعلق بالرأي الأول** الذي يحدد تاريخ قيام إيلخانية إيران بسنة ٦٥٤هـ، فيلاحظ أنه مبكر جدا؛ « فالتاريخ الذي يحدده يقع في نطاق الأعمال العسكرية التي سبقت تأسيس الدولة، ولم يكن قد تم القضاء بعد على إسماعيلية إيران والخلافة العباسية، كما أن الحدود السياسية للدولة كانت لا تزال في مرحلة التوسع، وهناك كثير من المناطق التي لم يعلن حكامها الخضوع لهولاكو إلا بعد الانتهاء من أمر الإسماعيلية والخلافة، ومنها بلاد الروم وحكامها السلاجقة بآسيا الصغرى»(٣)، وعلى

---

(١) مصطفى حسين: الدور السياسي والحضاري للوزراء زمن المغول الإيلخانيين في إيران، م١ ، صـ (غ).

(٢) جعفر مهدى نيا: هفت بار اشغال ايران، چاپ اول، انتشارات پانوس، تهران، ١٣٧٧هـ.ش، صـ١٥٢.

(٣) مصطفى حسين: المرجع السابق، م١ ، صـ١٤.

الرغم من قوة مصادر هذا الرأي واعتماد أصحابه على مؤرخ المغول المحقق رشيد الدين، إلا أنه رأي مرجوح للاعتبارات المذكورة.

٢- **وفيما يتعلق بالرأي الثاني** الذي يؤرخ قيام إيلخانية إيران بسنة ٦٦٣هـ/ ١٢٦٥م مجاوزا استيلاء المغول على بغداد بسبع سنوات كاملة، فعلى الرغم من تقديره لمسألة التبعية السياسية لدولة الخاقان الأعظم للمغول وزوالها بعد وفاة هولاكو، وهي مسألة لها قدرها المهم في ميزان السياسة؛ إلا أنه رأي مرجوح كسابقه؛ وذلك لأسباب منها أنه متأخر جدا بالنسبة لحدث مهم كإسقاط الخلافة العباسية « كما أنه يُسقط هولاكو رأس الأسرة ويتجاهل أمورا جوهرية، أهمها ما نصت عليه وصية الخاقان "منكو قآن" لأخيه هولاكو، من الرغبة في إقرار ملك مستقر له ولبنيه، وقدوم هولاكو بأهله وأبنائه إلى إيران، وما اعتمده من إجراءات في الدولة الناشئة من اتخاذ عاصمة واستقبال وفود وتعيين ولاة ووزير... أما تبعية هولاكو للخاقان فلا تعني أكثر من الاحترام المتبادل وقوة الارتباط بالأسرة الحاكمة»[١]، دون أن يعني ذلك إلغاء استقلالية الدولة الإيلخانية في اتخاذ قراراتها السياسية؛ فمن المعروف أن هولاكو خان يعد من القادة الأقوياء الذين عرفوا في التاريخ بقوة الشخصية وانفرادها بقرارات الحرب والإدارة، وهذا بالإضافة إلى الحروب التي خاضها هولاكو مع أبناء عمومته من مغول القبيلة الذهبية وغيرهم؛ ولهذا كله كان الرأي الثاني مرجوحا هو الآخر.

٣- **أما الرأي الثالث** الذي يعتبر سقوط بغداد في أيدي المغول بقيادة هولاكو خان البداية الفعلية لقيام الدولة الإيلخانية بإيران والعراق وغيرهما من المناطق، فيبدو أنه الرأي الأرجح والأكثر اتساقا مع الواقع التاريخي؛ ففي هذه السنة كان هولاكو قد نفّذ

---

(١) مصطفى حسين: الدور السياسي والحضاري للوزراء زمن المغول الإيلخانيين في إيران، م١ ، صـ١٤.

معظم المهام الحربية التي كُلّف بها من جانب الخاقان الأعظم للمغول « ومن المؤكد أن سنة ٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م التي استولى فيها المغول على بغداد، وقضوا على خلافة العباسيين في العراق، تمثل حدثا محوريا في التاريخ عامة والتاريخ الإسلامي خاصة، وحدًّا فاصلا بين عهدين يجعلها الأجدر لتكون بداية قيام الدولة الإيلخانية»[١].

ومع هذا فثمة رأي لا يخلو من وجاهة، يحاول فيه صاحبه اتخاذ طريق وسط بين الآراء فيقول: « وربما يمكن القول بأن قيام ايلخانية إيران قد استغرق مدى زمنيا يبدأ بسقوط الخلافة العباسية في أوائل سنة ٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م، وينتهي بهزيمة المغول أمام المماليك المسلمين في موقعة "عين جالوت" سنة ٦٥٨هـ/ ١٢٦٠م[٢]، التي أوقفت زحفهم ووضعت معالم حدود دولتهم الناشئة مع جيرانها المماليك في مصر والشام فيما بين نهري جيحون والفرات»[٣].

المبحث الثاني: الحدود الزمنية والجغرافية للدولة الإيلخانية

أ- الحدود الزمنية:

كما اختلف المؤرخون في تحديد تاريخ قيام دولة مغول إيران الإيلخانيين، فقد اختلفوا كذلك في تحديد تاريخ سقوطها، ويمكن إجمال الآراء الواردة في هذه المسألة فيما يلي:

---

(١) مصطفى حسين: المرجع السابق، م١ ، صـ١٤.

(٢) حول هذه الموقعة وأهميتها في التاريخ راجع: فؤاد الصياد: المغول في التاريخ، جـ١ ، صـ٣٠٨- ٣٢١، أكرم حسن العلبي: معارك المغول الكبرى في بلاد الشام، صـ٥٧ فما بعدها.

(٣) مصطفى حسين: المرجع السابق، م١ ، صـ١٤.

الرأي الأول: أن الدولة الإيلخانية سقطت سنة ٧٥٣هـ/١٣٥٢م:

وإلى هذا الرأي ذهب المستشرق الألمانيBertold Spular بارتولد شبولر[١]، ويبدو أن هذا الرأي مرجوح لعدم استناده إلى أيٍّ من المصادر الأوّلية لتاريخ المغول.

الرأي الثاني: أن الدولة الإيلخانية سقطت سنة ٧٥٤هـ/ ١٣٥٣م:

وإلى هذا الرأي ذهب خليل أدهم[٢]، والمستشرق زامباور[٣]؛ إذ اختار كل منهما سنة ٧٥٤هـ لتكون نهاية للدولة الإيلخانية في إيران.

الرأي الثالث: أن الدولة الإيلخانية سقطت سنة ٧٥٦هـ/ ١٣٥٥م:

وإلى هذا الرأي ذهب المؤرخ الإيراني عباس إقبال[٤]، والدكتور فؤاد الصياد[٥]، والباحث مصطفى حسين[٦]. ويميل الباحث إلى أن هذا الرأي الأخير هو الرأي الراجح؛ وذلك لاستناده إلى شاهد قوي يتمثل في وجود سكة إيلخانية تحمل اسم آخر

---

(١) راجع الترجمة الفارسية لكتابه بعنوان: تاريخ مغول در ايران: سياست، حكومت، وفرهنگ، دوره ايلخانان، ترجمه دكتر محمود مير آفتاب، بنگاه ترجمه ونشر كتاب، تهران، ١٣٥١هـ . ش، صـ١٤٢.

(٢) تاريخ الدول الإسلامية ومعجم الأسر الحاكمة، الترجمة العربية، جـ٢ صـ٤٨٢.

(٣) معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي، أخرجه الدكتور زكي حسن بك، حسن أحمد محمود، واشترك في ترجمة بعض فصوله الدكتورة سيدة إسماعيل كاشف وحافظ حمدي وأحمد ممدوح، مطبعة دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، سنة ١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨م، جـ٢ ، صـ٣٦٢- ٣٦٣.

(٤) تاريخ مفصل ايران، جـ١ ، صـ٣٦٤.

(٥) الشرق الإسلامي في عهد الإيلخانيين، صـ٥٢٤. ويلاحظ أن المؤلف حدد تاريخ الدولة الإيلخانية صـ١٤ بما بين عامي (٦٥٤- ٧٥٤هـ)، لكنه رجع في صـ٥٢٤ ورجح سقوط الدولة سنة ٧٥٦هـ.

(٦) الدور السياسي والحضاري للوزراء زمن المغول الإيلخانيين في إيران، م١ ، صـ (غ) من المقدمة.

حكام الدولة الإيلخانية "أنوشروان العادل"، ويعود تاريخ ضربها إلى سنة ٧٥٦هـ[١]،/ ١٣٥٥م ومعروف أن السكة من أقوى الشواهد والأدلة التاريخية المعتبرة.

ب- الحدود الجغرافية للدولة الإيلخانية:

انقضى معظم عهد هولاكو – مؤسس الدولة الإيلخانية – في الحروب والتوسعات شرقا على حساب مناطق إيران والعراق وبلاد الجزيرة وأطراف الشام وآسيا الصغرى، ولم يُكتب للدولة الناشئة أن تستقر حدودها بصورة نهائية إلا في أواخر عهد هولاكو وأوائل عهد الإيلخان الثاني آباقا خان بن هولاكو، الذي تسلم الدولة بعد موت أبيه سنة ٦٦٣هـ/ ١٢٦٥م؛ فقد « كانت البلاد الداخلة في قبضة المغول الإيلخانيين تكاد تمتد من نهر جيحون إلى البحر الأبيض، ومن قافقاسيا إلى المحيط الهندي»[٢].

وقد تأكد استقرار السلطة الإيلخانية في إيران بكاملها والعراق العجمي والعربي، وعلى الرغم من استيلاء جيوشهم على معظم مناطق الجزيرة الفراتية وتوغلهم في الشام، واستيلائهم على مدنه الكبرى كحلب ودمشق، إلا أن الهزيمة التي لقيها جيشهم أمام المماليك في موقعة "عين جالوت" سنة ٦٥٨هـ/ ١٢٦٠م، شجعت المماليك لطردهم من الشام؛ فقد أسهمت تلك الهزيمة « بنصيب كبير في تشكيل الحدود الغربية

---

(١) عباس اقبال: تاريخ مفصل ايران، جـ١ ، صـ٣٦٤، فؤاد الصياد: الشرق الإسلامي في عهد الإيلخانيين، صـ١٤، مصطفى حسين: الدور السياسي والحضاري للوزراء زمن المغول الإيلخانيين، م٢ ، صـ٧٩٦.

(٢) فؤاد الصياد: الشرق الإسلامي في عهد الإيلخانيين، صـ١٤.

لإيلخانية إيران، فأصبح نهر الفرات حدّا طبيعيا بينها وبين دولة المماليك التي تولت الدفاع عن مركز العالم الإسلامي بمصر والشام والحجاز آنئذٍ»[١].

وعلى هذا الأساس فقد استقرت أراضي الدولة الإيلخانية بعد توقف الموجة العسكرية التي شهدتها فترة هولاكو لتكون « محدودة من الشرق بممالك أبناء "چغتاي بن جنگيز خان" -عم هولاكو- الذين كانوا يحكمون في تركستان وبلاد ما وراء النهر، وعرفوا بالمغول الچِغِتَائِيّين أو مغول ما وراء النهر، ومن الشمال بأملاك عمٍّ آخر له هو "جوجي" أو دوشي، وكان أبناؤه يحكمون في صحراء القِپْجَاق[٢] فصاروا يُعرفون بمغول القپچاق أو مغول القبيلة الذهبية، ومن الغرب والجنوب الغربي بأملاك دولة المماليك في مصر والشام»[٣].

المبحث الثالث: النظام السياسي والإداري للدولة الإيلخانية

نشأت الدولة الإيلخانية في بادئ الأمر نشأة غير مستقلة، بل كانت دولة تابعة في سيادتها لدولة المغول المركزية في منغوليا والصين، وهذه التبعية هي المقصودة من كلمة "الإيلخانية" ولقب "إيلخان" الذي يعني – وفقا لأرجح الآراء – الحاكم التابع،

---

(١) مصطفى حسين: الدور السياسي والحضاري للوزراء زمن المغول الإيلخانيين في إيران، م١ ، صـ١٥.

(٢) أقام مغول القپچاق" أو القفجاق دولتهم في المنطقة الواقعة غربي قزوين وحوض نهر الفولجا، واشتُهر من بينهم "بركة" (بركاي)، أول من أسلم من ملوك المغول من بني جنگيز خان. سعيد عبد الفتاح عاشور: العصر المماليكي في مصر والشام، صـ٢٢٤، الصياد: المرجع السابق، صـ٤١.

(٣) الصياد: الشرق الإسلامي في عهد الإيلخانيين، ص١٤.

« وتدل على أن حاملها داخل في الطاعة التامة للقاآنات ومدين لهم بالولاء»[١]، وعلى هذا الأساس « فالراجح لدى أغلب المؤرخين القدماء والمحدثين أنّ هذا المصطلح يشير إلى التبعية السياسية التي قامت على أساسها إيلخانية إيران تجاه دولة الخاقان الأعظم للمغول في منغوليا ثم في الصين»[٢]، وكان هولاكو –مؤسس الدولة– فيما يبدو نائبا عن الخاقان الأعظم للمغول في المناطق التي تشكلت منها الدولة الإيلخانية؛ فهولاكو إذن « لم يملك ملكا مستقلا، بل كان نائبا عن أخيه منكوقان، ولم يضرب باسمه سكة درهم ولا دينار، وإنما كانت تضرب باسم أخيه منكوقان... وكان يكون لصاحب التخت أميرٌ لا يزال مقيما في مملكة إيران مع هولاكو»[٣].

ومن المجمع عليه تاريخيا أن بوادر الاستقلال السياسي وزوال التبعية السياسية لدولة الخاقان الأعظم للمغول قد بدأت في الظهور في عهد آباقا خان؛ إذ تؤكد المصادر التاريخية أنه « منذ جلوس آباقا خان بن هولاكو إلى ما بعد، صار نفوذ

(١) بول: ستانلي لين: تاريخ الدول الإسلامية ومعجم الأسر الحاكمة، ألفه بالإنجليزية ستانلي لين بول، ونقله إلى التركية خليل أدهم إلدَم، ونقله من التركية إلى العربية الدكتور أحمد السعيد سليمان، طبعة دار المعارف، مصر، سنة ١٩٧٢م، جـ١ ، صـ٤٨٠، فؤاد الصياد: الشرق الإسلامي في عهد الإيلخانيين، صـ٢٨، مصطفى حسين: الدور السياسي والحضاري للوزراء زمن المغول الإيلخانيين، م١ ، صـ١٦

(٢) دونالد ولبر: إيران ماضيها وحاضرها IRAN PAST & PRESENT، ترجمه عن الإنجليزية الدكتور عبد النعيم حسنين، الطبعة الثانية، دار الكتاب المصري بالقاهرة، ودار الكتاب اللبناني ببيروت، سنة ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م، مصطفى حسين: المرجع السابق، الصفحة نفسها.

(٣) القلقشندي: أبو العباس أحمد بن علي بن أحمد: صبح الأعشى في كتابة الإنشا، سلسلة الذخائر، الهيئة العامة لقصور الثقافة، طبعة مصورة عن طبعة دار الكتب الخديوية، القاهرة، صدرت في الفترة ٢٠٠٤– ٢٠٠٦م، جـ٤ ، صـ٤١٩، فؤاد الصياد: الشرق الإسلامي في عهد الإيلخانيين، صـ٢٨.

المغول وحكامهم في منغوليا والصين يقلّ تدريجيا في إيران، إلى أن حلّ وقت انتهى نهائيا ارتباط الإيلخانيين برباط التبعية لهؤلاء الخواقين، فعدوا لهذا طبقة مستقلة»[١].

وعلى الرغم مما أعلنه "آباقا خان" من استقلال بعد تولِّيه السلطة سنة ٦٦٣هـ/ ١٢٦٥م، «فقد ظل الإيلخانيون يحكمون باسم الخاقانات العظام على سبيل إظهار الولاء الاسمي لاستمداد الشرعية وإظهار الالتزام العرفي بعادات الأسرة الإمبراطورية، لكن ارتقاء السلطان المسلم غازان بن أرغون عرش البلاد سنة ٦٩٤هـ/ ١٢٩٥م وضع حدّا نهائيا للتبعية؛ فقد حُذف اسم الخاقان من السكة وحلَّ لقب "خان" محل لقب "إيلخان"، فأصبحت إيلخانية إيران بذلك دولة مستقلة تماما عن دولة الخاقان»[٢].

وكان نظام حكم الدولة الإيلخانية يقوم على سلطات محدَّدة تُشكّل في مجموعها وعلاقاتها ببعضها النظام السياسي الذي تدار به الدولة، وهذه السلطات تمثلت فيما يلي:



الإيلخان:

وهو الحاكم الفعلي للدولة، وقد ناب في بادئ الأمر عن الخاقان الأعظم، وإليه يرجع الأمر في تعيين أمراء الجيش وتوزيع المكاسب والأرزاق على الجند، وتعيين الوزراء وولاة الأقاليم، والشَّحَانِيّ أو رؤساء الشرطة أو الحاميات العسكرية، وكان الإيلخان رأس السلطة الإيلخانية وبيده مقاليد الأمور كلها، وكان اختيار الإيلخان يتم من خلال مجلس شورى المغول المعروف بالقوريلتاي، وهو أشبه ما يكون بمجلس

---

(١) فؤاد الصياد: المرجع السابق، صـ٢٩.

(٢) شوكت حجة: مواقف أئمة المسلمين من الغزو الإيلخاني لبلاد الشام ومصر، صـ350، مصطفى حسين: المرجع السابق، م١، صـ١٧.

احتفالي رسمي يدعى إليه كبار الشخصيات من الأمراء والخواتين والزعماء[١]، ويتباحثون حول اختيار الإيلخان الجديد ملتزمين في ذلك بقواعد الياسا الجنكيزية ووصية الإيلخان الراحل، ويلاحظ أن النظام الوراثي كان السائد في معظم عهود سلاطين إيلخانية إيران.

أمير أمراء الجيش:

كان لمنصب "أمير الأمراء" منزلة رفيعة وسلطة معتبرة في النظام السياسي الإيلخاني، وكثيرا ما كان ينوب عن الإيلخان في العديد من الصلاحيات، وكان يحمل لقب "**بكلري بك**"، ويحمل مسؤولية تنظيم شئون الأولوس[٢]، أو المعسكر الإيلخاني ويعاونه في ذلك ثلاثة من كبار الأمراء.

---

(١) راجع تفاصيل بعض تلك المجالس لدى: علاء الدين عطا ملك بن بهاء الدين محمد الجويني: تاريخ جهانكشاى، جلد اول، در تاريخ چنگيز خان واعقاب او تا كيوك خان، بسعى واهتمام وتصحيح محمد ابن عبد الوهاب قزوينى، مطبعة بريل، ليدن، هلاند، ١٣٢٩هـ/ ١٩١١م، الأصل الفارسي، م١ ، صـ٢٠٥، صـ٢١٢، و: جلد ثانى، در تاريخ خوارزمشاهيان، بسعى واهتمام وتصحيح محمد ابن عبد الوهاب قزوينى، مطبعة بريل، ليدن، هلاند، ١٣٣٤هـ/ ١٩١٦م، م٢ ، صـ٢٦١- ٢٦٢، والترجمة العربية بعنوان: تاريخ فاتح العالم (جهانگشاى)، ترجمة محمد ألتونجي، مجلدان، الطبعة الأولى، دار الملاح للطباعة والنشر، سنة ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م، م١ ، صـ٢٣٠- ٢٣١، صـ٢٣٦، م٢ ، صـ١٥٩- ١٦٠، رشيد الدين: جامع التواريخ، المجلد الأول، تاريخ خلفاء جنگيز خان من أوگتاى قاآن إلى تيمور قاآن، نقله إلى العربية الدكتور فؤاد عبد المعطي الصياد، راجعه وقدم له الدكتور يحيى الخشاب، الطبعة الأولى، دار النهضة العربية، بيروت، سنة ١٩٨٣م، الترجمة العربية، صـ١٨١، ١٨٤.

(٢) "أولولوس" كلمة مغولية وتركية تعني قبيلة أو طائفة أو جماعة أو مجموعة عشائر. (فؤاد الصياد: الشرق الإسلامي في عهد الإيلخانيين، صـ٢٧.

ويتحدث ابن فضل الله العمري عن مكانة أمير الأمراء عند المغول الإيلخانيين فيذكر أن أمراء المعسكر أو أمراء الأولوس أربعة من أكابر أمراء الجيش، يرأسهم كبير أمراء الأولوس، وهو أمير أمراء الجيش، وكان يحمل لقب "**بكلري بك**"، ويشير العمري إلى أن هؤلاء الأربعة كانت لهم المكانة السامية والنفوذ الذي جعلهم يسمَّوْن "أمراء القول"، وكان مدار الملك عليهم، ولا ينفذ أمر الفرمان أو اليرليغ السلطاني إلا بكتابة أسمائهم بعد اسم السلطان، ثم يُكتب في النهاية اسم الوزير(١).

الوزير الأعظم والديوان الأعظم:

كانت الدولة الإيلخانية تدار ماليا وإداريا من خلال مؤسسة إدارية مركزية ملحقة ببلاط الإيلخان في العاصمة الإيلخانية، ويرأسها الوزير الأعظم للبلاد، وهذه المؤسسة هي ما كان يعرف بـ"ديوان الممالك الإيلخانية" أو "الديوان الأعظم" أو "الديوان الكبير"، أو في الاصطلاح الفارسي "**ديوان بزرگ**"(٢).

ومن المعروف أن مؤسسة الديوان في عهد المغول الإيلخانيين لم تكن من اختراعهم، «وإنما هي مؤسسة قديمة عرفت لدى الفرس القدماء، ثم أخذها المسلمون الأوائل، وقد زاد الاهتمام بهذه المؤسسة بشكل خاص في العصرين الأموى والعباسي، وكذلك في تنظيمات دول السلاجقة والخوارزمشاهية، وعندما استولي المغول على أملاك الدولة الخوارزمية والخلافة العباسية، فإنهم أبقوا على الديوان وسيطروا من خلاله ماليا وإداريا على البلاد»(٣).

---

(١) انظر: العمري: شهاب الدين أحمد بن يحيي ابن فضل الله: مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، الجزء الثالث، تحقيق أحمد عبد القادر الشاذلي، المجمع الثقافي، أبو ظبي، سنة 1424هـ/ 2003م، صـ206– 207، مصطفى حسين: الدور السياسي والحضاري للوزراء زمن المغول الإيلخانيين في إيران، م٢ ، صـ٥٢٩

(٢) راجع هذه المصطلحات لدى: مصطفى حسين: المرجع السابق، م١ ، صـ١٢٣– ١٢٦

(٣) مصطفى حسين: المرجع السابق، م١ ، صـ١٢٣.

وكان يرأس هذا الديوان "الوزير الأعظم" الذي كان يحمل لقب "صاحب ديوان الممالك"، وقد شغل هذا المنصب العديد من الشخصيات التي كان لأصحابها دور كبير وتأثير سياسي وحضاري في تاريخ الدولة الإيلخانية بكاملها(١)، واشتهر من بينهم شمس الدين محمد الجويني وسعد الدولة اليهودي ورشيد الدين فضل الله الهمذاني.

ويتحدث أحد الباحثين الإيرانيين المعاصرين عن مؤسسة الديوان في العصر الإيلخاني، فيقول: «ويلاحظ أنه في عهد الإيلخانيين، وبعد مرحلة من سوء الإدارة ظهرت على أثر الهجوم المغولي المخرِّب، تم إحياء الجهاز الإدارى للبلاد، واستعاد الديوان ازدهاره السابق مرة أخرى، وأصبح – باعتباره مركزا لأرباب القلم والكتاب والمدبِّرين وأصحاب المناصب في الدولة – يشكل القاعدة الإدارية الرئيسة في البلاد، والعقل المدبِّر للحكومة، وبؤرة نفوذ وإعمال السلطة السياسية»(٢).

ويلاحظ أن ديوان الممالك الإيلخانية « قد نما بشكل ملحوظ، وتعددت هيئاته وتنظيماته ووظائفه ومراتب مناصبه، وتنوعت نظمه ومكاتباته، وأصبح هذا التعدد وذلك التنوع يشكلان نموذجا للتنمية السريعة والتطور العظيم لجهاز إداري في ظروف تاريخية واجتماعيه خاصة»(٣).

---

(١) قام الباحث مصطفى حسين بدراسة مستفيضة جاءت في مجلدين ضخمين حول هذا الديوان وجميع من تولّوا إدارته وشغلوا منصب "صاحب ديوان الممالك"، أو الوزير الأعظم للدولة، على مدى تاريخها كله، وذلك في رسالته للماجستير تحت عنوان "الدور السياسي والحضاري للوزراء زمن المغول الإيلخانيين في إيران (٦٥٦- ٧٥٦هـ/ ١٢٥٨- ١٣٥٥م)"، وقد تجاوز عدد هؤلاء الوزراء العشرين وزيرا، وتفاوتت أدوارهم وتنوعت على نحو ملحوظ، وكان منهم المغول والفرس الإيرانيين والعرب العراقيين. انظر خاتمة المرجع المذكور، م٢، صـ٨٠٥- ٨١٦.

(٢) راجع الأصل الفارسي لدى: زاده: هاشم رجب: آئين كشوردارى در عهد وزارت رشيد الدين، صـ١٨٤- ١٨٥.

(٣) المرجع السابق، صـ١٨٥، مصطفى حسين: الدور السياسي والحضاري للوزراء زمن المغول الإيلخانيين، م١ ، صـ١٢٣.

وقد اتسعت اختصاصات الوزير الأعظم وتشعبت مهامُّه، وكان نفوذه يتسع تدريجيا بمرور الزمن في تاريخ الدولة الإيلخانية، وكانت تلك المهام تشمل تدبير كافة الشئون المالية في البلاد، وتنظيم شئون الدخل والخرج والخزائن(١)، ومشاركة الإيلخان في بعض المهام الإدارية كتعيين ولاة الأقاليم وعمالها، ومراقبتهم ومحاسبتهم، والمشاركة أحيانا في حكم وإدارة بعض الولايات(٢)، وكذلك في تعيين القضاة وعزلهم(٣)، والمشاركة في بعض المهام العسكرية، كتدبير النفقات اللازمة لإعداد الجيش للحرب، وإبداء الرأي والمشورة الحربية، والمشاركة في القتال بصحبة الإيلخان والأمراء(٤).

ولاة الأقاليم:

اعتمد النظام السياسي والإداري الإيلخاني كذلك على ولاة النواحي والإقاليم؛ إذ كان هؤلاء يأتون في المرتبة الثالثة من حيث النفوذ بعد الإيلخان وأمير الأمراء والوزير الأعظم (صاحب ديوان الممالك)، وكان الإيلخان عادة ما يستهل عهده بتولية عدد من الأمراء وكبار الشخصيات شئون الولايات التي تنقسم إليها الدولة، وغالبا ما كان السلاطين الإيلخانيون يختصون أقاربهم أو من يثقون فيهم من أمراء المغول دون غيرهم بتلك المناصب الرفيعة الخطيرة(٥)، وكان لكل ولاية ديوان كما سيأتي بيانه بعد قليل.

---

(١) انظر: مصطفى حسين: المرجع السابق، م١ ، صـ١٢٣

(٢) انظر: المرجع السابق، م١ ، صـ١٢٧- ١٣٠

(٣) المرجع السابق، م١ ، صـ١٢٨

(٤) انظر: المرجع السابق، م١ ، صـ١٣١- ١٣٥

(٥) من ذلك على سبيل المثال ما اتخذه الإيلخان آباقا خان من إجراءات في مستهل عهده. راجع: فؤاد الصياد: الشرق الإسلامي في عهد الإيلخانيين، صـ٣٦

التقسيم الإداري للبلاد:

أ- العاصمة والإقليم المركزي:

استقر الإقليم المركزي للدولة الإيلخانية منذ قيامها حتى سقوطها في منطقة أذربيجان؛ فقد صار هذا الإقليم المقرَّ الرئيس للحكومة متمثلة في الأردو العسكري أو معسكر الإيلخان ومقرِّ حاشيته من كبار الأمراء والخواتين والوزراء والموظفين والعمال، وأصبح هذا الإقليم يحوي العاصمة الإيلخانية التي تنقلت بين مدنه فلم تخرج عن نطاقه في شتى عهود الدولة.

ويبدو أن أسبابا عسكرية هي التي دفعت المغول الإيلخانيين لاختيار ذلك الإقليم مقرا لبلاطهم وتفضيله على سائر أقاليم الدولة؛ فمنذ عهد بعيد « كانت أمم آسيا الوسطى والتركستان تعتدي على المناطق الشرقية لإيران، ومن هنا كان الدفاع عن الحدود الشرقية والشمالية ذا أهمية خاصة للمغول من أجل المحافظة على ممتلكاتهم، فلا غرو أن اتخذوا منطقة أذربيجان وأرّان مراكز رئيسة لتصريف شؤون الدولة، لا سيما وأن التكوين الطبيعي لهذه المنطقة كان يجذب هؤلاء البدو الرُّحّل إليها، وإنّ جهود الإيلخانيين من أجل المحافظة على هذه المنطقة تشبه تماما سعي الصفويين طوال الفترة الممتدة من القرن العاشر حتى الثاني عشر الهجري»[١].

العاصمة في عهد هولاكو "مراغة":

خلافا لما كان متوقعا لم يقع اختيار هولاكو على العاصمة العباسية العريقة بغداد لتكون عاصمة لدولته الناشئة، ويبدو أن كثرة القتلى وعفونة الهواء وشدة الخراب الذي أصاب تلك المدينة كانت أسبابا كافية لذلك، وعلى كلٍّ فقد احتار هولاكو إحدى مدن

---

(١) فؤاد الصياد: الشرق الإسلامي في عهد الإيلخانيين، صـ٢٩.

إقليم أذربيجان وهي مدينة "مراغة" لتكون العاصمة المركزية لمملكته الناشئة في إيران والعراق وما حولهما(١).

ويبدو أن أسبابا وجيهة دفعت هولاكو خان إلى اختيار مدينة مراغة عاصمة للدولة الإيلخانية، « منها أن طبيعة المغول الذين نشأوا في المناطق الباردة لم تكن لتتوافق مع الإقامة في المناطق الحارة في جنوبي إيران أو العراق، ومنها أن مراغة كانت نقطة ارتكاز مهمة تربط بين بغداد في الجنوب وبلاد الأرمن والروم في الشمال، وبين طوس في الشرق وأرض الجزيرة والشام في الغرب، كما كانت تشمل مناطق خصبة واسعة»(٢).

العاصمة في عهد آباقا خان "تبريز":

بعد موت هولاكو خان سنة ٦٦٣هـ/ ١٢٦٤م خلفه على العرش ابنه آباقا خان فرأى ضرورة نقل مقرّ العاصمة الإيلخانية من مدينة مراغة إلى مدينة أخرى من مدن إقليم أذربيجان، وقد وقع اختياره على مدينة "تبريز" فأصبحت بذلك العاصمة الجديدة

---

(١) رشيد الدين: جامع التواريخ، م٢ جـ١، الترجمة العربية، ص٣٠٠، عباس اقبال: تاريخ مفصل ايران، م١ صـ١٨٩- ١٩٠، الترجمة العربية، صـ206- 207، پَی نَن رشيد وو: سقوط بغداد وحكمروايى مغولان در عراق (ميان سالهاى ١٢٥٨و ١٣٣٥ميلادى)، ترجمه دكتر اسد الله آزاد، انتشارات دانشگاه مشهد، ١٣٦٧هـ. ش، صـ١٤٠، فؤاد الصياد: المغول في التاريخ، صـ٢٧٨، محمد صالح داوود القزاز: الحياة السياسية في العراق في عهد السيطرة المغولية، مطبعة القضاء في النجف الأشرف، سنة ١٣٩٠هـ/ ١٩٧٠م، صـ١١٨.

(٢) صبري سليم: الصراع السياسي والمذهبي بين الشيعة والسنة في عصر سيطرة إيلخانات المغول في إيران، صـ٢٥٤.

للدولة[١]، وقد بقيت تلك المدينة عاصمة للدولة طوال عهود آباقا خان وأرغون خان وگيخاتو خان وبايدو خان وغازان خان والسنوات العشر الأولى من عهد السلطان أولجايتو.

عاصمة أولجايتو "سلطانية":

رأى السلطان محمد خدابنده أولجايتو (ت٧١٦هـ/ ١٣١٦م) أن يبني عاصمة جديدة للدولة الإيلخانية، ولكنه لم يخرج عن حدود إقليم آذربيجان، فاختار منطقة خصيبة واسعة المراعي تقع شمال غرب العراق العجمي بين أبهر وزنجان، وأقام عليها مدينة كبرى سماها "سلطانية"، فحقق بذلك ما أراده أبوه الإيلخان أرغون الذي أراد بناء تلك المدينة فلم يمهله القدر[٢]، وبعد إنفاق ما يقارب العشر سنوات في بناء تلك المدينة، نُقل مقرّ العاصمة إليها سنة ٧١٣هـ/ ١٣١٣م[٣].

وكانت "السلطانية" مدينة فخمة كبيرة تمثل أوج الازدهار الذي بلغته الدولة الإيلخانية في عهد أولجايتو خان؛ فقد كانت تضم «كثيرا من العمارات والمدارس

---

(١) رشيد الدين: جامع التواريخ، المجلد الثاني، الجزء الثاني، الإيلخانيون (تاريخ أبناء هولاگو من آباقا خان إلى گيخاتو خان)، نقله إلى العربية محمد صادق نشأت، وفواد عبد المعطي الصياد، وراجعه يحيى الخشاب، دار إحياء الكتب العربية، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، الجمهورية العربية المتحدة، سنة ١٩٦٠م، صـ١٢، عباس اقبال: تاريخ مفصل ايران، م١، الترجمة العربية، صـ218، الصياد: الشرق الإسلامي في عهد الإيلخانيين، صـ٣٦، مصطفى حسين: الدور السياسي والحضاري للوزراء زمن المغول الإيلخانيين، م١ ، صـ١٥

(٢) انظر: حافظ آبرو: ذيل جامع التواريخ رشيدى (شامل وقايع ٧٨١- ٧٠٣ هجرى قمرى)، باهتمام دكتر خان بابا بيانى، سلسله انتشارات انجمن آثار ملى شماره ٨٨، چاپ دوم، تهران، ١٣٥٠هـ. ش، صـ٦٧.

(٣) فؤاد الصياد: الشرق الإسلامي في عهد الإيلخانيين، صـ٣٥١- ٣٥٢.

والحمامات والأسواق، وكان يسكنها جمع غفير من السكان من كل طبقة، فصارت بذلك من أعظم البلاد الإسلامية، لا تتفوق عليها مدينة أخرى غير تبريز، ثم ضرب أولجايتو حولها سورا مربع الشكل، وشيّد في وسطها قلعة كبيرة تتناسب مع عظمتها، وفي داخلها بنى مقبرة لتكون مقره الأبدي بعد موته، وكانت تعلوها قبة عظيمة تعدُّ من أعظم الأبنية وفنّ المعمار في عهد المغول»[١].

وقد استمرت العاصمة في سلطانية ما تبقى من عهد أولجايتو، وطوال عهد أبي سعيد (٧١٦- ٧٣٦هـ/ ١٣١٦- ١٣٣٥م)، ومعظم ما تبقى من عمر الدولة سوى بعض فترات الصراع والاضطراب التي تلت وفاة السلطان أبي سعيد سنة ٧٣٦هـ/ ١٣٣٥م؛ فقد ترددت العاصمة على مدى العشرين سنة الأخيرة من عمر الدولة حتى سنة ٧٥٦هـ/ ١٣٥٥م، بين تبريز وسلطانية، لكنها لم تخرج عن حدود الإقليم المركزي للدولة في أذربيجان.

ولعل من المفيد التأكيد على أن "الأردو" أو المعسكر الإيلخاني لم يكن ثابتا في مدينة بعينها، بل اتبع الإيلخانيون عادات آبائهم وأجدادهم الأوائل في التنقل بين المصايف والمشاتي وفقا لتقلبات الطقس والظروف، ووفقا لذلك فقد اتخذ آباقا خان - مثلا - « من مناطق "آلاتاغ" أو "ألاطاغ" و"سياه كوه" مصايف ينتقل إليها الأردو - المعسكر السلطاني- صيفا، أما في الشتاء فاتخذ لذلك "أران" و"بغداد"»[٢]، ولعل اتخاذ المغول الإيلخانيين عواصم وتعميرهم إياها كان نتيجة لتأثرهم بحضارات البلاد التي استولوا عليها وحرصهم على الاستفادة بخيراتها على نحو منظم.

---

(١) فؤاد الصياد: المرجع السابق، صـ٣٥٢، بتصرف.

(٢) محمد القزاز: الحياة السياسية في العراق في عهد السيطرة المغولية، صـ١٣٣.

ب- الولايات: حكامها ودواوينها:

كان سلاطين المغول الإيلخانيين يحكمون سيطرتهم على ولايات الدولة الشاسعة من خلال إقامة ديوان مالي وإداري في عاصمة كلّ ولاية يرأسه "صاحب الديوان"، وعلى هذا الديوان كان اعتمادهم الأكبر في قمع الثورات واستيفاء الضرائب وتنظيم الشئون الإدارية للولاية، وكان هذا الديوان يمثل « المقرَّ الإداري الذي يتم من خلاله تنظيم وتدبير كافة الشئون المالية والإدارية في أية ولاية من ولايات الدولة، وكانت إدارة هذا الديوان شركة بين ثلاثة هم: الأول: الشِّحْنَة المغولي (أو رئيس الشرطة)، والثاني: الوالي أو الحاكم الإداري المغولي، وكان يتم اختيارهما غالبا من أمراء المغول، أما الثالث فهو "صاحب الديوان"، ويكون من أرباب القلم ذوي الخبرة بالشئون المالية والإدارية، وكان صاحب هذا المنصب بمثابة وزير خاص للولاية»(١)، وسيأتي الحديث فيما يلي من البحث عن ديوان بغداد الذي كان يشكل أحد أبرز أدوات الحكومة الإيلخانية في التأثير على الحياة البغدادية بعد استقرار بغداد في حوزتهم.

وقد اعتمد المغول الإيلخانيون أسلوبا واحدا في حكم وإدارة ولايات الدولة على نحو ما كان معمولا به في جميع دول المغول الأخرى، ويتمثل هذا الأسلوب في «تعيين حاكم مغولي عسكري لكل منطقة إدارية على أن تتبعه حامية عسكرية تضمن ولاء الأهالي وخضوعهم لسلطان المغول، ثم تعيين إدارة مدنية يرأسها حاكم إداري من السكان المحليين يكون في الغالب من الذين اشتُهروا بالولاء والإخلاص للمغول»(٢)،

---

(١) مصطفى حسين: الدور السياسي والحضاري للوزراء زمن المغول الإيلخانيين، م١، صـ١٢٤، بتصرف.

(٢) صبري سليم: الصراع السياسي والمذهبي بين الشيعة والسنة، ص٣٠٧- ٣٠٨.

وقد اقتضت هذه الطريقة « إبقاء بعض المناطق التي خضعت للدولة في أيدي حكامها المحليين الذين أذعنوا للمغول، وأسرعوا منذ البداية بإعلان تبعيتهم وولائهم، ومنهم أتابكة يزد وفارس وكرمان، وآل كرت في هراة، وسلاجقة الروم بآسيا الصغرى»[١].

ولايات الدولة الإيلخانية:

وفيما يتعلق بالأقاليم التي تكونت منها إيلخانية إيران، فقد استقرت حدودها في عهد آباقا خان بن هولاكو، الذي استمر قرابة ثمانية عشر عاما كانت كفيلة بإضفاء الاستقرار على نظام حكم الدولة وتأمينها وحمايتها من الأعداء، ووضع معالمها الرئيسة من عاصمة وولايات محددة، وقد تمثلت تلك الولايات فيما يلي[٢]:

- ولاية "خراسان"، وكرسيّها (أي عاصمتها) نَيْسَابُور.
- ولاية "عراق العجم"، أو ما يُعرف ببلاد الجبل، وكرسيّها أصفهان.
- ولاية "عراق العرب" أو "العراق"، وكرسيّها بغداد.
- الإقليم المركزي للدولة: "آذربيجان"، وكرسيّه تِبْرِيز.

---

(١) مصطفى حسين: الدور السياسي والحضاري للوزراء زمن المغول الإيلخانيين، م١ ، صـ١٧. وللمزيد حول الأسر المذكورة راجع: خليل أدهم: تاريخ الدول الإسلامية، جـ١ ، صـ٣١٦- ٣١٨، ٣٢١، جـ٢ ، صـ٣٦٥- ٣٦٦، ٣٧٩، ٥٣٢- ٥٣٣

(٢) هذا التقسيم الإداري للولايات مأخوذ من المصادر والمراجع التالية: أبو الفداء: تاريخ أبي الفداء المسمَّى المختصر في أخبار البشر، جـ٢ ، صـ٣٣٢، العيني: بدر الدين محمود بن أحمد: السيف المهنّد في سيرة الملك المؤيّد شيخ المحمودي، تحقيق فهيم شلتوت، القاهرة، سنة ١٩٦٦- ١٩٦٧م، صـ١٨٢، فؤاد الصياد: الشرق الإسلامي في عهد الإيلخانيين، صـ٣٥- ٣٦، مصطفى حسين: الدور السياسي والحضاري للوزراء زمن المغول الإيلخانيين في إيران، م١، صـ١٥- ١٦

- ولاية "خوزُسْتان"، وكرسيّها تُسْتَر [١].
- ولاية "فارس" وكرسيّها شيراز.
- ولاية "ديار بكر وبلاد الجزيرة"، وكرسيّها المَوْصِل.
- ولاية "بلاد الروم"، وكرسيّها قُونِيّة.
- ولاية "كُرْجُستان"، أو بلاد الكُرْج، وكرسيّها تَفْلِيس[٢].

يضاف إلى تلك الولايات "مازِنْدِرَان" و"أرمينيّة" وغيرها من البلدان الأقل شهرة من هذه الأقاليم.

ويلاحظ أن حدود بعض الولايات وأقسامها كان يتم إجراء بعض التغييرات المحدودة عليها وفقا لإرادة بعض السلاطين الإيلخانيين، وتلبية للظروف السياسية المالية والإدارية التي كثيرا ما تقلبت في فترات تغيير السلاطين الإيلخانيين وتعاقبهم وتبديل مواقع واختصاصات بعض الوزراء والعمال الديوانيين.

(١) خُوزُسْتان والأهواز إقليم واسع بين البصرة وفارس، سمّى العرب قاعدته "تُسْتَر"، وسماها الفرس "شُوشْتَر" و"شوشتر"، وهي على مقربة من الساحل الشمالي للخليج العربي.
حمد الله بن أبى بكر بن محمد بن نصر مستوفى قزوينى: نزهة القلوب، با مقابله وحواشى وتعليقات وفهارس بكوشش محمد دبير سياقى، كتابخانه طهورى، تهران، خيابان شاه آباد، اسفند ماه، ١٣٣٦ خورشيدى، صـ١٣٠- ١٣١، القلقشندي: صبح الأعشى، جـ٤ صـ٣٣٨، لسترنج: بلدان الخلافة الشرقية، الترجمة العربية، صـ٣٦٧- ٣٦٩.

(٢) بلاد الكُرْج أو "كرجستان" تقع إلى الشمال من آذربيجان، أهلها من النصارى، وأشهر مدنها "تفليس". ياقوت الحموي: معجم البلدان، جـ٤، صـ٤٤٦- ٤٤٧، وبلاد الكرج هي جمهورية جورجيا الحالية.

المبحث الرابع: تعريف موجز بسلاطين الدولة الإيلخانية وأبرز أحداث عهودهم

أولا: العصر الوثني:

يقصد به الفترة الواقعة بين قيام الدولة الإيلخانية على يد هولاكو خان سنة ٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م، وسقوط بايدو خان واستيلاء غازان خان على العرش وتحول الدولة إلى الإسلام سنة ٦٩٤هـ/ ١٢٩٤م، وتشمل عهود هولاكو وآباقا بن هولاكو ثم تكودار بن هولاكو المسمى أحمد، ثم أرغون بن آباقا ثم گيخاتو خان ثم بايدو خان، وجميع هؤلاء كانوا بوذيين وثنيين، إلا السلطان أحمد الذي اعتنق الإسلام لكن الأمراء ثاروا عليه وأحبطوا محاولته تحويل الدولة إلى الإسلام، فأصبحت بذلك فترة عهد السلطان أحمد القصيرة فترة عابرة غير مؤثرة على السمات والخصائص السياسية العامة للعصر الوثني.



أ- هولاكو خان مؤسس الدولة:

هو هولاكو بن تولوي بن جنگيز خان، حكم في الفترة (٦٥٦- ٦٦٣هـ/ ١٢٥٨-١٢٦٤م) ويمثل عصره عصر بناء وتأسيس الدولة الإيلخانية، وقد انقضى معظمه في الحروب والتوسعات، ورسم معالم الدولة ووحداتها الأساسية وتثبيت دعائم الوجود المغولي في إيران وأذربيجان والعراق والجزيرة وأجزاء من أرمينيا وكرجستان وبقايا أملاك دولة سلاجقة الأناضول ببلاد الروم (آسيا الصغرى).

وكان هولاكو – مؤسس الدولة – فيما يبدو نائبا عن أخيه الخاقان الأعظم للمغول "منگوقاآن" في حكم وإدارة المناطق التي استولى عليها فتشكلت منها الدولة الإيلخانية؛

فهولاكو لم يملك ملكا مستقلا، ولم يضرب باسمه سكة، وإنما كانت تضرب باسم أخيه منكوقاآن[١].

ويؤكد نص وصية الخاقان "منكو قاآن" لأخيه هولاكو قبيل حملته على مناطق إيران والعراق والشام[٢]، أن المهمة الأساسية التي عهد بها الخاقان لهولاكو تمثلت «في إقامة دولة مغولية تابعة لدولة الخاقان، تكون مسئولة عن تثبيت الوجود المغولي بإيران وأقاليم آسيا الوسطى، ومواصلة الغزو المغولي غربا في اتجاه الشام ومصر، وقراءة تلك الوصية تكفي للتدليل على رغبة الخاقان في إقرار ملك مستقر لهولاكو وبنيه في إيران والعراق وما يتيسر فتحه من بلاد، فقد حدد لهولاكو ملكه بالرقعة الممتدة من نهر جيحون حتى أقاصي بلاد مصر، وأوصاه بالتخفيف على الرعية وتعمير الولايات الخربة»[٣].

وعلى الرغم مما اشتهر به هولاكو من غلظة وسفك للدماء، فقد كان « يميل إلى تشييد الأبنية وتشجيع العلماء والحكماء، وحثهم على مواصلة البحث والدرس؛ إذ كان يخصص لهم الرواتب ويغدق عليهم الهبات، ويزين مجلسه بحضورهم، كما كان شغوفا بعلوم الحكمة والنجوم والكيمياء، فلا غرو أن كان يصرف بسخاء في سبيل تقدم هذه

---

(١) القلقشندي: صبح الأعشى، جـ٤ صـ٤١٩، فؤاد الصياد: الشرق الإسلامي في عهد الإيلخانيين، صـ٢٨

(٢) راجع نص الوصية كاملا لدى: رشيد الدين: جامع التواريخ، م٢ ، جـ١، الترجمة العربية، صـ٢٣٦- ٢٣٨

(٣) مصطفى حسين: الدور السياسي والحضاري للوزراء زمن المغول الإيلخانيين، م١، صـ١١، وراجع: رشيد الدين: جامع التواريخ ، م٢ ، جـ١، صـ١٤٣- ١٤٤، الترجمة العربية، صـ٢٣٧- ٢٣٨، الصياد: المغول في التاريخ، صـ٢٣٢- ٢٣٣.

العلوم»[١]، وكان من أبرز ما أنشئ في عهد هولاكو مرصد مراغة الفلكي، وعدة معابد للبوذية في مدينة خوي بالقرب من مراغة[٢].

وقد توفي هولاكو في ربيع الآخر سنة ٦٦٣هـ/ يناير ١٢٦٥م عن عمر يناهز الثامنة والأربعين[٣]، تاركا لابنه آباقا خان الذي كان آنئذ واليا على خراسان دولة كبرى.

ب- عهد آباقا خان:

تولى آباقا خان بن هولاكو عرش البلاد الإيلخانية في الفترة (٦٦٣- ٦٨٠هـ/ ١٢٦٤- ١٢٨١م)[٤]، ويمثل عهده عهد تثبيت أركان الدولة الإيلخانية ورسم معالمها الإدارية الأساسية، وقد عمل على تحقيق الاستقرار السياسي والإداري للبلاد فأمر بأن تبقى الأحكام والقوانين التي وضعها هولاكو نافذة[٥]، وخاض حروبا عدة مع مغول القبيلة الذهبية ومغول تركستان وما وراء النهر، استطاع خلالها إلحاق الهزائم بهم، كما هاجم بلاد الشام وآسيا الصغرى، ووقعت بينه وبين المماليك ثلاث معارك كبرى في

(١) فؤاد الصياد: المغول في التاريخ، صـ٣٢٤- ٣٢٥

(٢) انظر: فؤاد الصياد: المرجع السابق، صـ٣٢٥- ٣٢٦

(٣) رشيد الدين: جامع التواريخ، م٢، جـ١، الترجمة العربية، صـ٣٤١، فؤاد الصياد: المرجع السابق، صـ٣٢٤

(٤) للمزيد حول عهد هذا الإيلخان راجع: رشيد الدين: جامع التواريخ، م٢ ، جـ٢، الترجمة العربية، صـ٣- ٨٥، فؤاد الصياد: الشرق الإسلامي في عهد الإيلخانيين، صـ٣٣- ١١٧

(٥) فؤاد الصياد: الشرق الإسلامي في عهد الإيلخانيين، صـ٣٣

"البيرة" و"أبلستين" و"حمص"[١]، وعلى الرغم من الهزائم التي تعرض لها المغول فيها كلها، فإنها أبقت أوضاع الحدود بين الدولتين على ما كانت عليه[٢].

وقد استمر حكم آباقا خان سبعة عشر عاما وأربعة أشهر، وتوفي في مدينة همذان بعد عودته من إحدى رحلاته إلى مدينة بغداد، وذلك في أواخر ذي الحجة سنة ٦٨٠هـ/ ١٢٨١م[٣]، لينتقل الحكم من بعده إلى السلطان المسلم أحمد تكودار.

جـ- أحمد تكودار ومحاولته تحويل الدولة إلى الإسلام:

كان الأمير تكودار بن هولاكو خان يدين بالمسيحية في صباه، وقد عُمّد بناء على رغبة والدته المسيحية على الرغم من أن والده كان بوذيا[٤]، وعلى الرغم مما أصاب البلاد الإسلامية من دمار على أيدي المغول، وما اعترى الرعايا المسلمين من ضعف في المناطق التي استولى عليها المغول، فإنه « لم يكن من بدٍّ أن ينهض الإسلام من تحت أنقاض عظمته الأولى وأطلال مجده التالد، كما استطاع بواسطة دعاته أن يجتذب أولئك الفاتحين المتبربرين، ويحملهم على اعتناقه، فيحرز بذلك نصرا مؤزرا على الديانتين الأخريين: البوذية والمسيحية، اللتين كانتا تنافسان الإسلام في

---

(١) حول تفاصيل تلك المعارك راجع كتاب "معارك المغول الكبرى في بلاد الشام"، لأكرم حسن العلبي.

(٢) حول المعارك التي خاضها آباقا خان مع مغول القبيلة الذهبية ومغول تركستان راجع: الصياد: الشرق الإسلامي في عهد الإيلخانيين، صـ٤١- ٥٤، والمعارك التي وقعت بينه وبين المماليك، صـ٧٢- ٨٧، صـ٩٧- ١٠٤

(٣) رشيد الدين: جامع التواريخ، م٢ ، جـ٢، الترجمة العربية، صـ٨٥، فؤاد الصياد: الشرق الإسلامي في عهد الإيلخانيين، صـ١١٤

(٤) شيرين بياني: زن در ايران عصر مغول، مؤسسهٔ انتشارات وچاپ دانشگاه تهران، ١٣٥٢هـ. ش، صـ٦٣، فؤاد الصياد: الشرق الإسلامي في عهد الإيلخانيين، صـ١٢١.

اجتذاب المغول إلى صفهما»[١]، وقد تجلى هذا الانتصار في اعتناق تكودار ابن هولاكو الدين الإسلامي طواعية واختيارا مع فرط استغنائه وخضوع المسلمين من رعايا الدولة لبطش المغول وقسوتهم، ومن المرجح أن تكودار كان مسلما في شبابه قبل بلوغه منصب الإيلخانية[٢]، ولعل بلوغه عرش البلاد يعد دليلا قويا على أن الاعتبار الأول عند المغول لم يكن للدين وإنما كان للياسا الجنكيزية التي رجحت كفة أحمد تكودار على منافسيه على العرش بعد وفاة آباقا خان[٣].

وإذن فقد اعتنق تكودار الإسلام وعندما تولى العرش « لقّب بلقب السلطان "أحمد تكودار"، فكان بذلك أول إيلخانيي المغول الذين اعتنقوا الدين الإسلامي، وقد سارع بإرسال كتاب بهذا الشأن إلى العلماء في بغداد، وأعلن نفسه حاميا لدين الإسلام وتابعا للرسول ﷺ، كما أمر ببناء المساجد وإقامة الشرع الحنيف على ما كان على زمن الخلفاء»[٤].

وقد حاول السلطان أحمد تكودار جاهدا أن يحول التتار إلى الإسلام، ولجأ إلى لطائف الحيل والمنح والعطايا ليؤلف قلوب كبار الأمراء حتى نجح في إدخال عدد كبير منهم إلى الإسلام[٥]، كما ضيق على أهل الذمة من اليهود والنصارى حتى دفع

---

(١) توماس أرنولد: الدعوة إلى الإسلام، بحث في تاريخ نشر العقيدة الإسلامية، نقله إلى العربية الدكتور حسن إبراهيم حسن والأستاذ عبد المجيد عابدين، الطبعة الثالثة، نشر مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، سنة ١٣٦٧هـ/ ١٩٤٧م، صـ٢٥٠.

(٢) رشيد الدين: جامع التواريخ، م٢، جـ٢، الترجمة العربية، صـ٩٢، صبري سليم: الصراع السياسي والمذهبي بين الشيعة والسنة في عصر سيطرة إيلخانات المغول في إيران، صـ٣٤٤

(٣) فؤاد الصياد: الشرق الإسلامي في عهد الإيلخانيين، صـ١٢١- ١٢٢

(٤) فؤاد الصياد: المرجع السابق، صـ١٢٥

(٥) تومس أرنولد: الدعوة إلى الإسلام، صـ٢٦١

بعضهم إلى اعتناق الإسلام[١]، ونتيجة لإسلام السلطان أحمد فقد حاول إنهاء حالة الحرب التي كانت قائمة آنذاك مع دولة المماليك المسلمين في بلاد الشام، فكاتب السلطان قلاوون الألفي سلطان المماليك وجرت بين الجانبين السفارات والرسائل لإقرار الصلح[٢].

والظاهر أن إسلام السلطان أحمد وسياسته السلمية مع جيرانه المسلمين المماليك لم تعجب كثيرا من أمراء المغول المتمسكين ببوذيتهم والطامعين في العرش، وخصوصا الأمير أرغون بن آباقا الذي كان واليا على خراسان في عهد أبيه ثم عمه، فتزعم ثورة ضدَّ عمه السلطان أحمد وانتهت بحرب أهليّه أُسر فيها أرغون وقتل معظم أنصاره، لكنّ خيانة بعض الأمراء كانت كفيلة بقلب نظام الحكم وقتل السلطان أحمد بعد عهد قصير لم يتجاوز السنتين في الفترة (٦٨١- ٦٨٣هـ/ ١٢٨٢- ١٢٨٤م)[٣]، ليتم بذلك إحباط محاولة السلطان أحمد تحويل الدولة إلى الإسلام، وتعود إيلخانية إيران إلى سابق عهدها وتقضي قرابة عشر سنوات أخرى في ظل حكم وثني، «وبقتل السلطان أحمد قُضي على شوكة المسلمين الإيرانيين الذين زاد نفوذهم إلى أقصى حدٍّ في الفترة القصيرة التي قضاها أحمد في الحكم»[٤].

---

(١) فؤاد الصياد: المرجع السابق، صـ١٢٩، صبري سليم: الصراع السياسي والمذهبي بين الشيعة والسنة، صـ٣٤٧

(٢) راجع التفاصيل لدى فؤاد الصياد: الشرق الإسلامي في عهد الإيلخانيين، صـ١٣١- ١٣٦

(٣) للمزيد حول عهد هذا الإيلخان راجع: رشيد الدين: جامع التواريخ، م٢، جـ٢، الترجمة العربية، صـ٨٦- ١٢١، فؤاد الصياد: الشرق الإسلامي في عهد الإيلخانيين، صـ١٢١- ١٤٨

(٤) فؤاد الصياد: الشرق الإسلامي في عهد الإيلخانيين، صـ١٤٨

د- استيلاء أرغون خان على العرش:

استولى أرغون بن آباقا على العرش وقتل عمّه السلطان أحمد ونكب أهم مؤيديه، وهم الجوينيون وعلى رأسهم الوزير شمس الدين محمد صاحب الديوان(١).

وقد لقي المسلمون من رعايا الدولة الإيلخانية في إيران والعراق وغيرهما من المناطق صنوفا من الاضطهاد والقهر والظلم في عهد أرغون، الذي كان شديد التعصب ضدّ المسلمين والتحامل عليهم، حتى بلغ الأمر به أن استورد يهودا من مدينة تفليس للإشراف على تركات المسلمين في بغداد(٢)، مع أنّ هذه وظيفة إسلامية خالصة، كما بالغ في اضطهاد المسلمين في بلاده فصرفهم عن كافة المناصب التي كانوا يشغلونها في القضاء والمالية وحرمهم من الظهور في بلاطه(٣).

وقد زاد من محنة المسلمين آنئذ أن استوزر أرغون شخصا انتهازيا شديد الوطأة في تحصيل الأموال من الرعايا بالقهر والظلم، وهو الطبيب سعد الدولة اليهودي(٤)؛ إذ

---

(١) راجع سيرة هذا الوزير لدى مصطفى حسين: الدور السياسي والحضاري للوزراء زمن المغول الإيلخانيين، م١ ، صـ ٩٢ فما بعدها.

(٢) انظر: ابن الفوطي: كمال الدين عبد الرازق بن أحمد الشيباني: الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة، مطبعة الفرات، المكتبة العربية، بغداد، سنة ١٣٥١هـ (منسوب لابن الفوطي)، صـ٤٥٥، يوسف رزق الله غنيمة: نزهة المشتاق في تأريخ يهود العراق، مع ملحق بتأريخ يهود العراق في القرن العشرين بقلم مير بصري، الطبعة الثانية، دار الوراق للنشر، لندن، سنة 1997م، صـ١٦٦، محمد القزاز: الحياة السياسية في العراق في عهد السيطرة المغولية، صـ٢٨٨.

(٣) انظر: توماس أرنولد: الدعوة إلى الإسلام، صـ٢٥٧، فؤاد الصياد: الشرق الإسلامي في عهد الإيلخانيين، صـ١٦٨.

(٤) حول سعد الدولة اليهودي وسيرته وتفاصيل وزارته راجع: مصطفى حسين: الدور السياسي والحضاري للوزراء زمن المغول الإيلخانيين في إيران، الفصل الرابع، تحت= = عنوان:

رفع أرغون منزلته إلى الغاية فجعله الوزير الأعظم للدولة و"صاحب ديوان الممالك الإيلخانية" ومنحه سلطة مطلقة، فاستعمل أقاربه وأتباعه من اليهود وأقصى من سواهم من المسلمين، فجعل هؤلاء اليهود يتنطعون ويستهزئون بالمسلمين معتمدين على نفوذ سعد الدولة ومنزلته السامية لدى الإيلخان[١].

وقد استمر حكم أرغون خان في المدة (٦٨٣- ٦٩٠هـ/ ١٢٨٤- ١٢٩١م)[٢]، وامتدت وزارة سعد الدولة اليهودي قرابة سنتين ونصف في نهاية تلك الفترة، لكن سوء سياسة هذا الوزير وأعوانه من اليهود، وبخاصة مع كبار أمراء المعسكر الإيلخاني، جرّ عليهم نكبة عارمة في معظم البلاد الإيلخانية[٣]؛ إذ لم يجد الوزير له سندا بعد مرض أرغون الشديد، فانتهز الأمراء الفرصة واعتقلوه وقتلوه وصادروا أمواله وأموال اليهود[٤]، ثم لم يلبث أرغون خان أن مات بعد مقتل وزيره بأيام، وذلك في السابع من ربيع الأول سنة ٦٩٠هـ (مارس ١٢٩١م) وفقا لأرجح الأقوال[٥]، فتخلص المسلمون

"فترة السيطرة اليهودية على الإدارة: وزارة سعد الدولة مسعود الأبهري"، م١، صـ٢٨٤- ٣٩١

(١) فؤاد الصياد: الشرق الإسلامي في عهد الإيلخانيين، صـ١٦٨- ١٦٩، صبري سليم: الصراع السياسي والمذهبي بين الشيعة والسنة، صـ٣٦٥

(٢) للمزيد حول عهد هذا الإيلخان راجع: رشيد الدين: جامع التواريخ، م٢، جـ٢، الترجمة العربية، صـ١٢٢- ١٦٧، فؤاد الصياد: الشرق الإسلامي في عهد الإيلخانيين، صـ١٥١- ٢٠٢

(٣) حول نكبة اليهود على أثر سقوط سعد الدولة راجع: فؤاد الصياد: الشرق الإسلامي في عهد الإيلخانيين، صـ١٧٥- ١٧٧، مصطفى حسين: الدور السياسي والحضاري للوزراء زمن المغول الإيلخانيين، م١، صـ٣٧٤- ٣٨٠

(٤) انظر: رشيد الدين: جامع التواريخ، م٢، جـ٢، الترجمة العربية، صـ١٦٠- ١٦١، مصطفى حسين: المرجع السابق، م١، صـ٣٧٠- ٣٧١

(٥) رشيد الدين: جامع التواريخ، م٢، جـ٢، الترجمة العربية، صـ١٦٢

من رعايا الدولة الإيلخانية – بفضل الله تعالى– من الإيلخان الغاشم ووزيره اليهودي دفعة واحدة.

گيخاتو خان وبايدو خان:

تولى گيخاتو خان بن آباقا بن هولاكو العرش خلفا لأخيه أرغون خان، فحكم في الفترة (٦٩٠– ٦٩٤هـ/ ١٢٩١– ١٢٩٤م)[1]، ولعلّ أبرز ملمح من ملامح عهد گيخاتو خان يتمثل في الأزمة المالية الحادة التي تعرضت لها البلاد نتيجة لعدة أسباب في مقدمتها إسراف الإيلخان وانصرافه إلى الخمر والملذات، وكذلك سوء تدبير وزيره صدر الدين الزنجاني الملقب بـ"صدر جهان"[2]، وعبثا حاول هذا الوزير ابتداع عملة ورقية أُطلق عليها "الچاو" عوضا عن الذهب والفضة، وحاول فرضها على الناس



---

(1) للمزيد حول عهد هذا الإيلخان راجع: رشيد الدين: جامع التواريخ، م٢، جـ٢، الترجمة العربية، صـ١٦٨– ١٨٨، فؤاد الصياد: الشرق الإسلامي في عهد الإيلخانيين، صـ٢٠٥– ٢٢٥.

(2) "صدر جهان" لقب فارسي يعني "صدر العالم". والوزير صدر الدين أحمد الخالدي الزنجاني أحد أبرز وزراء إيلخانية إيران، تولى الوزارة وعزل منها أكثر من مرة في عهود كيخاتو خان وغازان خان، واشتهر بالتآمر والوشاية بالآخرين، وكانت نهايته على يد السلطان محمود غازان في أواخر رجب سنة ٦٩٧هـ/ ١٢٩٨م نتيجة لاتهامه باختلاس أموال الدولة ومحاولته التآمر على رشيد الدين الهمذاني طبيب البلاط، والوشاية به لدى السلطان. وللمزيد حول سيرة هذا الوزير ووزارته راجع: مصطفى= == حسين: الدور السياسي والحضاري للوزراء زمن المغول الإيلخانيين، م٢، صـ٣٩٧– ٤٦٠، صـ٤٧٤– ٤٧٩، صـ٤٩٢– ٥١٢

بالقوة، لكنّهم لم يقبلوها فتفاقمت الأزمة وعزّت الأقوات وخربت الأسواق، وكاد الخراب يعم البلاد ويشعل الثورة على الدولة، فتراجع الإيلخان ووزيره عن تلك البدعة(١).

وتؤكد المصادر أن گيخاتو خان كان خليعا ماجنا منشغلا بالملذات عن تدبير شئون الملك، وأنه غالى وتجاوز كل الحدود في المجون والعربدة والفسق بأبناء المغول وبناتهم(٢)، وهذا كان كفيلا بإغضاب كبار الأمراء والقادة المحافظين على تقاليد الياسا، فقتلوه وأقاموا "بايدو خان" بن طراغاي بن هولاكو على العرش، فحكم فترة قصيرة بلغت ما يقارب الستة أشهر (جمادى الأولى- ذو القعدة ٦٩٤هـ/ أبريل- أكتوبر ١٢٩٤م) (٣)، لكن غازان خان والي خراسان، استطاع بمعاونة الوزير صدر جهان وكبار الأمراء الاستيلاء على السلطة وقتل بايدو لتدخل الدولة الإيلخانية مرحلة جديدة هي مرحلة العصر الإسلامي، فتُودّع بذلك العصر الوثني نهائيا.

ثانيا: العصر الإسلامي:

ويقصد به الفترة التي تحول فيها سلاطين الدولة الإيلخانية نهائيا إلى الإسلام واتخذوا الإسلام دينا رسميا للدولة، وذلك منذ مطلع عهد السلطان غازان بن أرغون - الذي أسلم وتسمى بمحمود سنة ٦٩٤هـ/ ١٢٩٤م- حتى نهاية الدولة سنة ٦٥٦هـ/

---

(١) للمزيد حول تلك الأزمة المالية والعملة الورقية التي أصدرها الوزير صدر جهان ونتائج ذلك راجع: مصطفى حسين: الدور السياسي والحضاري للوزراء زمن المغول الإيلخانيين، م٢ ، صـ٤١٥- ٤٥٨

(٢) انظر: أبو القاسم عبد الله بن محمد القاشاني: تاريخ اولجايتو (تاريخ پادشاه سعيد غياث الدنيا والدين اولجايتو سلطان محمد طيب الله مرقده)، به اهتمام مهين همبلى، بنگاه ترجمه ونشر كتاب، تهران، ١٣٤٨هـ. ش، صـ١٠٧، القلقشندي: صبح الأعشى، جـ٤ ، صـ٤٢٠

(٣) للمزيد حول عهد هذا الإيلخان راجع: فؤاد الصياد: الشرق الإسلامي في عهد الإيلخانيين، صـ٢٢٩- ٢٤٤

١٣٥٥م، وتشمل عهود غازان خان ومحمد خدابنده أولجايتو وأبي سعيد بهادر خان ثم الإيلخانات المتصارعين في فترة المتغلبة[١] من الأمراء وعددهم ثمانية إيلخانات: أربا خان، وموسى خان، ومحمد خان، و ساتي بيك بنت أولجايتو، وطغاي تيمور خان، وشاه جهان تيمور، وسليمان خان، وأنو شروان العادل[٢].

أ- العصر الذهبي للدولة الإيلخانية (عهد غازان وأولجايتو):

حكم السلطان محمود غازان بن أرغون بن آباقا في الفترة (٦٩٤-٧٠٣هـ/١٢٩٤- ١٣٠٣م)[٣]، وباعتلائه عرش البلاد دخلت إيلخانية إيران عصرها الذهبي بفضل إسلام حكامها بصفة نهائية واتخاذهم الإسلام دينا رسميا للدولة، وقد تيسر لغازان خان مجموعة من العوامل المشجعة على الإصلاح، كان في مقدمتها اعتناقه الإسلام ثم براعة وزيريه سعد الدين محمد السَّاوَجِي[٤]، ورشيد الدين فضل الله



(١) سيأتي حديث موجز بعد قليل عن تلك الفترة.

(٢) من أوفى المراجع التي فصلت القول في عهود أولئك الإيلخانيين كتاب "الشرق الإسلامي في عهد الإيلخانيين أسرة هولاكو خان"، للمرحوم الدكتور فؤاد عبد المعطي الصياد رحمه الله تعالى.

(٣) للمزيد حول عهد هذا الإيلخان راجع: رشيد الدين: جامع التواريخ، تاريخ غازان خان، ترجمة الدكتور فؤاد الصياد، الطبعة الأولى، الدار الثقافية للنشر، القاهرة، سنة ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م، فؤاد الصياد: السلطان محمود غازان خان المغولي واعتناقه الإسلام، الطبعة الأولى، مكتبة الأنجلو المصرية، سنة ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م، الشرق الإسلامي في عهد الإيلخانيين، صـ٢٤٧- ٣٤٢

(٤) حول الوزير سعد الدين الساوجي وسيرته راجع: مصطفى حسين: الدور السياسي والحضاري للوزراء زمن المغول الإيلخانيين في إيران، م٢، صـ٥٣٢ فما بعدها.

الهمذاني[١]، فقد قام هذان الوزيران بتنفيذ نهضة إصلاحية شاملة أرادها السلطان غازان وسخّر كلّ طاقة دولته لتنفيذها، وقد شملت الإصلاحات كافة النواحي الدينية والإدارية والاقتصادية والاجتماعية والقضائية والعمرانية[٢].

وعندما آل العرش إلى السلطان محمد خدابنده أولجايتو (٧٠٣- ٧١٦هـ/ ١٣٠٣- ١٣١٦م)[٣] أخي السلطان غازان، تواصلت جهود الإصلاح في كافة الشؤون الإدارية والاجتماعية والاقتصادية والعمرانية، وظهرت آثارها وثمارها وعم الخير البلاد، وكان من أبرز الملامح الحضارية في عهد أولجايتو بناء العاصمة الجديدة مدينة "سلطانية" وبلوغ الدولة قمة غناها وازدهارها.

ب- أبو سعيد آخر الإيلخانيين الأقوياء: هو أبو سعيد بن أولجايتو محمد خدا بنده بن أرغون بن آباقا بن هولاكو، الملقب بـ"بهادر خان"، حكم في الفترة (٧١٧- ٧٣٦هـ/ ١٣١٧- ١٣٣٥م)[٤]، وقد تولى العرش خلفا لأبيه فتمت مراسم تنصيبه في أوائل

---

(١) حول الوزير رشيد الدين وسيرته راجع: مصطفى حسين: المرجع السابق، م٢، صـ٥١٩ فما بعدها.

(٢) حول تفاصيل إصلاحات غازان خان راجع: فؤاد الصياد: الشرق الإسلامي في عهد الإيلخانيين، صـ٣١٣- ٣٤٢، وحول دور مؤسسة الوزارة في تنفيذ تلك الإصلاحات وكذلك حول نتائج تلك الإصلاحات راجع: مصطفى حسين: الدور السياسي والحضاري للوزراء زمن المغول الإيلخانيين في إيران، م٢، صـ٥١٦- ٥١٨، صـ٥٥٣- ٦٦٦.

(٣) للمزيد حول عهد هذا الإيلخان راجع: فؤاد الصياد: الشرق الإسلامي في عهد الإيلخانيين، صـ٣٤٥- ٤٠٥

(٤) للمزيد حول عهد هذا الإيلخان راجع: حافظ آبرو: ذيل جامع التواريخ رشيدى، صـ١٢- ١٩٠، فؤاد الصياد: الشرق الإسلامي في عهد الإيلخانيين، صـ٤٠٩- ٤٨٥.

صفر سنة ٧١٧هـ (أبريل ١٣١٧م) وفقا لأرجح الأقوال[١]، وكان عندئذٍ في الثانية عشرة من عمره؛ ولذا فقد بدأ عهده تحت وصاية الأمير "چوبان سلدوز" أمير أمراء الجيش في عهد أولجايتو، فاستأثر هذا الأمير بالسلطة والنفوذ[٢]، وبعد سنوات شبّ أبو سعيد عن الطوق واستطاع التخلص من نفوذ چوبان وقضى عليه وانفرد بالسلطة، وكان عهد أبي سعيد آخر عهود تماسك الدولة الإيلخانية الموحّدة.

ومن المتفق عليه بين المؤرخين القدماء والمحدثين أنّ السلطان أبا سعيد بهادر خان يعد آخر سلاطين إيران الإيلخانيين الأقوياء؛ فقد مات مسموما على يد إحدى زوجاته سنة ٧٣٦هـ/ ١٣٣٥م، ولم يعقب ذكرا « وبعده سارت الدولة بخطى سريعة نحو الضعف ثم الانهيار»[٣].

وكما يقول الحافظ ابن كثير: « ثم من بعده (يعني أبا سعيد) لم يقم للتتار قائمة، بل اختلفوا فتفرقوا شذَرَ مذَرَ إلى زماننا هذا»[٤]، « وكان آخر من اجتمع شمل التتار عليه، ثم تفرقوا من بعده»[١].

---

(١) حافظ آبرو: ذيل جامع التواريخ رشيدى، صـ١٢٢- ١٢٣، شرف خان البدليسي: شرف نامه، ألفه بالفارسية شرف خان البدليسي، ترجمه إلى العربية محمد علي عوني، راجعه وقدم له الدكتور يحيى الخشاب، دار إحياء الكتب العربية، سنة ١٩٦٢م، جـ٢ صـ٢٥، فؤاد الصياد: الشرق الإسلامي في عهد الإيلخانيين، صـ٤١١.

(٢) فؤاد الصياد: الشرق الإسلامي في عهد الإيلخانيين، صـ٤١١- ٤١٢، مصطفى حسين: الدور السياسي والحضاري للوزراء زمن المغول الإيلخانيين، م٢، صـ٧١٢.

(٣) فؤاد الصياد: الشرق الإسلامي في عهد الإيلخانيين، صـ٤٨٥، صبري سليم: الصراع السياسي والمذهبي بين الشيعة والسنة، صـ٤٨٩

(٤) الحافظ أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي: البداية والنهاية، تحقيق حسن إسماعيل مروة، مراجعة عبد القادر الأرناؤوط وبشار عواد معروف، الطبعة الثانية، دار ابن كثير، دمشق، سنة ١٤٣١هـ/ ٢٠١٠م، جـ١٦ ، صـ٢٦٩.

ويقول القلقشندي عن أبي سعيد: « وبموته تفرقت المملكة بأيدي أقوام، وصارت شبيهة بملوك الطوائف من الفرس»[٢]، ويقول – أيضا – نقلا عن العمري: « وكان العهد بهذه المملكة لرجل واحد، وسلطان فرد مطاع، وعلى هذا مضت الأيام إلى حين وفاة أبي سعيد، فصاح في جنباتها كل ناعق، وقطع رداءها كل جاذب، وتفرّد كل متغلّب منها بجانب، فهي الآن (يعني زمانه) نُهبَى بأيديهم»[٣].

جـ – فترة المتغلبة (٧٣٦– ٧٥٦هـ/١٣٣٥–١٣٥٥م): [٤]

بعد موت أبي سعيد دخلت إيلخانية إيران المغولية مرحلة من الصراع استغرقت العشرين سنة الأخيرة من عمر الدولة وهي الفترة (٧٣٦ – ٧٥٦هـ/ ١٣٣٥–١٣٥٥م)، وقد سادت الفوضى والاضطراب كافة أنحاء الدولة وانفصلت عنها بعض أجنحتها الكبرى كالعراق العربي الذي قامت فيه الدولة الجلائرية، وتمثلت أقوى الملامح السياسية لهذه الفترة في تسلط كبار الأمراء غير المنتسبين للأسرة الإيلخانية، وتغلبهم على سلطة الإيلخانات إلى حدٍّ جعل بعض الباحثين يطلقون على تلك الفترة "فترة المتغلبة من الأمراء"[٥]، وهؤلاء المتغلبة كانوا في معسكرين: أولهما معسكر الجلائريين أتباع "شيخ حسن" الإيلكاني الجلائري المعروف بحسن الكبير، وثانيهما

---

(١) البداية والنهاية، جـ١٦، ص .٢٧١.

(٢) صبح الأعشى، جـ٤ ، ص٤٢٠.

(٣) صبح الأعشى، جـ٤ ، ص٤٢١.

(٤) للمزيد حول فترة المتغلبة راجع ما كتبه الدكتور فؤاد الصياد عن خلفاء أبي سعيد بهادر خان في كتابه الشرق الإسلامي في عهد الإيلخانيين، صـ٤٨٩– ٥٢٦، وكذلك مصطفى حسين: الدور السياسي والحضاري للوزراء زمن المغول الإيلخانيين، م٢، ص .٧٦١ فما بعدها.

(٥) مصطفى حسين: المرجع السابق، م٢ ، ص .٧٦٢

معسكر الچوبانيين أتباع "شيخ حسن" الچوباني المعروف بحسن الصغير، وقد طغى نفوذ هذين الحسنين على من سواهما من الإيلخانيين الضعفاء[١]، الذين صاروا ألعوبة في أيدي المتسلطين من الأمراء.

وقد عمت الفتن وتوالت الصراعات والنزاعات على نحو متلاحق في غضون السنوات الأربع التالية لوفاة أبى سعيد، « ولم تكد سنة ٧٤٠هـ/ ١٣٣٩م تحلّ حتى أُعيد تشكيل الخريطة السياسية لأملاك إيلخانية إيران من جديد، وأصبح من الصعوبة بمكان الوقوف على الحدود الجغرافية الفاصلة بين مناطق نفوذ الأسر والكيانات السياسية العديدة التي برزت على الساحة آنئذ واقتسمت ميراث دولة أبي سعيد، وقد ظهرت بعض الدويلات المستقلة التي كان بعضها جديدا ومعظمها ناشئا عن تغلب الحكام والولاة المحليين واستقلالهم بالولايات التي كانوا يحكمونها في العهود الإيلخانية الأخيرة»[٢]، وكان من أبرز تلك الأسر: السَّرْبِدَارِيُّون[٣] الذين استقلوا عن إيخانية إيران سنة ٧٣٧هـ[٤]/ ١٣٣٦م، وأقاموا دويلة في منطقة "سبزوار" بخراسان[٥]، و"المُظفّرِيّون"

---

(١) خليل ادهم: تاريخ الدول الإسلامية ومعجم الأسر الحاكمة، الترجمة العربية، جـ٢، صـ٤٨١.

(٢) مصطفى حسين: الدور السياسي والحضاري للوزراء زمن المغول الإيلخانيين، م٢، صـ٧٦٣- ٧٦٤.

(٣) هذا المصطلح تعريب للكلمة الفارسية "سربداران"، وهي جمع مفرده "سربدار"، وهو تركيب يتكون من "سر" أي رأس، والحرف بـ : أي على، ودار: أي مشنقة، فمعناها إذن: "الرأس على المشنقة"، وقد صار مصطلح "السربداريين" علما على أسرة من الثوار الإيرانيين تزعَّمَهم عبد الرازق الباشتيني، أول حكام دولة السربداريين. محمد محمد يونس: ابن يمين الفريومدي وشعره دراسة تحليلية نقدية، دار الهاني للطباعة والنشر، سنة ١٩٩٤م، ص٢٠، وحول تاريخ ثورة السربداريين ودولتهم راجع بطروشفسكى: نهضت سربداران خراسان، ترجمهٔ كريم كشاورز، چاب سوم، انتشارت پيام، بهار ١٣٥١هـ. ش.

(٤) محمد يونس: ابن يمين الفريومدي وشعره، ص٢٤- ٢٥، مصطفى حسين: الدور السياسي والحضاري للوزراء زمن المغول الإيلخانيين في إيران، م١، صـ٧٦٤.

(٥) عباس اقبال: تاريخ مفصل ايران، م١، صـ٣٦٦، الترجمة العربية، صـ361.

و"المُظفّرِيّون" الذين استقلوا بحكومة يزد وكرمان بعد وفاة أبي سعيد(١)، و"آل إينجو" الذين كانوا يحكمون ولاية فارس وتوابعها للإيلخانيين، ثم استقلوا بهذه الولاية منذ سنة ٧٤٢هـ/ ١٣٤١م(٢)، و"الطغاتيموريون" المنتسبون إلى أحد خلفاء أبي سعيد الضعفاء، وهو "طغاتيمور خان" الذي حكم بعض مناطق خراسان وجرجان ومازندران في الفترة من (٧٣٦- ٧٥٣هـ/ ١٣٣٥- ١٣٥٢م)(٣)، و"الجلائريون أو الإيلكانيون(٤)، وهم المنتسبون إلى الأمير "شيخ حسن" بزرگ (الكبير) الذين استقلوا بحكم مناطق العراق العربي منذ سنة ٧٤٠هـ/ ١٣٣٩م، وأقاموا الدولة الجلائرية(٥).

وكان هناك أيضا "الچوبانيون"، وهم أحفاد الأمير "چوبان سلدوز" الذي كان أميرا لأمراء السلطان أبي سعيد، وقد حكم منهم اثنان هما: الأمير "شيخ حسن" كوچك

---

(١) للمزيد حول تاريخ هذه الأسرة راجع: حسينقلي ستوده: تاريخ آل مظفر، جزئين، طهران، ١٣٤٧هـ. ش، عباس اقبال: المرجع السابق، صـ٣٦٥، أماني رجب أحمد عبد الرحيم: دولة السربداريين في خراسان (٧٣١- ٧٨٢هـ/ ١٣٣٠- ١٣٨٠م) مع ترجمة كتاب "نهضت سربداران خراسان" تأليف آي. پ. پطروشفسكى، ترجمه إلى الفارسية كريم كشاورز، رسالة ماجستير، من قسم لغات الأمم الإسلامية، شعبة اللغة الفارسية وآدابها بكلية الآداب جامعة عين شمس، سنة ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م، ولم تطبع بعد، صـ١٩- ٢٠

(٢) حول تاريخ هذه الأسرة ودولتهم راجع: عباس اقبال: المرجع السابق، الترجمة العربية، ص444 فما بعدها، قاسم غني: بحث در آثار وافكار واحوال حافظ ، جـ١، تاريخ عصر حافظ يا تاريخ فارس ومضافات وايالات مجاوره در قرن هشتم هجرى، تهران، ١٣٢١هـ. ش.

(٣) فؤاد الصياد: الشرق الإسلامي في عهد الإيلخانيين، صـ٥١١- ٥١٣.

(٤) حول الدولة الجلائرية راجع: شيرين بيانى: تاريخ آل جلاير، تهران، ١٣٤٧هـ. ش، سعد موسى مناحي: العراق في العهد الجلائري (٧٣٧- ٨٣٥هـ) دراسة في تطوره السياسي، رسالة دكتوراه من قسم التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية بكلية دار العلوم جامعة القاهرة، سنة ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م، ولم تطبع بعد.

(٥) عباس اقبال: تاريخ مفصل ايران، م١، صـ٣٦٥، أماني رجب: دولة السربداريين في خراسان، صـ٢٠، مصطفى حسين: الدور السياسي والحضاري للوزراء زمن المغول الإيلخانيين في إيران، م٢ ، صـ٧٦٥

(الصغير) بن تيمورتاش بن چوبان، الذي تغلب على ملك مناطق آذربيجان وأرّان لمدة أربع سنوات ونصف بعد وفاة أبي سعيد، ثم جاء بعده أخوه "ملك أشرف" الذي حكم آذربيجان لمدة أربع عشرة سنة تقريبا، وهي المدة (٧٤٤- ٧٥٩هـ/ ١٣٤٣- ١٣٥٨م)[١]، « وقد شهدت حكومة "ملك أشرف" عهد آخر إيلخان في سلسلة سلاطين مغول إيران الإيلخانيين، وهو أنوشروان العادل الذي حكم وفقا لأرجح الأقوال في الفترة (٧٤٤- ٧٥٦هـ/ ١٣٤٣- ١٣٥٥م)»[٢].

وقد تعاقب على حكم إيلخانية إيران في فترة المتغلية ثمانية من الإيلخانات المتصارعين[٣] الذين كانوا ألعوبة في أيدي المتسلطين من الأمراء وهم: أربا خان وموسى خان، ومحمد خان، وساتي بيك بنت أولجايتو، وطغاي تيمور خان، وشاه جهان تيمور، وسليمان خان، ثم أنوشروان العادل الذي خُتم به تاريخ الدولة سنة ٧٥٦هـ/ ١٣٥٥م.

المبحث الخامس: مكانة بغداد في العهد الإيلخاني

يمكن تناول هذا المبحث من خلال عرض نقطتين رئيستين:

أ- بغداد عاصمة ولاية العراق العربي:

تراجعت مكانة مدينة بغداد - حاضرة الخلافة العباسية ودار الملك والبلاط - في العصر الإيلخاني، لتكون مدينة إقليمية تمثل عاصمة إدارية لإحدى ولايات الدولة

(١) أماني رجب: المرجع السابق، الصفحة نفسها، مصطفى حسين: المرجع السابق، الصفحة نفسها.

(٢) مصطفى حسين: المرجع السابق، م٢ ، صـ٧٩٦

(٣) حول عهود أولئك الإيلخانيين الثمانية وفترات حكم كل منهم راجع: فؤاد الصياد: الشرق الإسلامي في عهد الإيلخانيين، صـ٤٨٩- ٥٢٦

المغولية التي نشأت على أنقاض الدولة الخوارزمية ودولة الشيعة الإسماعيلية ودولة الخلافة العباسية بالعراق؛ ذلك أنه «بموجب التقسيمات الإدارية التي قام بها هولاكو في دولته، وجعل من مدينة مراغة عاصمة لها، فقد أصبحت مدينة بغداد مركزا لإحدى هذه الوحدات الإدارية التي شملت ما يسمى بالعراق العربي»[1]، وقد استقرت مكانة بغداد عند كونها عاصمة ولاية العراق العربي، ومقرّ الشحنة المغولي والحامية العسكرية، ومقام الحاكم الإداري المغولي وصاحب ديوان الولاية ومعاونيه؛ كوزير الولاية وقاضيها ومستوفيها ومحتسبيها وكتّابها، وسائر عمال ديوان الولاية.

وقد اهتم السلاطين الإيلخانيون بولاية بغداد اهتماما ملحوظا فكانوا يعهدون بإدارتها إلى من يثقون بهم من كبار القادة والأمراء ورجال الديوان، وكثيرا ما كان المعسكر الإيلخاني ينتقل إلى تلك المدينة في الشتاء جريا على عادة المغول في التنقل بين المصايف والمشاتي، وقد زار معظم أولئك السلاطين بغداد ومنهم آباقا خان والسلطان محمود غازان خان والسلطان أولجايتو خان وأبو سعيد بهادر خان.

فأباقا خان كان يتخذ من بغداد مقرا للاستراحة وهو في طريقه إلى الشام ذهابا وإيابا في فترات الصراع العسكري بين الإيلخانيين والمماليك في عهده، كما حدث في أعقاب موقعة حمص سنة ٦٨٠هـ/ ١٢٨١م حينما تراجع آباقان صوب بغداد لما بلغه نبأ هزيمة الجيش الذي قاده أخوه "منكوتيمور" أمام المماليك في تلك الموقعة[2].

وقد لقيت بغداد عناية خاصة من السلطان محمود غازان خان الذي تولى العرش سنة ٦٩٤هـ/ ١٢٩٤م، فعلاوة على اتخاذه تلك المدينة محطة رئيسة يركن إليها بصحبة جيشه غير مرة في فترات الحروب التي اندلعت بين الإيلخانيين والمماليك في

---

(1) محمد القزاز: الحياة السياسية في العراق في عهد السيطرة المغولية، صـ١١٨، بتصرف.

(2) انظر: رشيد الدين: جامع التواريخ، م٢ ، جـ٢، صـ٨٢- ٨٤، فؤاد الصياد: الشرق الإسلامي في عهد الإيلخانيين، صـ١٠٤

بلاد الشام، فقد كان غازان خان يتخذ بغداد مشتى لمعسكره، ويتردد بحاشيته على تلك المدينة ويزور مشاهدها، فمن ذلك ما كان من إقامته ببغداد ما يزيد عن شهر كامل في ذي الحجة سنة ٦٩٥هـ والمحرم من السنة التالية[١]،/ أكتوبر- نوفمبر ١٢٩٦م، وزيارته بغداد التي استغرقت أكثر من عشرة أيام في شهر جمادى الآخرة سنة ٦٩٨هـ[٢] (مارس ١٢٩٩م) وكذلك زيارته بغداد وغيرها من مدن العراق سنة ٧٠٢هـ[٣]/ ١٣٠٢م.

وتروي المصادر أن السلطان أبا سعيد بهادر خان، آخر الإيلخانيين الأقوياء، الذي خلف أباه أولجايتو على العرش عقب وفاته سنة ٧١٦هـ/ ١٣١٦م، كان شديد العناية ببغداد، وكثيرا ما كان يقضي فصل الشتاء فيها بصحبة حاشيته وأمرائه، وقد استهل عهده بقضاء شتاء سنة ٧١٧هـ (١٣١٧م) كاملا في تلك المدينة، ولم يغادرها حتى حلّ الربيع[٤]، ولو تتبعنا زيارات السلاطين الإيلخانيين لمدينة بغداد أكثر من هذا فإن المقام يطول.

ب- بغداد من الإيلخانيين إلى الجلائريين سنة ٧٤٠هـ/ ١٣٣٩م:

بعد وفاة السلطان أبي سعيد سنة ٦٣٦هـ/ ١٣٣٥م، انتهى عصر الدولة الإيلخانية الموحّدة، وأخذت ولايات الدولة في الانفصال عنها، وفي غضون أربع سنوات خرج العراق العربي وعاصمته "بغداد" من نفوذ المغول الإيلخانيين، وأصبحت

---

(١) رشيد الدين: جامع التواريخ، تاريخ غازان خان، صـ١٣٩- ١٤١

(٢) رشيد الدين: جامع التواريخ، تاريخ غازان خان، صـ١٥٥، ١٥٧

(٣) راجع التفاصيل لدى: رشيد الدين: جامع التواريخ، تاريخ غازان خان، صـ١٧٧- ١٨٣

(٤) حمد الله بن أبى بكر بن محمد بن نصر مستوفى قزوينى: تاريخ گزيده، تحقيق عبد الحسين نوائى، چاپ سوم، مؤسسه انتشارات امير كبير، تهران، ١٣٢٤هـ.ش، صـ٦١٣، فؤاد الصياد: الشرق الإسلامي في عهد الإيلخانيين، صـ٤١١.

تلك المدينة مقرًا لبلاط دولة جديدة هي الدولة الجلائرية نسبة إلى الجلائريين أو الإيلكانيين، « وهم المنتسبون إلى الأمير "شيخ حسن" بزرگ (الكبير) ابن الأمير حسين بن آقبوقا بن إيلكان نويان الجلائري المتوفى سنة ٧٥٧هـ/ ١٣٥٦م، وقد تسلّط هذا الأمير على بعض خلفاء أبي سعيد من الإيلخانيين الضعفاء، فولّى وعزل وتحكّم... ثم استقل بحكم مناطق العراق العربي منذ سنة ٧٤٠هـ/ ١٣٣٩م بعد عزل "شاه جهان تيمور" أحد خلفاء أبي سعيد، وأقام لأسرته دولة مستقلة في تلك المناطق ظلت قائمة حتى سنة ٨١٣هـ/ ١٤١٠م» (١).

وبقيام الدولة الجلائرية رجعت مدينة "بغداد" مرة أخرى إلى مصاف العواصم، بعد أن قضت ما يقارب الثمانين سنة في العهد الإيلخاني مجرد مدينة إقليمية ومركزا لإحدى ولايات الدولة، لكن بغداد عاصمة الجلائريين لا يمكن بحال من الأحوال أن تقارن مكانتها بتلك المكانة السامية والعظمة المبهرة اللتين بلغتهما في العصر العباسي قبل الغزو المغولي.

تعقيب:

هكذا كانت الأوضاع السياسية والظروف المحيطة بالعاصمة العباسية "بغداد" على أثر الغزو المغولي، التي تراجعت مكانتها في عهد المغول الإيلخانيين لتكون مجرد مركز لولاية العراق العربي، ومقرّا لديوان الولاية وحاكمها المغولي، ولا شكّ أنّ تلك الأوضاع كان لها أثرها البالغ على الجوانب الحضارية في المجتمع البغدادي من

(١) مصطفى حسين: الدور السياسي والحضاري للوزراء زمن المغول الإيلخانيين، م٢، صـ٧٦٥، وراجع: عباس اقبال: تاريخ مفصل ايران، م١، صـ٣٦٥، أماني رجب: دولة السربداريين في خراسان، صـ٢٠.

النواحي الإدارية والاقتصادية والاجتماعية والدينية والثقافية، وهو ما سيتناوله البحث فيما يلي من فصول، بداية بالحديث عن الآثار الاقتصادية للغزو المغولي لبغداد، وهو موضوع الفصل الثاني من هذا البحث.

****

***

*



الفصل الثاني

الآثار الاقتصادية للغزو المغولي لبغداد

مدخل:

من المتفق عليه أن الأطماع التوسعية التي دفعت المغول إلى المشرق الإسلامي كانت تحمل في طياتها أهدافا اقتصادية واضحة؛ فالموجات المغولية التي اندفعت تجاه الدولة الخوارزمية والخلافة العباسية كان يحدوها أمل في حياة أفضل ومنافع جديدة تعوضها عن بيئة المغول الفقيرة في سهوب آسيا الجبلية التي تغطيها الثلوج في معظم فترات العام.

وإذا كان للغزو المغولي للحاضرة العباسية "بغداد" آثار حضارية، فإنّ الآثار الاقتصادية تأتي في مقدمة تلك الآثار، ولا يخفى عن الأذهان أن الحروب تدمر –أول ما تدمر– اقتصاد البلدان التي تشتعل فيها أو تُوجّه إليها؛ فقتل البشر وتدمير منازلهم ومنشآتهم وإحراق غلالهم وحوانيتهم، والاستيلاء على أموالهم ودوابهم ومخزونهم من البضائع والمنتجات، وإشاعة الفوضى والدمار، وغير ذلك مما تحدثه الحروب، كلها أمور تعدّ في المقام الأوّل آثارا اقتصادية مباشرة، يمكن ملاحظتها وقياسها واستقراء نتائجها على النشاط الاقتصادي في فترات الحروب، وكذلك في الفترات التالية لانتهاء حالة الحرب وانتقال البلد شيئا فشيئا إلى حالة السلم الأولى قبل تعرضها للهجوم.

وأحسب أنّ المصادر التاريخية –على اختلاف لغاتها بين العربية والفارسية والإنجليزية– مليئة بالروايات المستفيضة التي أرّخت للغزو المغولي للمشرق الإسلامي وامتداداته في غرب آسيا وشرق أوربا، فوصفت مشاهد التدمير والقتل والسلب والنهب وصفا ربما يغني عن المعاينة في كثير من الأحيان، وقد حظيت الحاضرة العباسية بغداد بنصيب وافر من تلك الروايات على اعتبار أنها كانت المدينة الأبرز بين المدن التي دمرتها جيوش المغول وجحافلهم في قسوة ووحشية وهمجية منقطعة النظير.

إن البحث في هذا الفصل لا يريد أن يردد الروايات التي وردت في المصادر عن تدمير اقتصاد بغداد والعراق العربي، وإنما يريد أن يستنطق تلك الرويات ويستقرئها ويصوغها في صورة نتائج اقتصادية تحليلية.

وفور انتهاء الأعمال العسكرية حرص الغزاة على الاستفادة بخيرات البلاد التي استولوا عليها، فعملوا منذ البداية على تنظيم شؤونها الإدارية والمالية؛ لأنهم يدركون أنّهم لن يحصلوا على الأموال بغير إقرار نظام إداري قوي يدير الولايات والمناطق الشاسعة، ويتعامل مع الرعايا فيحصّل منهم الضرائب والأموال على نحو مضبوط ومنظَّم في سهولة ويسر، بدلا من أسلوب الغصب الذي أثبتت التجربة التاريخية أنه لا يمكن أن يؤمّن لأي دولة أو حكومة احتياجاتها المالية والعينية من السلع والبضائع.

وفي ضوء ما تقدَّم فإنه يمكن تقسيم الآثار الاقتصادية للغزو المغولي لبغداد إلى قسمين رئيسين: **القسم الأول:** الآثار الاقتصادية الأوّليّة المترتبة على تخريب بغداد، أو ما يمكن تسميته بالآثار التخريبية للهجوم المغولي على بغداد، **القسم الثاني:** الآثار الاقتصادية الناتجة عن الاستقرار الإداري للمغول في بغداد. وهذان القسمان هما محور اهتمام هذا الفصل من البحث، ومناط تحقيق أهدافه، وهذه الأهداف يمكن بلوغها من خلال عرض خمسة مباحث هي: **المبحث الأول:** أثر تخريب المغول بغداد على الحياة الاقتصادية فيها، **المبحث الثاني:** تأثير الغزو المغولي لبغداد على الزراعة.

المبحث الثالث: تأثير الغزو المغولي لبغداد على الصناعة والتجارة.

المبحث الرابع: السياسة المالية المغولية في بغداد والعراق.

المبحث الخامس: الضرائب والمصادرات وأثرهما على الحياة الاقتصادية في بغداد.

وفيما يلي عرض تفصيلي لتلك المباحث.

المبحث الأول: أثر تخريب المغول بغداد على الحياة الاقتصادية فيها

من المقرّر أنّ النّشاط الاقتصادي في كل زمان ومكان يعتمد على عدّة أركان، يأتي في مقدمتها العنصر البشريّ، ثم ما يقوم به هذا العنصر من أعمال في المجالات الاقتصادية الرئيسة، وهي الزراعة والصناعة والتجارة؛ فالزراعة تقوم أساسا على العنصر البشري المتمثل في الفلاح، والصناعة تعتمد على نشاط الصنّاع والحرفيين، والتجارة تعتمد على نشاط التجّار، وبين هذه المجالات الثلاثة ارتباطات وعلاقات وثيقة؛ فالصناعة تعتمد في كثير من أقسامها على المنتجات الزراعية من جانب، وعلى السلع والبضائع التي تجلبها التجارة من جانب آخر، والتجارة تقوم بدورها بتسويق المنتجات الزراعية والصناعية، وهكذا، وفي كل الأنشطة الثلاثة يمثل رأس المال حجر الأساس الذي يعتمد عليه العنصر البشري في تنفيذ كافة أعماله وأنشطته.

وعند استقراء الروايات المتعلقة بالغزو المغولي لبغداد، وما ترتّب على ذلك الغزو من أعمال تخريبية واسعة الذكر صعبة الحصر والإحصاء في المصادر التاريخيّة، وتحليل تلك الروايات تحليلا يركّز على بيان الأضرار التي تعرضت لها عناصر النشاط الاقتصاديّ الأساسيّة في مجالاته الثلاثة، عند ذلك يمكن ملاحظة الآثار الاقتصادية المترتبة على غزو بغداد، وقياس تلك الآثار والوقوف على مدى تأثيرها على بغداد وأهلها في تلك الفترة العصيبة من تاريخ المسلمين، ويمكن تركيز نتائج استقراء الروايات المشار إليها من خلال النقاط التالية:

أولا: تأثّر العنصر البشري بالغزو وأثر ذلك على الاقتصاد:

تحفل المصادر بإحصاءات محدّدة وغير محدّدة لأعداد القتلى الذين راحوا ضحية الغزو المغولي منذ انطلاق موجاته الأولى في مطالع القرن السابع الهجري في أيام جنكيز خان وخلفائه، حتى قدوم هولاكو إلى إيران والعراق وحملته على بلاد الشام، وما يعنينا من هذه الإحصاءات ما كان منها من نصيب الحاضرة العباسيّة بغداد.

عدد القتلى في بغداد وغيرها من مدن العراق:

تعددت الروايات وتفاوتت في إحصاء وتقدير أعداد القتلى الذين راحوا ضحية الغزو المغولي في بغداد وغيرها من مدن العراق والجزيرة، ومن أوثق تلك الروايات رواية المؤرخ العراقيّ كمال الدين عبد الرازق ابن الفوطي البغدادي الذي عاين الأحداث ووقع في أسر المغول.

يقول ابن الفوطي: « ووُضِع السيف في أهل بغداد يوم الإثنين خامس صفر، ومازالوا في قتل ونهب وأسر وتعذيب الناس بأنواع العذاب، واستخراج الأموال منهم بأليم العقاب مدّة أربعين يوما، فقتلوا الرجال والنساء والصبيان والأطفال، فلم يبق من أهل البلد ومن التجأ إليهم من أهل السواد إلا القليل، ما عدا النصارى فإنهم عُيّن لهم شحانٍ حرسوا بيوتهم»(١).

وباستثناء بعض المواضع القليلة – ومنها بيوت نصارى بغداد وبعض التجار المرتبطين ببعض أمراء المغول، ودار الوزير ابن العلقمي، ودار صاحب الديوان فخر الدين ابن الدامغاني وغيرهم من المتواطئين مع الغزاة- لم تسلم كافة نواحي بغداد؛ فقد «أُحرق معظم البلد، وجامع الخليفة وما يجاوره، واستولى الخراب على البلد»(٢).

ويقول ابن الفوطي أيضا: «وكانت القتلى في الدروب والأسواق كالتلول، ووقعت الأمطار عليهم ووطئتهم الخيول فاستحالت صورهم وصاروا عبرة لمن يرى، ثم نودي بالأمان، فخرج من تخلّف وقد تغيرت ألوانهم وذهلت عقولهم لما شاهدوا من الأهوال التي لا يعبَّر عنها بلسان، وهم كالموتى إذا خرجوا من القبور يوم النشور من الخوف والجوع والبرد»(٣).

---

(١) ابن الفوطي: الحوادث الجامعة، صـ٣٢٩.

(٢) الحوادث الجامعة، صـ٣٢٩- ٣٣٠.

(٣) الحوادث الجامعة، صـ٣٣٠.

وعن عدّة القتلى يقول ابن الفوطي: «قيل إنّ عدة القتلى ببغداد زادت عن ثمانمائة ألف نفس، عدا من أُلقي من الأطفال في الوحول، ومن هلك في القنى والآبار وسراديب الموتى جوعا وخوفا»(١).

أما من سلم من سيف المغول فإنّه لم يسلم من عفونة الجوّ لكثرة الجيف وتغيرها؛ إذ «وقع الوباء فيمن تخلف بعد القتل من شمّ روائح القتلى، وشرب الماء الممتزج في الجيف، وكان الناس يُكثرون من شمّ البصل لقوة الجيفة وكثرة الذباب، فإنه ملأ الفضاء، وكان يسقط على المطعومات فيفسدها»(٢).

ووفقا لرواية مؤرخ البلاط الإيلخاني رشيد الدين فضل الله الهمذاني، ففي المحرم سنة ٦٥٦هـ قتل اثنا عشر ألفا من جند الخليفة، فضلا عمن غرق أو مات في الوحل(٣)، كما قُتل سليمان شاه مع كافة أتباعه وأشياعه الذين بلغوا سبعمائة نفر(٤)، ويقول رشيد الدين أيضا: «وعزم جند بغداد على الخروج ... وكانوا خلقا لا يُحصى مؤمّلين أن يجدوا الخلاص، فقسّموهم ألوفا ومئات وعشرات وقتلوهم جميعا»(٥). ويقول: «أما من بقي في بغداد فقد هربوا إلى الأنفاق ومواقد الحمامات، ثم خرج جماعة من أعيان المدينة وطلبوا الأمان»(٦).

وفي الرابع من صفر سنة ٦٥٦هـ (فبراير ١٢٥٨م) خرج الخليفة المستعصم وأبناؤه الثلاثة: أبو الفضل عبد الرحمن وأبو العباس أحمد وأبو المناقب مباركشاه، وبصحبتهم ثلاثة آلاف من السادات والأئمة والقضاة والأكابر وأعيان المدينة(٧)، وفي الرابع عشر من صفر قتلوا الخليفة وابنه الأكبر وخمسة من الخدم، وفي اليوم التالي قتلوا كلّ من كان

---

(١) الحوادث الجامعة، صـ٣٣١.

(٢) الحوادث الجامعة، صـ٣٣١.

(٣) رشيد الدين: جامع التواريخ، م٢ جـ١، صـ٢٨٥.

(٤) رشيد الدين: المصدر السابق، صـ٢٩٠.

(٥) رشيد الدين: المصدر السابق، صـ٢٨٩.

(٦) رشيد الدين: المصدر نفسه، صـ٢٨٩.

(٧) رشيد الدين: المصدر نفسه، صـ٢٩٠- ٢٩١.

بصحبته من السادات والأئمة والقضاة، ثم قتلوا ابن الخليفة الثاني في السادس عشر من الشهر نفسه[١].

ومن عجبٍ أنّ هولاكو قال للخليفة: «"مُرْ حتى يضع سكان المدينة أسلحتهم ويخرجوا لكي نحصيهم"، فأرسل الخليفة من ينادي في المدينة ليضع الناس أسلحتهم ويخرجوا، فألقى الناس أسلحتهم زُمَرا زُمَرا، وصاروا يخرجون، فكان المغول يقتلونهم»[٢].

ولم يكتف المغول بقتل المحاربين المقاومين لهم، بل استباحوا إبادة أهل بغداد، «وكان بدء القتل العام والنهب في يوم الأربعاء السابع من صفر، فاندفع الجند مرة واحدة إلى بغداد، وأخذوا يحرقون الأخضر واليابس، ما عدا قليلا من منازل الرعاة وبعض الغرباء»[٣].

وقد أوقع المغول مذابح أخرى في مدن أخرى غير بغداد؛ فمن ذلك أنّ الأمير بوقا تيمور «توجّه إلى واسط فبلغها في السابع عشر (من صفر ٦٥٦هـ/ فبراير ١٢٥٨م) ولكنّ أهلها لم يدخُلوا في الطاعة، فأقام هناك واستولى على المدينة وشرع في القتل والنهب، فقُتل ما يقرب من أربعين ألف شخص»[٤].

ثم كان رحيلُ هولاكو خان عن بغداد في الرابع عشر من صفر سنة ٦٥٦هـ بسبب عفونة الهواء[٥]، وإذا تتبعنا المزيد من روايات رشيد الدين التي تعدد القتلى فإنّ المقام يطول.

---

(١) رشيد الدين: جامع التواريخ، م٢ جـ١، صـ٢٩٤.
(٢) رشيد الدين: المصدر السابق، صـ٢٩١.
(٣) رشيد الدين: المصدر السابق، الصفحة نفسها.
(٤) رشيد الدين: المصدر نفسه، صـ٢٨٩.
(٥) المصدر نفسه، والصفحة.

ويبدو أن كون رشيد الدين مؤرخ البلاط الإيلخاني قد دفعه إلى التخفف من ذكر تفاصيل الخراب والقتل والدمار الذي أحدثه المغول ببغداد، وكذلك جعله يغض الطرف عن ذكر موقف المتواطئين مع المغول كابن العلقمي ونصارى بغداد وغيرهم.

ونستخلص من كل هذه الروايات وما شابهها في المصادر من روايات القتل وسفك الدماء والتدمير، أنّ العنصر البشري في مناطق العراق التي اجتاحتها جحافل المغول، وبخاصة بغداد والموصل، قد أصابته أضرار سلبية كان لها بالغ الأثر على النواحي الاقتصادية؛ فقد مات كثير من الفلاحين وخربت أراضيهم ومحاصيلهم، كما قُتل كثير من الصناع والحرفيين والتجار، وكان من الطبيعيّ أن يحدث اضطراب شديد في الناحية الاقتصادية نتيجة لذلك.

ثانيا: تراجع النّمُوّ السكّاني للعراق في العهد الإيلخاني وأثره على الحياة الاقتصاديّة

كان من الطبيعي المتوقع أن يكون للضربة القاسية التي تلقاها العنصر البشري في العراق على أيدي المغول أثرها البالغ على النشاط الاقتصادي؛ فالأيدي العاملة تعدّ ركيزة أساسية من ركائز العمل والإنتاج، ولا سيما في تلك الفترات المبكرة التي كان الاعتماد كبيرا فيها على العمل اليدويّ، وقد عنيت بعض الدراسات الإحصائية بتحليل الآثار التي طرأت على العنصر البشري في العراق في أعقاب الغزو المغولي، وانتهت إلى نتائج يمكن الاطمئنان إليها إلى حدٍّ كبير في إصدار الأحكام العلمية الدقيقة.

ولعلّ دراسة "آشتور" تعدّ من أبرز الدراسات التي تناولت الأوضاع الاقتصادية في العصور الوسطى، وقد انتهت إلى أوصاف اقتصادية دقيقة حول تأثيرات الغزو المغولي على اقتصاد بعض البلاد كالعراق؛ إذ تؤكد هذه الدراسة أنّ «الصورة العامة التي تظهر من هذه الأوصاف، هي تدهور سكان العراق العام والمستمر في ظلّ الإيلخانات، فتناقص السكّان الذي بدأ بعد تفكك الخلافة بوقت قصير تسارع بعد الغزو المغولي، وهذا الاستنتاج القائم على الشهادات الأدبية تسانده بشكل مقنع التحريات الأثرية القائمة على الاكتشافات السطحية، التي قام بها "ماك آداميز"، وجد أنّ المنطقة المعمورة في منطقة "ديالي" شرق

العراق تقلّصت من ٤١٤ هكتارا قبل الغزو المغولي للعراق إلى ١٩٠ هكتارا بعده، بسبب التناقص في السكان في العراق»[١].

ويعتمد آشتور على مصدر لا يستهان به فيما انتهى إليه من نتائج، وهو المؤرّخ الجغرافي المعروف حمد الله المستوفي القزويني أحد موظفي الديوان المغولي آنئذ. يقول آشتور: «وكانت نتائج الغزو المغولي مدمّرة لدرجة أنّ مراقبا جيّدا مثل حمد الله القزويني الذي قام بمشاهدتها وتسجيلها، يقول حرفيًّا: "ليس هناك أيّ شكٍّ في أنه إذا لم يحلَّ في ذلك البلد أيّ شرٍّ لمدة ١٠٠٠ عام، فلن يكون بالإمكان إصلاح الضرر كاملا، وإعادة الأراضي إلى تلك الحالة التي كانت عليها سابقا»[٢].

ويعلّق آشتور على تدهور النّموّ السكانيّ في العراق بعد الغزو المغولي، والخراب الذي أحدثه ذلك الغزو بقوله: «إنّ الخراب الذي جلبته قسوة الفاتحين المغول، لا يقارَن بالتأكيد بنتائج أيّ غزو سابق، فالاستيلاء على عدّة مدن في العراق، وأعالي ما بين النهرين، تبعته مجازر رهيبة، فعدد الأشخاص الذين قُتلوا في بغداد بعد الاستيلاء عليها في عام ١٢٥٨م، يبلغ حوالَ ١٠٠٠٠٠ (مائة ألف) شخص، كما ارتُكبت عدّة مجازر أيضا في واسط وإربيل ونصيبين ودُنَيْسِر وحرّان وأورفا والرّقة وسروج ومنبج وبيرة وبالس وقلعة جعبر، فالموصل التي نجت من مذابح عام ١٢٥٨م (٦٥٦هـ) تعرّضت لمجزرة مماثلة في عام ١٢٦٢م (٦٦٠هـ)»[٣].

ويعلّق آشتور على الروايات المتعلقة بعدّة القتلى والمجازر التي ارتكبها المغول في بغداد وغيرها فيقول: « وربما بالغ الكتّاب الشرقيون المعاصرون في أوصافهم للغزو

---

(١) آ. آشتور: التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للشرق الأوسط في العصور الوسطى، ترجمة عبد الهادي عبلة، مراجعة أحمد غسان سبانو، دار قتيبة للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، سنة ١٩٨٥م صـ٣١٩.

(٢) آ. آشتور: المرجع السابق، الصفحة نفسها.

(٣) آ. آشتور: المرجع نفسه، صـ٣١٧، بتصرف.

المغولي»[١]، لكنّه يرجع فيقرر أنّ «استيلاء المغول على العراق كان كارثة ديموغرافية»[٢].

وأيّا ما كان الأمر، فالمؤكد أنّ القتل والتخريب اللذين أصابا بغداد وغيرها من مدن العراق كان لهما أثرهما السيء على النشاط الاقتصادي بكافة أنشطته في العراق.

المبحث الثاني: تأثير الغزو المغولي لبغداد على الزراعة

لم يكن المغول في بلادهم الأصلية يعرفون الزراعة، بل كان قصاراهم أن يعرفوا الرعي والترحال في طلب العشب والكلأ لدوابهم، ولما خرجوا من بيئتهم الفقيرة إلى رحابة المناطق الأخرى وجدوا غيرهم من الأمم يزرعون الأرض ويحصدون الغلال كالصينيين والإِوِيغُوريِّين والإيرانيين، ومن المعروف أنّ بلاد العراق والجزيرة كانت منذ القدم من أوسع المناطق اعتمادا على الزراعة، وقد اشتُهرت بالأنهار والأودية الخصبة واعتماد معظم أهلها على حرفة الزراعة، وهذا ما كان سائدا في عهد الخلفاء العباسيين؛ إذ كانت معظم الضرائب المقررة في زمن الخلفاء معتمدة على ما يحصلونه من الخراج المرتبط بنتاج الأرض من المحاصيل الزراعية، وكان على المغول بعد أن استولوا على ميراث الخلافة العباسية في العراق أن يتعاملوا مع الوضع الجديد بما يحقق لهم أهدافهم ويمكنهم من خيرات البلاد التي استولوا عليها، ومن هذا المنطلق فقد أبقوا على معظم النظم التي كانت سائدة في أيام الخلافة العباسية، ولا سيما النظام المالي وما يتعلق به من دخل وخرج وضرائب وغير ذلك.

ولقد عُرف عن المغول في زحفهم أنّهم كانوا يستبيحون الأخضر واليابس ويُعملون السلب والنهب في طريقهم فيستولون على المحاصيل والغلال ويرعون دوابهم في المزارع

---

(١) آ. آشتور: المرجع السابق، صـ٣١٧.

(٢) آ. آشتور: المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

الواقعة في طريق زحفهم، ومن المؤكّد أنّ الأراضي الزراعية التي مرّوا من خلالها قد تضررت كثيرا، وأنّ كثيرا من الفلاحين لقوا حتفهم على أيدي الغزاة المغول، في حين فرّ آخرون بأرواحهم هربا من البطش والقتل والتنكيل.

ومن المعروف أنّ الاقتصاد العباسيّ في العراق كان يعتمد في المقام الأول على الخراج المتحصّل من الأراضي الزراعية؛ سواء أكان نظام المقاسمة هو النظام المعتمد في تحصيل الضرائب أو غيره من الأنظمة، فالعراق بلد زراعي في المقام الأول، والزراعة كانت تمثل الحرفة الغالبة على سكانه، والظاهر أن الخلفاء العباسيين المتأخرين وعمالهم قصروا تقصيرا بيّنا في الاهتمام بالنشاط الزراعي، فلم يهتموا بتشجيع الرعية على الزراعة والإنتاج، كما أنهم لم يبذلوا جهدا يذكر في استزراع الأراضي وشقّ الترع ونحو ذلك مما تحتاجه الزراعة.

«وكثيرا ما تشير المصادر العربية إلى جانب تناقص السكان الكبير إلى تناقص المساحة المزروعة»[1]، كما تشير المصادر إلى كثير من مظاهر التدهور الاقتصادي الناتجة عن تناقص الإنتاج الزراعي، ولم يبق هناك ضغط على السلطات للمحافظة على شبكات الري؛ ونتيجة لعدم العناية بالسدود على نهري دجلة والفرات في معظم فترات الخلافة، وبخاصة في الحقبة الأخيرة قبيل الغزو المغولي، فقد هدمت الفيضانات معظم تلك السدود، ويبدو أن الطرق التي كانت متبعة آنئذ في إقامة السدود وصيانتها كانت بدائية جدًّا، حتى بلغ ببعضها أنها كانت تعتمد على القشّ والتّراب[2].

---

(١) آ. آشتور: التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للشرق الأوسط في العصور الوسطى، صـ٢٢٠.

(٢) انظر: آ. آشتور: التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للشرق الأوسط في العصور الوسطى، صـ٢٢٠- ٢٢١.

وما من شكٍّ في أنّ المتتبع للمساحة المزروعة على مرّ العقود الأخيرة من العصر العباسي سيلاحظ أنّ تلك المساحة كانت في تناقص مستمر[١]، وهذا التناقص كان لابدّ أن يُفضي إلى تدهور أوضاع الإنتاج الزراعي، وعندما جاء المغول لم يكن من المتوقع استدراك هذا الوضع في زمن قصير؛ فالغزاة مهتمون كالعادة بتحصيل الأموال فقط.

ولا يخفى علينا أن قتل آلاف الفلاحين في العراق على أيدي المغول كان له بالغ الأثر في تراجع النشاط الزراعي وقلة الإنتاج الزراعي في أعقاب سقوط بغداد، ويؤكد ذلك حوار دار بين ابن فضل الله العمري وأحد العلماء المعاصرين لتلك الحقبة، ألا وهو مجد الدين بن الدوري. يقول العمري: «ولقد سألته (يعني مجد الدين) عن السبب في قلة الغلال لبلاد العراق مع امتداد سوادها وقبول أرضها للنبات، فقال: لهذا سببان: قلّة الزرع لما استهلكه القتل زمان هولاكو، وميرة العراق لما جاوره من البلاد»[٢].

سوء أوضاع الفلاحين في العهد الإيلخاني:

يتصل بتدهور أحوال النشاط الزراعي في العراق عقب الغزو المغولي سنة ٦٥٦هـ وعلى مدى العقود الأولى من قيام دولة المغول الإيلخانيين سوء الأوضاع المعيشية لطبقة الفلاحين التي عانت صنوفا من القهر والاستبداد على أيدي أمراء المغول وصنائعهم من العمال والولاة؛ وثمة كثير من الروايات التي أوردتها المصادر التاريخية، والتي تذكر تفاصيل معاناة الفلاحين تحت وطأة المغول وعمالهم، ويكفي للتدليل على شدة معاناة الفلاحين من سكان القرى في العراق وغيرها من ولايات الدولة الإيلخانية أن نتناول عرضا موجزا لما كان يفعله رسل المغول وجندهم بالرعايا، ذلك بشرح النقطة التالية.

---

(١) آ. آشتور: التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للشرق الاوسط في العصور الوسطى، صـ٢٢١.

(٢) مسالك الأبصار، جـ٢ ، ق٢، صـ٢٧٨؛ محمد القزاز: الحياة السياسية في العراق في عهد السيطرة المغولية، صـ١١٦.

فساد نظام رسل المغول وأثره على الحياة الزراعيّة

نظام الرسل نظام إداري اعتمد عليه المغول في تدبير الشئون الإدارية والماليّة في البلاد التي استولوا عليها، «وكلمة "الرسل" في هذا السياق هي الترجمة العربية لكلمة "ايلچيان" المستخدمة في المغولية والفارسية، ومفردها "ايلجى"، وتعني "المبعوث" أو "الرسول"، وقد ترد مجموعة في بعض المصادر العربية بصيغة "إيلجية"، كما لدى ابن الفوطي في الحوادث الجامعة»[١].

وقد أفاض مؤرخ المغول رشيد الدين فضل الله الهمذاني في الحديث عن ذلك النظام الذي عمّت مفاسده، وسيطر على أجواء الحياة في مدن وقرى العراق وغيرها من الولايات الإيلخانية في إيران وأذربيجان وفارس وكرجستان وبلاد الروم وغيرها، فمن ذلك قوله: «وعندما يجيء رسول إلى الولاية من أجل إنجاز مهمة كُلّف بها، أو للمطالبة بمال أو الحصول على ما يلزم، كان الحاكم يتخذ ذلك ذريعة وينتهزها فرصة، وكلما كان الرسل يصلون بكثرة، وكانت نفقاتهم وطلباتهم لا حدّ لها، كان الحاكم يفرح بوصولهم، ويأخذ في تقسيم الضرائب وتحصيلها وفق هواه؛ فمرة باسم إنجاز المهمات، ومرة باسم العلف والمؤن وسداد النفقات، ومرة باسم التعهدات وإجابة الملتمسات، وكان ينفق بعضا منها في إنجاز المصالح، ويعطي الشِّحن والكتاب بعضا آخر ليصيروا أعوانا وشهود زور له، وعلى الرغم من كثرة المبالغ التي كانوا يأخذونها من الرعية، فإنهم كانوا لا يرسلون قسطا منها مطلقا إلى الخزانة»[٢].

ويقرّر رشيد الدين أيضا أنّ رعايا الدولة الإيلخانية في العراق وغيرها من الولايات، كانوا إذا نزل عليهم رسل المغول ضيوفا «يعتبرون ذلك النزول مصيبة كبرى؛ إذ كان كل أمير معروف أو رجل دولة ذي مقام عالٍ، عندما ينزل بمدينة أو قرية يحتل لنفسه هو ومرافقوه وخدمه مئات المنازل، وكان هؤلاء يستولون على كل ما تناله أيديهم من أموال،

---

(١) مصطفى حسين: الدور السياسي والحضاري للوزراء زمن المغول الإيلخانيين، م١ ، صـ٣١٧، حاشية رقم١٦٨؛ وراجع: الحوادث الجامعة، صـ٤١٧، ٤٦٢، ٤٦٤.

(٢) جامع التواريخ (تاريخ غازان خان)، الترجمة العربية، صـ٢٨٠- ٢٨١.

وفوق هذا فإنهم كانوا يعتدون على أعراض النساء، ويجعلون أصحاب تلك المنازل موطئا لاستهزائهم وسخريتهم»[١].

وقد زاد من مساوئ نظام الرسل أن « كان حكام الولايات من جانبهم ينتهزون فرصة مجيء الرسل، ويفرضون مزيدا من الضرائب على الرعايا بحجة سداد نفقات الرسل، كما كان هؤلاء الحكام يسلبون الآلاف من البُسُط والثياب وقدور طهي الطعام والأواني وأدوات الناس ودوابهم للحجة نفسها، وكان الرسل إذا نزلوا دارا مزّقوا الفُرُش والثياب، وأساءوا استعمال الأدوات وحطّموها، ونهبوا كل ما تناله أيديهم من أموال وأطعمة، وربما استعملوا الأبواب للوقود والاستدفاء بدلا من الأحطاب، بل إنهم كانوا يتذرعون بأنواع الحيل لابتزاز ما بيد كل شخص مهما كان تافها» [٢].

ويتعجب رشيد الدين متسائلا: «كم ألفا من الرسل كانوا يروحون ويجيئون كل سنة؟ وكم من الخيول وأطنان المؤن قد استولوا عليها بغير حق؟ وكم من الخلق ضربوهم وعلّقوهم وأنزلوا بهم التعب والألم؟»[٣].

ولم يجد الرعايا المغلوبون على أمرهم من حيلة في القرى والمدن، سوى أن يتعمدوا ترك بيوتهم نصف خربة لئلا ينزل عليهم الرسل وأتباعهم، ومع ذلك فإن سلوكهم هذا لم يُجد نفعا، ولم يكفهم شرّ نزول الرسل عليهم، وقد بلغ من شدة خوف الناس أنهم كانوا

---

(١) تاريخ ايران از دوران باستان تا پايان سده هجدهم ميلادى (تاريخ إيران منذ العهد القديم حتى نهاية القرن الثامن عشر الميلادي)، تأليف مجموعة من المستشرقين هم: ن. و. پيگولوسكايا، آ. يو. ياكوبوسكى، اى. پ. پطروشفسكى، آ. م. بلنيتسكى، ل. و. استرويوا، ترجمه إلى الفارسية كريم كشاوز، پيام، تهران، ١٣٥٤، ص٣٦١؛ وراجع: مصطفى حسين: الدور السياسي والحضاري للوزراء زمن المغول الإيلخانيين في إيران، م١ ، صـ٣١٩.

(٢) مصطفى حسين: المرجع السابق، م١ ، صـ٣٢٠؛ وللمزيد: رشيد الدين: جامع التواريخ (تاريخ غازان خان)، الترجمة العربية، صـ٢٨٦، ٢٨٧، ٣١٠.

(٣) رشيد الدين جامع التواريخ (تاريخ غازان خان)، الترجمة العربية، صـ٣١٠؛ الصياد: الشرق الإسلامي في عهد الإيلخانيين، صـ٣٢٧.

يتخذون منازلهم على هيئة أنفاق تحت الأرض، لها ممرات ضيقة متعرّجة، بحيث تجعل الرسل لا يميلون إليها ولا يرغبون في دخولها[1].

وبشهادة أحد المستشرقين «فإنه على مدى القرون لم يكن تاريخ إيران بمثل تلك القسوة وذلك السوء الذي بلغته أحوال القرويين في عهد المغول»[2].

عوامل أخرى لكساد الزراعة

وإلى جانب نظام الرسل ومفاسده كانت هناك عوامل أخرى أدّت إلى كساد الزراعة في العراق في عهد الإيلخانيين؛ منها كثرة اندلاع الحروب والفتن والصراعات الداخلية في الدولة، وتَعرُّض الفلاحين وأراضيهم للعدوان والسلب والنهب، وجور الولاة والعمال ومحصلي الضرائب، على نحوٍ أدّى إلى خراب القرى والمزارع وبوار الأراضي، وهذا بالإضافة إلى المظالم التي كان القرويون يلقونها من أمراء المغول وعساكرهم، الذين كانوا يرعون دوابهم في حقول الناس، ويستولون على محاصيلهم ودوابهم، وقد دفع هذا الكثيرين منهم إلى ترك حرفة الزراعة والبحث عن حرفة أخرى؛ حتى لا ينفقوا حياتهم في زراعة حصاد الآخرين[3].

ومن أسباب كساد الزراعة وسوء أوضاع أربابها منذ سقوط بغداد وعلى مرّ أربعة عقود (أي قبل عهد غازان خان) أيضا، إهمال المسئولين الديوانيين والولاة؛ فمعظم الولاة في ذلك الوقت كانوا يُصرِّحون دائما بأن أكثر الأراضي قد خربت، وبأن الرعايا أصبحوا

---

(1) مجموعة مستشرقين: تاريخ ايران از دوران باستان، صـ٣٦٢؛ رشيد الدين: جامع التواريخ (تاريخ غازان خان)، الترجمة العربية، صـ٢٨٦؛ مصطفى حسين: الدور السياسي والحضاري للوزراء زمن المغول الإيلخانيين في إيران، م١ ، صـ٣٢٠.

(2) مجموعة مستشرقين: تاريخ ايران از دوران باستان، صـ٣٦٢.

(3) خواندمير: غياث الدين بن همام الدين الحسيني المدعوّ به خواندمير: تاريخ حبيب السير فى اخبار افراد بشر، جزءِ اول از مجلد سوم، از انتشارات كتابخانه خيام، خيابان ناصر خسرو، ١٣٣٣هـ. ش، م٣ ، جـ١، صـ١٧٦؛ مصطفى حسين: المرجع السابق، م٢ ، صـ٥٩٠.

فقراء مستضعفين لا يستطيعون الاعتماد كليًّا في زراعتهم على ثيرانهم وبذورهم فقط(١)، كما أنّ مساحات واسعة من الأراضي وكميات ضخمة من المياه، بقيت عرضة لإهمال المسئولين الذين لم يكونوا يهتمون بمطالب الزُّرّاع أو احتياجاتهم، كما أنّ مقادير البذور المحدودة، التي كان الفلاحون يحصلون عليها من الديوان فيما قبل عهد غازان، قد استُهلكت كلها في أيام الغلاء، فأضرّ ذلك بالديوان والفلاحين في وقتٍ معا(٢).

وقد ظل نظام الرسل قائما بما فيه من فساد وجور على الرعايا وأراضيهم وزروعهم وأملاكهم منذ استيلاء المغول على بغداد وطيلة عهود كل من هولاكو خان وأباقا خان وأحمد تكودار وأرغون خان وبايدو خان، وقد حاول الوزير سعد الدولة اليهودي(٣) لفت انتباه السلطان أرغون خان إلى فساد نظام الرسل وضياع الأموال بسببه وسعى إلى إبطال ذلك النظام لكن محاولته لم يكتب لها النجاح(٤).

ثم جاء السلطان محمود غازان خان الذي تولى العرش سنة ٦٩٤هـ فكان من أحسن الإجراءات الإصلاحية التي قام بها ضبط وتقنين نظام الرسل الجائر وكفّ أذاهم عن الناس، فكانت طبقة الفلاحين أكثر طبقات المجتمع استفادة من هذا الإجراء الحكيم النافع،

(١) جامع التواريخ (تاريخ غازان خان)، الترجمة العربية، صـ٣٨٧؛ مصطفى حسين: الدور السياسي والحضاري للوزراء زمن المغول الإيلخانيين في إيران، م٢ ، صـ٥٩٠.

(٢) رشيد الدين: جامع التواريخ (تاريخ غازان خان)، الترجمة العربية، صـ٣٨٧.

(٣) كان سعد الدولة اليهودي شخصا طموحا ماهرا عارفا بالشئون المالية والإدارية خبيرا بتحصيل الأموال، كما كان طبيب البلاط الإيلخاني فمكنه ذلك المنصب من التقرب إلى أرغون خان، فتولى الوزارة أو صحابة ديوان الممالك لأرغون خان خلفا للأمير بوقا المغولي، وكان له دور بارز في سياسة الدولة ونشاطها الحضاري، لكن سوء نواياه تجاه المسلمين وتكبره على كبار الأمراء انتهى به إلى القتل سنة ٦٩٠هـ/ ١٢٩١م . للمزيد عن هذا الوزير راجع: مصطفى حسين: الدور السياسي والحضاري للوزراء زمن المغول الإيلخانيين في إيران، م١، صـ٢٨٣ فما بعدها.

(٤) راجع: مصطفى حسين: المرجع السابق، م١، صـ٣١٨ فما بعدها.

فقد صدر فرمان السلطان غازان ليقضي بألا يرسل أي مخلوق رسولا إلا أن يكون من قِبل السلطان[١]، ثم أعقبه فرمان يقضي بتخصيص نفقات للرسل من خزانة الدولة حتى لا يتعرضوا للرعايا[٢]، كما صدر فرمان بإقامة دور خاصة للرسل في البلاد، ومنع الشحن والحكام من النزول فى منازل الناس" وتم تنفيذ ذلك فعلا[٣].

وقد عمل السلطان غازان خان ووزراؤه على القضاء على أسباب كساد الزراعة وسعوا بجدٍ في سبيل إحيائها؛ فإلى جانب تقنين إيفاد الرسل وكف أذاهم عن الفلاحين، تم نتظيم شؤون الأراضي وضبط معاملاتها[٤]، وتوسيع رقعة الأراضي المزروعة، وتشجيع الرعايا على استصلاح الأراضي البور، وإصلاح شبكة الري القديمة وتوسعتها، وترميم الجسور وتوفير كافة الوسائل المطلوبة للزراعة[٥]، وبطبيعة الحال كانت هذه الإجراءات شاملة عامة في مختلف مناطق وولايات الدولة الإيلخانية ومن بينها ولاية بغداد والعراق العربي.

---

(١) رشيد الدين: المصدر السابق، صـ٣١٣؛ خواندمير: تاريخ حبيب السير، م٣ ، جـ١، صـ١٧٢.

(٢) رشيد الدين: جامع التواريخ (تاريخ غازان خان)، الترجمة العربية، ص٣١٤؛ خواندمير: تاريخ حبيب السير، م٣ ، جـ١، ص١٧٢؛ مصطفى حسين: الدور السياسي والحضاري للوزراء زمن المغول الإيلخانيين في إيران، م٢ ، صـ٥٧١.

(٣) رشيد الدين: المصدر السابق، الترجمة العربية، صـ٤٠٠؛ خواندمير: تاريخ حبيب السير، م٣ ، جـ١، صـ١٧٢؛ مصطفى حسين: المرجع السابق، م٢ ، صـ٥٧٣.

(٤) رشيد الدين: المصدر السابق، صـ٣٩٧؛ مصطفى حسين: الدور السياسي والحضاري للوزراء زمن الغول الإيلخانيين في إيران، م٢ ، صـ٥٩١.

(٥) للمزيد حول جهود غازان خان في هذا المجال راجع: فؤاد الصياد: السلطان محمود غازان خان المغولي واعتناقه الإسلام، الطبعة الأولى، مكتبة الأنجلو المصرية، سنة ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م، صـ٤٥– ٤٦؛ مصطفى حسين: المرجع السابق، م٢ ، صـ٥٨٩– ٦١١.

المبحث الثالث: تأثير الغزو المغولي على الصّناعة والتجارة

أولا: تأثيره على الصناعة:

من المقرّر تاريخيًّا أنّ العراق أصبح قاعدة مهمّة من قواعد المدنية الإسلامية أيام الخلفاء الراشدين والأمويين، ثم أصبح القاعدة الرئيسة لتلك المدنية خلال أكثر أيام الخلفاء العباسيين، وقد كان الكثير من أصحاب الصناعة والعلم والفنّ يتقدمون إليه لعرض ما لديهم من مهارة وفنّ، وكان يساعدهم على ذلك تشجيع الخلفاء والسلاطين وحاشيتهم، وكذلك نشاط التجارة العالمية التي كان العراق أحد طرقها الرئيسة ومركزا مرموقا لتزويدها بالسلع المهمة؛ كالمنسوجات الفاخرة والزجاج والورق وغيره، كما كان يتوفر به الصناع ذوي المهارات الفنية وكذلك أصحاب رؤوس الأموال[1].

وإذا استعرضنا ما ذكره الجغرافيون والرحّالة عن صناعة العراق في العهد العباسي وجدنا أحدهم –وهو ابن الفقيه– يؤكد تفوّق أهل الكوفة في صناعة الوشي والخزّ والعطريّات وأهل بغداد في عدة صناعات أهمها الثياب البيض والزجاج المحكم من أقداح وأقحاف وكاسات... كما كانت بغداد مركزا لصناعة الورق الفاخر، وكان أهل كورة دجلة والسواد وميسان مشهورين بعمل الستور والبُسُط والفرش ونسيج الحرير[2].

وقد مرّ الرحّالة المغربي ابن سعيد بالعراق قبيل سقوطها في أيدي المغول، وتحديدا في سنة ٦٥٤هـ، وأشار إلى تعدّد صناعات الموصل التي كان من أهمها الأواني النحاسية

---

(1) انظر: خصباك: جعفر حسين: العراق في عهد المغول الإيلخانيين (٦٥٦–٧٣٦/ ١٢٥٨–١٣٣٥م)، الفتح. الإدارة. الأحوال الاقتصادية. الأحوال الاجتماعية، الطبعة الأولى، كانون الثاني، ١٩٦٨م، صـ١٢٦.

(2) ابن الفقيه: أبو بكر أحمد بن محمد الهمذاني: مختصر كتاب البلدان، ليدن، سنة ١٣٠٢هـ، صـ٢٥٢– ٢٥٣؛ خصباك: المرجع السابق، صـ١٢٦– ١٢٧.

المطعّمة التي تحمل إلى الملوك، والثياب المحرّرات[1]، وثمّة إشارات عديدة لدى ابن الفوطي البغدادي تؤكد وجود صناعة الصابون وازدهارها في المائة السابعة في العراق عامة وبغداد خاصّة[2].

«وفي المبنى الموسوم بالقصر العباسي وفي جامع مرجان والمدرسة المستنصرية – في العصر الحاضر– نماذج عباسية لمصنوعات زجاجية وخزفية جميلة، وقاشاني وأبواب وشبابيك من الخشب المزخرف بالزخارف الإسلامية التقليدية»[3].

أما في العهد الإيلخاني، فمن المرجّح أن أكثر الصناعات التي كانت منتشرة في العراق في العصر العباسي قد استمرت؛ فقد كان من عادة المغول في حروبهم الأولى أنّهم كانوا لا يقتلون الحرفيين والصنّاع، بل يأسرونهم ليستفيدوا من مهارتهم وخاصة صنّاع الأسلحة من سيوف ورماح ومجانيق، وما يرتبط بالخيول من لُجُم وسروج وحبال وغير ذلك، وقد وردت إشارات في المصادر إلى اتباعهم ذلك النهج في حروبهم مع الدولة الخوارزمية، وأغلب الظن أنهم فعلوا ذلك عند غزوهم العراق.

ومن الثابت أن هولاكو خان بعد أن استولى على بغداد أمر بإصلاح ما خرب منها « وإعادة أسواقها وأعمال أهلها إلى ما كانت عليه سابقا، ومع أنه ليس لدينا من الحقائق التاريخية ما يحدد مقدار خسارة المدينة من الأيدي الماهرة في الصناعة، فإن البلاد –كما يبدو– استطاعت التعويض عنها بعد فترة قصيرة، ربما عن طريق هجرة أهل الخبرة من القرى والمدن المجاورة إلى المدن المتضررة، وهي بغداد والموصل وأربل وواسط، أما المدن

---

(1) علي بن موسى الشهير بابن سعيد المغربي: بسط الأرض في الطول والعرض، تحقيق الدكتور خوان قرميظ خينيس، تطوان، المغرب، ١٣٧٨هـ/ ١٩٥٨م، صـ٩٠؛ خصباك: العراق في عهد المغول الإيلخانيين، صـ١٢٨.

(2) راجع مثلا: الحوادث الجامعة، صـ٧٩، ٨٦، ٩٤، ١١٨، ١٩٤، ٢١٣. الله عليك.

(3) خصباك: المرجع السابق، صـ١٢٨– ١٢٩.

الأخرى، كالبصرة والكوفة والحلة، فإنها استسلمت للفاتحين دون قتال؛ ولذلك لم تخسر الكثير من أياديها الماهرة»[1].

ويشير المؤرخ الجغرافي القزويني الذي صنّف كتابه سنة ٦٧٤هـ -أي بعد قرابة العقدين من غزو المغول بغداد- إلى ازدهار الصناعات ببغداد فيصفها بأنها: «مجمع لطيبات الدنيا ومحاسنها، ومعدن لأرباب الغايات وآحاد الدهر في كل علم وصنعة»[2]، كما مرّ الرحالة المغربي ابن بطوطة سنة ٧٢٧هـ بالعراق فوصف بغداد بقوله: «والجانب الشرقي من المدينة حافل بالأسواق عظيم الترتيب، أعظم أسواقه يعرف بسوق الثلاثاء، كلّ صناعة فيه على حدة»[3].

وفي كتاب "مراصد الاطلاع" -ومؤلفه معاصر للأحداث- إشارات عدة تؤكد استمرار كثير من الصناعات العباسيّة في عهد المغول الإيلخانيين في العراق؛ فمن ذلك حديثه عن "دار القزّ" وهي محلّة تقع في الجانب الغربي من بغداد، اشتهرت بصناعة الكاغد (أي الورق)، وكذلك "كرخ" وهي قرية فوق بغداد بها دكاكين الكاغد والثياب الإبريسمية[4].

ويذكر القلقشندي -نقلا عن العمري المتوفى سنة ٧٤٩هـ في مسالك الأبصار- أن مملكة إيران، ويعني بها الدولة الإيلخانية، معروفة بصناعة الأقمشة والثياب الفاخرة من

---

(1) خصباك: العراق في عهد المغول الإيلخانيين، صـ١٢٩.

(2) القزويني: زكريا بن محمد بن محمود: آثار البلاد وأخبار العباد، طبعة دار صادر، بيروت، سنة ١٩٦٠، صـ٢٠٩- ٢١١.

(3) ابن بطوطة: محمد بن عبد الله بن إبراهيم اللَّواتي الطنجي المعروف بابن بطوطة: تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، جزءان، القاهرة، ١٩٣٨م، جـ١ ، صـ١٤٠- ١٤٢.

(4) البغدادي: صفي الدين عبد المؤمن بن عبد الحق (ت٧٣٩هـ): مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، تحقيق علي محمد البجاوي، الطبعة الأولى، دار الجيل، بيروت، سنة ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م، جـ٢ ، صـ٥٠٧؛ خصباك: المرجع السابق، صـ١٣٠.

"النخ" و"المخمل" و"الكمخا"[1]، والعتابي والنصافي والصوف الأبيض المارديني[2]، والعراق وحاضرته بغداد كانتا آنئذ جزءا من تلك المملكة.

ثانيا: تأثير الغزو المغولي لبغداد على التجارة:

من نافلة القول التأكيد على أنّ التجارة كانت مزدهرة في العراق في معظم الفترات العباسية، وكان بلاط الخلفاء وقصورهم وقصور حاشيتهم من الوزراء والعمّال وأمراء الجيش يستنفر همم وغايات التجار من مختلف البقاع، وبطبيعة الحال بعد التغير السياسي والاقتصادي الذي نتج عن الغزو المغولي لبغداد، كان على النشاط التجاري أن يتأثر بذلك، وقد «ارتبط تطوُّر التجارة المحلية والدوليّة في العراق في تلك الفترة ارتباطا وثيقا بالتغيُّر السياسيّ والاقتصاديّ الذي أحدثه الغزو المغولي؛ فبعد فظائع الغزو المغوليّ بوقت قصير عاد النشاط التجاريّ الواسع في كل مكان؛ إذ بقي على قيد الحياة مجموعة من التجّار الأغنياء المشتغلين بالتجارة الدولية، لقد أقاموا الصلات مع المغول حتى قبل استيلاء المغول على بغداد، وتابعوا نشاطاتهم التجارية والمصرفيّة بعده»[3].

وقد اهتم المغول الإيلخانيون بالحفاظ على التجارة المنتظمة بدرجات متفاوتة واتخاذ الإجراءات المناسبة لتعزيزها، وقد تجلت أعلى درجات الاهتمام بالتجارة وطرقها وتأمينها في عصر الإصلاحات الكبرى الذي انطلق بعد تولي السلطان المسلم محمود غازان خان ابن أرغون مقاليد الحكم سنة ٦٩٤هـ/ ١٢٩٤م ؛ فقد «بذل غازان الجهود لحماية التجار المسافرين على الطرق البريّة الكبرى في المملكة، كما أنه أقام رقابة على النشاطات التجارية ونظاما موحّدا من الأوزان والمكاييل»[4].

---

(1) "النخ" و"الكمخا" نوعان من الثياب الحريرية المذهّبة. ابن بطوطة: تحفة النظار، جـ١ ، صـ١٩٣.

(2) صبح الأعشى، جـ٤ ، صـ٤٠٨.

(3) آ. آشتور: التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للشرق الأوسط في العصور الوسطى، صـ٣٤١

(4) آ. آشتور: المرجع السابق، الصفحة نفسها.

وكانت مدينة بغداد تحتل المنزلة الأولى بين مدن العراق من حيث النشاط التجاري؛ فقد «كانت تجارة العراق –في العهد الإيلخاني– تتركز في بغداد بشكل رئيس ثم في الموصل والبصرة وواسط والنجف»(١).

الطرق التجارية وما طرأ عليها بعد الغزو المغولي

من الجدير بالملاحظة أنّ تجارة العراق الداخلية كانت « تعتمد على الطرق النهرية أكثر منها على الطرق البرية لرخصها وسهولتها، ويتكرّر ذكر دجلة أكثر من الفرات في هذا المجال، وكانت تربط بين البصرة وبغداد والموصل، وكان القسم الجنوبي منها أكبر أهمية من غيره لاتصاله بخليج البصرة والهند والصين، وكانت السفن والقوارب تصل من الفرات إلى دجلة عن طريق القنوات العديدة التي تربط بينهما»(٢).

وفيما يتعلق بالتجارة الداخليّة في بغداد «فإنها كانت تقوم على الطرق البرّيَّة والبحرية، وقد ازدادت أهميّة الطرق البريّة في هذه الفترة، وهي نفس الطرق العباسية المعروفة مع تعديلات ثانوية، وكان أهمها طريق خراسان العظيم الذي كان يمرّ من بغداد إلى حلوان داخل العراق، ومنها إلى همذان فالري ومنها إلى إقليم خراسان ثم إلى نيسابور وطوس ومرو حتى يبلغ ضفّة نهر جيحون عند آمل، ثم إلى بخارى فسمرقند»(٣).

تجّار بغداد: أعدادهم وحجم تجارتهم

كان من الطبيعي أن يقلّ نشاط التجّار في العراق نتيجة لاضطراب الأمن عقب الغزو المغولي، وكذلك نتيجة لتوقف الحياة وهروب الناس وتعرضهم القتل والسلب والنهب،

---

(١) خصباك: العراق في عهد المغول الإيلخانيين، صـ١٣٥.

(٢) خصباك: المرجع السابق، صـ١٣٥.

(٣) خصباك: المرجع نفسه، صـ١٣٥.

لكنّ هذا كله سرعان ما بدأ يتراجع تدريجيا مع الاستقرار السياسي الذي بدأ يلوح في الأفق في عهد آباقا خان بن هولاكو.

وقد استغل تجار بغداد والمدن الأخرى في العراق موقف الحكومة الجديد في عهد غازان وإصلاحاته، ويتحدث مؤرخ معاصر – وهو ابن الفوطي البغدادي– عن عماد الدين علي بن الحسن العذري، التاجر الغني، الذي قام بإقراض رجال الدولة بالفائدة[١].

ومن ناحية أعداد التجّار وحجم التجارة في العراق عامة وبغداد خاصة بعد الغزو المغولي، فليست لدينا إحصاءات ولا بيانات لها، غير أنّ القتل العام الذي مارسه المغول لم يفرّق بين عسكريين أو مدنيين أو تجار أو فلاحين «ولكنّ المعطيات التي نعرفها لا تساعد على اتخاذ موقف معيّن من عدد هؤلاء التجار الأغنياء والقوة الاقتصادية لهذه الطبقة، ومن المؤكد أنّ حجم هذه التجارة قد تقلّص؛ لأنّ اقتصاد العراق غيّر من طبيعته، فأصبح اقتصادا ريفيًّا بصورة عامة؛ ولذلك تقلص مجال النشاطات التجارية، وأصبح العراق آنئذٍ مقاطعة في مملكة كبيرة، ولم تعد بغداد مركز الحكومة حيث يتم تنظيم الحملات العسكرية وتزويد البلاط الفخم»[٢].

أثر الغزو المغولي على تجارة بغداد الدوليّة:

تأثّرت التجارة الدولية للعراق عامة وبغداد خاصة تأثرا سلبيا قويا بعد الغزو المغولي؛ فقد ساءت تجارة العراق الدولية إلى درجة أكبر « فلمدة نصف قرن بعد دخول المغول لم تقم تجارة منتظمة مع سورية ومصر؛ لأنّ حكام تبريز (يعني الإيلخانيين) والقاهرة (يعني المماليك) خافوا من استخدام العلاقات التجارية لأغراض التجسس، ولكن التجارة لم تتوقف

---

(١) كمال الدين عبد الرازق بن أحمد الشيباني المعروف بابن الفوطي: تلخيص مجمع الآداب في معجم الألقاب، تحقيق الدكتور مصطفي جواد، الطبعة الأولى، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، مطبوعات مديرية إحياء التراث القديم، المطبعة الهاشمية بدمشق، سنة ١٣٨٢هـ/ ١٩٦٢م، جـ٤ صـ٧٧٩؛ آ. آشتور: التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للشرق الأوسط في العصور الوسطى، صـ٣٤١.

(٢) آ. آشتور: التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للشرق الأوسط في العصور الوسطى، صـ٣٤١.

تماما مع هذه البلدان، وفي بعض الأحيان، عندما عارضت حكومة الإيلخانات، سافر تجار العراق إلى المملكة المسيحيّة في أرمينية الصغرى، ومن هناك إلى سورية، واقترح بعض الإيلخانات على سلاطين القاهرة إعادة التجارة المنتظمة، ولكن التجارة المنتظمة لم تعد بين الدولتين إلا في بداية القرن الرابع عشر (أي الميلادي) في نهاية عقده الأول تحدد رسم خاص بالضرائب في تبريز يتوجب على التجار من الإسكندرية دفعه»[١].

«وتكثفت من جهة أخرى تجارة العراق مع إيران وبلاد أواسط آسيا الأخرى إلى حدٍّ كبير بعد الغزو المغولي، وبدأ التجار العراقيون بانتظام بزيارة خوارزم والسفر عبر التركستان إلى الصين، واستغل الآخرون السلام المغولي للمتاجرة مع مملكة المغول العظيمة – القبجاق – شمال القفقاس، ويروي ابن بطوطة أنه قابل تاجرا من كربلاء مسافرا على طرق القوافل العظيمة من خوارزم إلى الصين، كما قابل تجارا عراقيين آخرين في سراي عاصمة القبجاق»[٢]، يعني عاصمة مغول القبيلة الذهبية.

«لكن هذا التطور قابله التدهور في نصيب العراق في تجارة الهند العظيمة، التي كانت في السابق مصدر غناه؛ فحتى استيلاء المغول عليه، شحنت معظم التوابل والبضائع الهندية الأخرى إلى البصرة، ومن ثم حملت عبر بغداد وأنطاكية على شواطئ المتوسط، وبعد إقامة الحكم المغولي، أصبحت تبريز ليس فقط عاصمة الإيلخانات، بل ومركزا مهما للتجارة العالمية أيضا»[٣].

أثر الغزو المغولي لبغداد على الطرق التجارية:

بعد عشر سنوات من سقوط بغداد استولى سلطان دولة المماليك بمصر والشام على أنطاكية « التي كانت المدينة التجارية الهامة عند الطرف الآخر من الطريق البري الذي نقل البضائع الهندية من الخليج العربي إلى البحر المتوسط، وكانت العداوة بين حكام تبريز (يعني الإيلخانيين) والقاهرة (يعني المماليك) أو بالأحرى حالة الحرب الدائمة تقريبا بينهما

(١) آ. آشتور: المرجع السابق، صـ٣٤١– ٣٤٢.

(٢) آشتور: المرجع السابق، صـ٣٤٢.

(٣) آشتور: المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

سببا آخر لتبدل هذا الطريق البري؛ فمنذ ذلك الوقت أُرسل جزء كبير من البضائع الهندية التي وصلت شواطئ الخليج العربي إلى تبريز ثم على الطرق شمال بحيرة "وان" عبر أرزنجان إلى أرمينية الصغرى»[١]، وهذا أدّى إلى فقدان الطرق التجارية المارّة ببغداد كثيرا من مكانتها التي بلغتها عبر العهد العباسي.

ونتيجة لتراجع دور بغداد من كونها عاصمة الخلافة العباسية العريقة إلى مجرد مدينة إقليمية تتولى إدارة ولاية العراق العربي، وارتفاع منزلة مدينة تبريز التي أضحت عاصمة للإيلخانيين منذ عهد آباقا حتى عهد السلطان أولجايتو، فقد « جذبت تبريز عددا من التجار الإيطاليين، فنمت تجارة تبريز بالضرورة على حساب بغداد»[٢].

نتائج غزو بغداد على النشاط التجاري

استرشادا بالروايات التاريخية المتوفّرة حول نشاط العراق التجاري خلال الفترة الإيلخانية، يمكن القول بأن هذا النشاط مثّل استمرارا لما كان عليه الوضع في أواخر العهد العباسي بصورة عامة، مع بعض الفروق التي يمكن إيجازها فيما يلي[٣]:

أولا: لم يعد هناك بلاط عباسي ولا خليفة في بغداد يوجّه اقتصاد البلاد ولا تجارتها بحاجاته المستمرة إلى السلع الفاخرة من الأقمشة والعطور والجواري والغلمان والأسلحة، وفي الوقت ذاته احتفظت بغداد بمكانة جديدة بوصفها إحدى أكبر المدن الإيلخانية مكانة بعد العواصم الجديدة في تبريز وسلطانية بإقليم آذربيجان.

ثانيا: كان لاتخاذ الإيلخانيين عواصمهم في مراغة ثم تبريز ثم سلطانية بإقليم آذربيجان أثره البالغ على إعادة ترتيب أهمية الطرق التجارية وفقا للوضع السياسي الجديد؛ فقد أصبح الطريق البري الذي يربط العراق وبغداد بأواسط آسيا يميل إلى الشمال مراعاة لمكانة العواصم الجديدة، كما ازدادت أهمية ذلك الطريق بالنسبة للعراق أكثر مما كان في السابق.

(١) آ. آشتور: المرجع السابق، صـ٣٤٢- ٣٤٣.

(٢) آ. أشتور: المرجع نفسه، صـ٣٤٣.

(٣) راجع: خصباك: العراق في عهد المغول الإيلحانيين، صـ١٣٣.

ثالثا: أنّ الغزو المغولي أفضى إلى دفع تجارة الشرق الأوسط في وجهة جديدة، فقد اشتدت علاقات الارتباط بين العراق وإيران التي مثلت قاعدة الدولة الإيلخانية ومقرّ عاصمتها، وقد امتدّت تلك العلاقات إلى أواسط آسيا في تركستان والصين على اعتبار أنّ الدولة الإيلخانية نشأت في بداية الأمر تابعة لإمبراطورية المغول العظمى في منغوليا والصين.

رابعا: اتخذت العلاقات بين العراق من جانب والشام والجزيرة العربية ومصر من جانب آخر طابعا عدائيا؛ فالعراق خضع للإيلخانيين، أما الجانب الآخر فمثلته دولة المماليك، واحتدم الصراع العسكري بين الجانبين في معظم الفترات، وهذا أدى بدوره إلى ضعف النشاط التجاري بين الجانبين إلا في بعض الفترات العابرة كعهد السلطان أحمد تكودار الذي لم يستمر طويلا.

ويمكن حصر أهم المشكلات التي عانتها تجارة العراق بعد سقوطها في أيدي المغول الإيلخانيين في « موقف بعض القبائل البدوية العربية والكردية التي كانت تقطع الطرق وتنهب التجار، والخلاف بين دولتي الإيلخانيين والمماليك، ومضايقة الدولة للأغنياء طمعا في مالهم، وعدم توحيد النقود في سائر أنحاء الإمبراطورية الإيلخانية»[١].

لكن هذه المشكلات كانت تقابل من جانب الدولة أحيانا بمحاولات إصلاحية، لكن تلك المحاولات كان غالبا ما تكن ردود أفعال ومواجهة بالقوة فلم تؤت ثمارا واضحة، بل كانت مؤقتة قصيرة الأثر، ولم يكتب لها النجاح إلا بعد أن تحولت إلى سياسة إصلاحية شاملة ومخططة.

يؤيد ما سبق أنه في سنة ٦٨٠هـ/ ١٢٨١م ظهر أعراب قطاع طرق في نواحي السيب وواسط فهاجمهم العسكر المغولي ونهبهم وعاد بالأسرى والأموال[٢]، وفي سنة ٦٨٦هـ/ ١٢٨٧م « دخلت العرب في يوم جمعة إلى الجامع بالمحول فأخذوا ثياب كل من كان فيه،

---

(١) خصباك: العراق في عهد المغول الإيلخانيين، صـ١٤٤. وأرى أن وصف الدولة الإيلخانية بالإمبراطورية فيه شيء من المبالغة.

(٢) ابن الفوطي: الحوادث الجامعة، صـ٤١٥؛ خصباك: العراق في عهد المغول الإيلخانيين، صـ١٤٤.

ثم قصدوا ناحية الحارثية، وكبسوها ليلا وأخذوا ما قدروا عليه وقتلوا جماعة من أهلها، فلم يزل شحنة العراق يفحص عنهم حتى ظفر بأكثرهم، وضرب أعناقهم وبنى رؤوسهم في قبة الجسر وجعل وجوههم ظاهرة ليعتبر بها كل مفسد»[1].

وفي سنة ٦٨٧هـ/ ١٢٨٨م وقعت فتنة ببغداد «ونهب العوام دكاكين اليهود من المخلطين وغيرهم، فكفهم الديوان عن ذلك، فخرج النواب من بغداد متوجهين إلى بلادهم، فصادفهم الأكراد في الجبل فقتلوهم»[2].

وفي سنة ٦٩٣هـ/ ١٢٩٤م علم السلطان كيخاتو خان بأن في بلاد واسط وسوادها جماعة من الأعراب البغاة المفسدين، فأمر أحد القادة المغول –وهو بايدو بن طراغاي– بالمسير إليهم ونهبهم، فسار إلى بغداد وانحدر إلى واسط حتى وصل إلى آخر أعمالها دون أن يتعرض لأحد، وبدلا من مهاجمة الأعراب، شرع في نهب الرعية وأخذ أموالهم، ومواشيهم من الجاموس والبقر والغنم، وأسر الذراري وسبى النساء، أما الأعراب فقد اعتصموا بالبطائح فلم يقدر بايدو عليهم[3].

ومن العجيب أن بايدو مبعوث الإيلخان هاجم هو وعسكره سفن التجار الواصلين من البحر، ونهبوا بعض ما فيها من القماش، ولما خرج الأعراب من مكامنهم في البطائح نهبوا الباقي وأحرقوا بعض السفن، فأصبح التجار حفاة عراة لا يقدرون على شيء، ثم أرسل بايدو بعض العسكر إلى عين التَّمر والكُنيسَات فنهبوا الرعية وسبوا وأسروا وارتكبوا كل منكر ثم عادو إلى بايدو وقد وصل بغداد، أما السلطان كيخاتو خان فقد أنكر على بايدو ما فعل وقبض عليه وسجنه، لكنه قبل فيه شفاعة بعض المقربين فأطلق سراحه[4].

---

(١) ابن الفوطي: الحوادث الجامعة، صـ٤٥١– ٤٥٢.

(٢) ابن الفوطي: المصدر السابق، صـ٤٥٥.

(٣) انظر: ابن الفوطي: المصدر السابق، صـ٤٧٦.

(٤) انظر: ابن الفوطي: المصدر السابق، صـ٤٧٦– ٤٧٧. ويذكر المؤلف أن بايدو أسر زيادة على ثلاثين ألف أسير. وهي مبالغة واضحة، وبايدو هذا هو الذي استولى على العرش بعد مقتل كيخاتو خان.

وحينما تولى السلطان محمود غازان العرش الإيلخاني سنة ٦٩٤هـ/ ١٢٩٤م، وبدأ الإسلام يسيطر على روح الدولة، وتيسر وجود وزراء مصلحين من أمثال سعد الدين الساوجي ورشيد الدين الهمذاني، ظهرت سياسة واضحة ومقننة للدولة في مواجهة اللصوص وقطاع الطرق وحماية التجار والطرق التجارية.

وتؤكد المصادر أن التجارة الداخلية والخارجية قد لقيتا اهتماما كبيرا من هذين الوزيرين ولا سيما رشيد الدين، « ومما شجعهما على ذلك اهتمام السلطان غازان بالنشاط التجاري، واتخاذه عددا من الإجراءات كان لها أبلغ الأثر في بعث الحركة التجارية وتحريرها من حالة الركود التي خيمت عليها في معظم فترات العهود السابقة نتيجة لأسباب عدة، منها ضياع الأمن، وسوء أوضاع الطرق، واضطراب النظام النقدي، وظلم الحكام والولاة وجباة الضرائب ورسل المغول ومبعوثيهم، وغير ذلك من الأسباب»(١).

وقد أدرك السلطان غازان ووزيراه أن خطط الإصلاحات الاقتصادية لن تحقق النتائج المرجوّة إذا اقتصرت على الزراعة والصناعة وأهملت التجارة؛ فالعلاقة بين الزراعة والصناعة والتجارة علاقة تكاملية؛ إذ يعتمد كل نشاط منها على النشاطين الآخرين بصورة واضحة؛ فالزراعة توفر المواد الخام اللازمة للصناعة، وكلتاهما تعملان على توفير السلع والبضائع للحركة التجارية، والتجارة تعمل من ناحية على تزويد الزراعة والصناعة بكثير من احتياجاتهما، كما أنها ضرورية –من ناحية أخرى– لتسويق المحاصيل والمنتجات الزراعية؛ ولهذا كله كانت التجارة محل اهتمام غازان ووزيريه(٢).

لقد كان من أبرز الإجراءات التي اعتمدها غازان خان ووزيراه وكان لها أبلغ الأثر في تنشيط التجارة الداخلية والخارجية، تأمين الطرق وتنظيم البريد(٣)، فمنذ سقوط بغداد في أيدي المغول حتى عهد غازان خان كانت أوضاع الطرق والبريد قد أصابها كثير من

---

(١) مصطفى حسين: الدور السياسي والحضاري للوزراء زمن المغول الإيلخانيين في إيران، م٢، صـ٦٢٠.

(٢) انظر: مصطفى حسين: المرجع السابق، الصفحة نفسها.

(٣) انظر: مصطفى حسين: المرجع نفسه، م٢، صـ٦٢٠.

والفساد؛ فقد انعدم الأمن وكثر اللصوص وقطاع الطرق، وأصبح المسافرون –وخاصة التجار– غير آمنين على أنفسهم وأموالهم، وقد بلغ من سوء الوضع الأمني آنئذ أن تعددت أجناس اللصوص، وصار لهم أعوان بين سكان البوادي والقرى، فكانوا يستمدون العون من بعض الرؤساء والعمد بالقرى، وكان لهم مقربون في مختلف النواحي يعاونونهم في بيع البضائع المغتصبة(١).

وقد كلّف غازان خان أحد كبار الأمراء –ويدعى "بورالغي بن جنقور"– مشرفا على حراس الطرق جميعا في البلاد الإيلخانية(٢)، وزَوّده بأسماء هؤلاء الحراس فبلغ عددهم عشرة آلاف شخص مُجهَّزين بحيث صاروا يكوّنون جيشًا مجهَّزا، وكان "بورالغي" مشهودًا له بالنزاهة، وقد تمكن من ضبط الطرق وأخذ على أيدي اللصوص، وأعدم بعضهم، فكافأه السلطان ولم يجرؤ أحد بعد ذلك على التواطؤ مع اللصوص، وقد سيطر هذا الأمير على حرّاس الطرق فكفّ أذاهم عن التجار والمسافرين، ومنعهم من الانشغال عن أعمال الحراسة، والتفرغ للمحافظة على حياة المسافرين ومتاعهم وأموالهم، فأدى ذلك إلى استتباب الأمن وتحقيق النظام في الطرق(٣).

وقد أدرك السلطان غازان خان أنّ تأمين الطرق لن يؤتي ثماره على الوجه الأكمل إلا بإعادة تنظيم البريد وإصلاح شئونه التي كانت غارقة في الفساد منذ سقوط بغداد في أيدي المغول حتى عهد غازان خان؛ ولذلك ألغى غازان المحطات البريدية غير الضرورية، فوفر بذلك على الدولة أموالا طائلة، واكتفى بمحطات محدودة في الطرق المهمة، وكلّف عددا من الأمراء الثقات بالإشراف عليها، ومنع استخدام دواب البريد في المصالح الشخصية، وخصص دمغة موحّدة للبريد، وكفّ أذى رسل المغول وأعوانهم عن الإضرار بمصالح البريد ودوابّه، أوالتعرض للمسافرين والتجار، فساعدت تلك الإجراءات على تنشيط الحركة التجارية، فاطمأن التجار وأصبحت البضائع الصادرة والواردة آمنة في الطرق والدروب(٤)،

---

(١) رشيد الدين: جامع التواريخ (تاريخ غازان خان)، الترجمة العربية، ص٣١٥– ٣١٦؛ مصطفى حسين: المرجع السابق، م٢، صـ٦٢٠.

(٢) مصطفى حسين: المرجع السابق، م٢، صـ٦٢١.

(٣) رشيد الدين: المصدر نفسه، ص٣١٧– ٣١٨؛ مصطفى حسين: المرجع نفسه، م٢ ، صـ٦٢١.

(٤) رشيد الدين: المصدر السابق، ص٣١٣– ٣١٤.

كما خفّف السلطان غازان الضرائب والرسوم الجمركية بحيث لا يؤخذ من القافلة عن كل أربعة من الدواب المحمّلة، وعن كل جملين محمّلين، أكثر من نصف درهم، أما الدواب غير المحمّلة، وما يُنقل من المأكولات والغلال، فلا يؤخذ عنها شيء[1].

المبحث الرابع: السياسة المالية المغولية في بغداد والعراق

لم يكن متوقعا من الغزاة المغول اتباع سياسة مالية أو اقتصادية تراعي أوضاع الناس في البلاد التي استولوا عليها؛ بل كان أولئك الغزاة – كغيرهم من المحتلين لأي بلد من البلدان– يسعون بكل طاقتهم منذ البداية للاستيلاء على الأموال بأي وسيلة من الوسائل، فاتبعوا سياسة البطش والمصادرات وفرض الضرائب جزافا على الرعايا بغض النظر عن مدى استطاعتهم الوفاء بما يُقرَّر عليهم، وقد استعملوا لبلوغ مآربهم صنائعهم من العمال وبخاصة الإيرانيين الملازمين لخدمتهم.

إنّ الناظر للتاريخ الاقتصادي للعراق منذ سقوط بغداد في أيدي المغول وعلى مدى العقود الأربعة التالية في العهد الإيلخاني، يمكنه أن يتبين من خلال ما ذكره المؤرخون أنّ الحياة الاقتصادية كانت في تراجع واضطراب في معظم هذه الفترة.

ومما لا شك فيه أنّ السياسة المالية المغوليّة في بغداد والعراق يمكن أن تتضح من خلال تناول النظام النقدي الإيلخاني وما يتعلق به من إجراءات ونتائج اقتصادية على المجتمع العراقي بالدراسة المفصلة، وذلك على النحو التالي:

النظام النقدي الإيلخاني:

من خلال ما ورد في المصادر يمكننا أن نتبين أن النظام النقدي الإيلخاني في الدولة الإيلخانية وولاياتها –ومنها ولاية بغداد– مرّ بمرحلتين رئيستين: الأولى مرحلة ما قبل عصر الإصلاحات الكبرى، والثانية: مرحلة عصر الإصلاحات الكبرى. وفيما يلي عرض لملامح المرحلتين وأبرز الإجراءات المالية فيهما:

---

(1) رشيد الدين: جامع التواريخ (تاريخ غازان خان)، الترجمة العربية، ص٣١٧؛ مصطفى حسين: الدور السياسي والحضاري للوزراء زمن المغول الإيلخانيين في إيران، م٢، صـ٦٢٢.

أولا: مرحلة ما قبل عهد الإصلاحات الكبرى

كان التعامل في العراق خلال السنوات الأخيرة من العصر العباسي يعتمد أساسا مزدوجا هو الدينار الذهبي والدرهم الفضي، وكان الدينار يساوي مثقالا من الذهب، والدرهم سبعة أعشار المثقال من الفضة، وهذا هو الوزن الشرعي لهما، لكن النسبة كانت تتأرجح بين العملتين من العشرة إلى الاثنى عشر درهما لكل دينار، غير أنها كانت أكثر استقرارا حول الرقم الأخير(١)، والظاهر أن سبب ذلك يعود إلى نقص كميات الذهب والفضة في السوق واضطراب الأحوال السياسية والاقتصادية التي ربما كان الخطر المغولي أحد أسبابها(٢).

وفي العهد الإيلخاني بوجه عام ظل التعامل في العراق في ذات الحال التي كان عليها في أواخر العهد العباسي، على أساس الدينار الذهبي والدرهم الفضي وأجزائهما، وكذلك الفلس وهو عملة نحاسية صغيرة(٣).

وقد أبقى الإيلخانيون المغول في المرحلة الأولى التي تشمل عهود هولاكو خان ثم آباقا خان بن هولاكو ثم أحمد تكودار بن هولاكو ثم أرغون بن آباقا ثم گيخاتو خان ابن آباقا، ثم بايدو خان بن طراغاي، أقول: أبقوا على النظام النقدي الذي كان سائدا في زمن الخلفاء العباسيين على ما كان عليه فلم يُحدثوا إلا بعض التغييرات الطفيفة التي لم تؤثر على السياسة المالية العامة، غاية ما هنالك أنهم ضربوا دنانير ودراهم بأسماء ملوكهم كالخاقان المغولي منكو قاآن ثم هولاكو خان فمن بعده.

وبالرجوع إلى المصادر نجد بعض الإجراءات المالية التي كانت تهدف إلى مواجهة الفقر وإحداث شيء من الرواج الاقتصادي في الأسواق في تلك المرحلة، وتمثل هذا في سكّ عملة جديدة تناسب الفئات الفقيرة بين الحين الآخر، ومن تلك الإجراءات ما يلي:

---

(١) خصباك: العراق في عهد المغول الإيلخانيين، صـ١٢٠.

(٢) خصباك: المرجع السابق، صـ١٢٠.

(٣) المرجع السابق، صـ١٢٢.

١- في سنة٦٦٦هـ (١٢٦٧م) أمر علاء الدين عطا ملك بن محمد الجويني صاحب ديوان العراق بضرب فلوس من المسّ -وهو النحاس- ليتعامل بها الناس ببغداد وغيرها، تؤخذ كل أربعة وعشرين فلسا منها بدرهم وكل خمسة أرطال بدينار[١].

٢- في سنة ٦٨٢هـ/ ١٢٨٣م أُبطلت الفلوس النحاسية وضربَ عوضا عنها فلوس من فضة قيل لها "دناكش"، كل اثني عشر فلسا منها بدرهم، غير أنها لم تلق رواجا ولا قبولا فصدرت الأوامر بإبطالها فأُبطلت في السنة التالية وأعيدت الفلوس النحاسية من جديد، وتعامل الناس بها كل ثلاثين فلسا بدرهم[٢].

٣- في سنة ٦٨٤هـ/ ١٢٨٥م ضربت دراهم جديدة صدر الأمر بالتعامل بها عددا مثل الدراهم الأبغانية[٣] نسبة إلى السلطان آباقا خان بن هولاكو، الذي تذكره بعض المصادر العربية باسم "أبغا" خان.

٤- في سنة ٦٨٤هـ/ ١٢٨٥م أيضا أُجري تعديل مهم في الوظائف المالية الديوانية بالعراق؛ فقد نُقل سعد الدين مظفر بن المستوفي القزويني من منصب الإشراف على ديوان العراق إلى منصب "كاتب سلة بغداد"، أما الإشراف على الديوان -وهو منصب مالي رفيع له تأثير قوي في السياسة المالية والنقدية- فقد عُهد به إلى الأمير تاج الدين علي جليبان، فأمر المشرف الجديد بإبطل الدراهم المتداولة دون أن يُذكر سببٌ واضح لاتخاذ هذا الإجراء، لكن هذا القرار أفضى إلى نتائج سلبية أدّت إلى اضطراب أحوال الناس وبطلت معايشهم وتضرّرت الأسواق، فضُربت دراهم أخرى لحلّ الأزمة، سعرها ثمانية مثاقيل بدينار، مع أن المعتاد أن الدرهم يساوي سبعة أعشار المثقال، لكن هذا التخبط أفضى إلى تذبذب السعر بين عشرة مثاقيل بدينار واثني عشر مثقالا بدينار، فخسر الناس نتيجة لذلك

---

(١) ابن الفوطي: الحوادث الجامعة، صـ٣٥٨؛ خصباك: المرجع السابق، صـ١٢٢.

(٢) ابن الفوطي: المصدر السابق، صـ٤٣٠- ٤٣١؛ خصباك: المرجع السابق، صـ١٢٢.

(٣) ابن الفوطي: المصدر السابق، صـ٤٤٦؛ خصباك: المرجع السابق، صـ١٢٢.

كثيرا من أموالهم وبضائعهم، ثم ضُرب في بقية السنة دراهم مثل الأبغانية، وتُقُدِّم بأن يتعامل الناس بها عددا كما تعاملوا بالأبغانية(١).

ويذكر القلقشندي نقلا عن ابن فضل الله العمري في "مسالك الأبصار"، والعمري عاصر أواخر العصر الإيلخاني، أن ببغداد نوعين من الدينار، أولهما: يسمّى العوال وهو يعدل اثني عشر درهما كل درهم بقيراط وحبتين، وذلك أن الدينار عشرون قيراطا، كلّ قيراط ثلاث حبات، وكل حبة أربعة فلوس من الدرهم النقرة، عن كل فَلْسٍ فَلْسان أحمران. والنوع الثاني هو الدينار المرسل وكان يساوي عشرة دراهم، وكانت به أكثر مبايعات ومعاملات أهل بغداد وتجّارها(٢).

٥- العملة الورقية "**الچاو**": كان من أبرز الإجراءات المالية النقدية التي شهدتها مرحلة ما قبل عصر الإصلاحات الكبرى في الدولة الإيلخانية إصدار عملة ورقية تسمى "الچاو" لمواجهة أزمة مالية طاحنة كانت محصلة لتخبط السياسة النقدية وسوء السياسة المالية والاقتصادية بوجه عام في معظم فترات العقود الأربعة التي أعقبت سقوط بغداد في أيدي المغول.

وهذه الأزمة المالية الحادة تعرضت لها البلاد نتيجة لأسباب قويّة منها الوباء الذي انتشر عندئذٍ بين قطعان الأغنام والماشية في بلاد المغول، فكانت النتيجة أن نفق أكثرها، وخصوصا في ديار بكر والموصل وبغداد وخراسان(٣)، وإلى جانب ذلك كانت هناك أسباب أقوى في مقدمتها إسراف الإيلخان گيخاتو خان وانصرافه إلى الخمر والملذات، وسوء تدبير

---

(١) ابن الفوطي: المصدر نفسه، صـ٤٤٦؛ خصباك: المرجع نفسه، صـ١٢٢- ١٢٣.

(٢) ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار، نقلا عن: القلقشندي: صبح الأعشى، جـ٤، صـ٤٢٢؛ خصباك: العراق في عهد المغول الإيلخانيين، صـ١٢٢.

(٣) راجع: ميرخواند: مير محمد بن سيد برهان الدين خواوندشاه الشهير بـ"ميرخواند": تاريخ روضة الصفا، جلد پنجم، از انتشارات كتابفروشيهاى مركزى وخيام وپيروز، تهران، ارديبهشت ماه، ١٣٣٩هـ. ش، جـ٥ صـ٣٦٨؛ آيتى: عبد المحمد: تحرير تاريخ وصاف، از انتشارات بنياد فرهنگ ايران، چاپخانـهٔ علمى، خرداد ماه ١٣٤٦هـ.ش، صـ١٦٤؛ مصطفى حسين: الدور السياسي والحضاري للوزراء زمن المغول الإيلخانيين في إيران، م٢ ، صـ٤١٥.

وزيره صدر الدين أحمد الخالدي الزنجاني الملقب بـ"صدر جهان"[١]، وعدم التوازن بين دخل الدولة الذي قُدِّر آنئذٍ بمبلغ ١٨٠٠ تومان أي ما يعدل ١٨ مليون دينار، ووجوه الإنفاق أو الخرج المطلوبة[٢].

وكذلك تفشي الربا والرشوة في المجتمع الإيلخاني وولايات الدولة ومنها العراق وحاضرته بغداد[٣].

والچاو «عبارة عن قرطاس مختوم بخاتم الملك يُتعامل به في جميع بلاد الخِطَا[٤]، بدلا من الدراهم»[٥]، ويعرّفه برصوم الصافي – الذي أكمل كتاب أخيه المؤرخ ابن العبري–

---

(١) حول الوزير "صدر جهان" راجع ما سبق، الحاشية رقم (٢) ص٥٨.

(٢) راجع: شيرازى: شرف الدين عبد الله بن فضل الله معروف بـ"وصاف حضره": تجزية الأمصار وتزجية الأعصار، مشهور بـ"تاريخ وصاف"، طبع بمباى، ١٢٩٦هـ، صـ٢٧١؛ آيتى: تحرير تاريخ وصاف، صـ١٦٥؛ عباس اقبال: تاريخ مفصل ايران، م١، صـ٢٤٨، الترجمة العربية، صـ257؛ الصياد: الشرق الإسلامي في عهد الإيلخانيين، ص٢١٢. ويذكر المستشرق الإنجليزي هورث Howorth أنّ الدخل السنوي للخزانة بلغ ١٦٠٠ تومان (1600 tumans). راجع: History of the Mongols, London, 1878 ,vol. III, p.369 ؛ مصطفى حسين: الدور السياسي والحضاري للوزراء زمن المغول الإيلخانيين في إيران، م٢، صـ٤١٨.

(٣) للمزيد حول تلك الأزمة المالية راجع: مصطفى حسين: المرجع السابق، صـ٤١٥– ٤٢٧.

(٤) الخِطَا جنس من الترك بلادهم متاخمة لبلاد الصين. (القلقشندي: صبح الأعشى، جـ٤، ص٤٨٣) وبلاد الخِطَا هي القسم الشمالي من الصين، وقد استولى عليها المغول في أوائل عهد أوگتاي قاآن. راجع: علاء الدين الجويني: تاريخ جهانكشاي، م١، صـ١٥٠ فما بعدها، الترجمة العربية، م١ جـ١، صـ١٨١ فما بعدها؛ رشيد الدين: جامع التواريخ (تاريخ خلفاء جنگيز خان، الترجمة العربية، صـ١٠ من المقدمة، صـ٣٧ فما بعدها)

(٥) رشيد الدين: جامع التواريخ، م٢ ، جـ٢، الترجمة العربية، صـ١٨١.

بأنّه «رقع من القراطيس ذات علامة حمراء»[١]، في حين يعرّفه ابن الفوطي بأنه «كَاغِد[٢] عليه تمغة السلطان عوض السكة على الدنانير والدراهم»[٣].

أما عن فئات العملة الورقية المستحدثة "الچاو" فكانت –على الرأي الأرجح– تتفاوت بين نصف درهم وعشرة دنانير كما ذكر المؤرخ الفارسي المعاصر للأحداث وصاف الحضرة[٤]، وإلى الرأي ذاته ذهب هنري هورث وإدوارد براون وعباس إقبال وغيرهم[٥]، وزاد

---

(١) ابن العبري: أبو الفرج جمال الدين غريغوريوس الطبيب الملطي: تاريخ الزمان، نقله إلى العربية الأب إسحق أرملة، دار المشرق، بيروت، لبنان، سنة ١٩٩١م، الترجمة العربية، صـ٣٦٩. وقد توفي المصنِّف سنة ٦٨٥هـ فأتم أخوه برصوم الصافي كتابه فيما يتعلق بما تلا هذه السنة من أحداث.

(٢) "كَاغَذْ"، أو "كَاغَذ": كلمة فارسية تعني ورقة أو قرطاس أو خطاب، وقد عرّبت بصورتها الأولى مع كسر الغين. هنداوي: محمد موسى: المعجم في اللغة الفارسية، تقديم الدكتور عبد الوهاب عزام، الطبعة الثانية، مكتبة الأنجلو ودار مطابع الشعب، سنة ١٣٨٤هـ/ ١٩٦٥م، صـ٣٣٤؛ محمد ألتونجي: معجم المعرّبات الفارسية منذ بواكير العصر الجاهلي حتى العصر الحاضر، راجعه الدكتور السباعي محمد السباعي، الطبعة الثانية، مكتبة لبنان، بيروت، سنة ١٩٩٨م، صـ١٥١، راجع أيضا: شتا: المعجم الفارسي الكبير، م٢ ، صـ٢١٦٣؛ مصطفى حسين: الدور السياسي والحضاري للوزراء زمن المغول الإيلخانيين في إيران، م٢، صـ٤٢٨– ٤٢٩.

(٣) الحوادث الجامعة، صـ٤٧٧.

(٤) عبد الله الشيرازي: تاريخ وصاف، صـ٢٧٢؛ آيتى: تحرير تاريخ وصاف، صـ١٦٦؛ عودة: فاطمة نبهان: تاريخ وصاف ومكانته بين المصادر الفارسية في التاريخ الإسلامي مع ترجمة الجزء الثالث، رسالة دكتوراه في اللغة الفارسية وآدابها، من كلية الآداب جامعة عين شمس، سنة ١٤١٢هـ/ ١٩٩١م، صـ٣٧٢.

(5) Howorth, History of the Mongols, Vol. III, P. 370,
Browne. E.G.: A History of Persian Literature under Tartar Dominion. Cambridge, 1920, Vol. III, P. 37 ;
عباس اقبال: تاريخ مفصل ايران، م١ ، ص٢٤٩، الترجمة العربية، ص258؛ الصياد: الشرق الإسلامي في عهد الإيلخانيين، ص٢١٥؛ صبري سليم: الصراع السياسي والمذهبي بين الشيعة والسنة، ص٣٩١؛ مصطفى حسين: الدور السياسي والحضاري للوزراء زمن المغول الإيلخانيين في إيران، م٢، صـ٤٣٩– ٤٤٠.

ابن الفوطي فئة الربع درهم فذكر أن الچاو «كان من عشرة دنانير إلى دون ذلك حتى ينتهي إلى درهم ونصف وربع»(١).

فشل الچاو ونجاة بغداد منه:

باءت تجربة الچاو بالفشل نتيجة لأسباب عدة منها عدم مراعاة التدرج في وضع عملة جديدة، ومنها فرضها على الناس بالقوة، ومنها شروع الدولة في الاستيلاء على ما في أيدي الناس من الذهب والفضة دون وجه حق، إلى غير ذلك من الأسباب(٢)، وهكذا كاد الخراب يعم البلاد الإيلخانية بسبب تلك البدعة النقدية، وتوقفت المعاملات واضطربت الأمور حتى بالغ بعض المؤرخين فقال إن العاصمة الإيلخانية تبريز خلت من سكانها،(٣) أما ولاية بغداد فقد حُمل إليها عدة أحمال من الچاو صحبة أحد أمراء المغول، وهو الأمير "لگزي ابن أرغون آقا"، فلما عرف أهل بغداد أنه في طريقه إليهم، وعلموا ما أصاب تبريز من الغلاء والجوع وفقدان الأمن نتيجة لنشر الچاو بها، استعدوا بجلب الأقوات وتخزينها، لكن گيخاتو خان لما عاين خراب البلاد ورأى بوادر الثورة وحوصر بضغط أمرائه ونصحهم أصدر قرارا بإبطال التعامل بالچاو قبيل وصول لگزي إلى بغداد، فكفى الله الناس شرّه(٤).

---

(١) الحوادث الجامعة، ص٤٧٧؛ عباس العزاوي: تاريخ النقود العراقية لما بعد العهود العباسية من سنة ٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م إلي سنة ١٣٣٥هـ/ ١٩١٧م، طبع شركة التجارة والطباعة، الصالحية، بغداد، سنة ١٣٧٧هـ/ ١٩٥٨م، صـ٣٣. وللمزيد حول الچاو في دولة الخاقان الأعظم للمغول راجع: ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، جـ 3 ، ص134- 135؛ القلقشندي: صبح الأعشى، جـ٤، صـ٤٨٤.

(٢) حول أسباب فشل الچاو راجع: مصطفى حسين: الدور السياسي والحضاري للوزراء زمن المغول الإيلخانيين في إيران، م٢، صـ٤٥٥- ٤٥٨.

(٣) رشيد الدين: جامع التواريخ، م٢، جـ٢، الترجمة العربية، صـ١٨٣؛ مصطفى حسين: المرجع السابق، م٢، صـ٤٤٩- ٤٥٠.

(٤) ابن الفوطي: الحوادث الجامعة، صـ٤٧٧؛ الصياد: الشرق الإسلامي في عهد الإيلخانيين، صـ٢١٩؛ مصطفى حسين: الدور السياسي والحضاري للوزراء زمن المغول الإيلخانيين، م٢، صـ٤٥٢.

النتائج الاقتصادية لمرحلة ما قبل عهد الإصلاحات الكبرى

أفضت الإجراءات المالية التي أجرتها الحكومة الإيلخانية على النظام النقدي في ولاياتها وبخاصة ولاية بغداد إلى عدة نتائج كان من أبرزها:

١- ارتفاع الأسعار وانتشار الفقر والمرض: ومن شواهد ذلك ما ذكره ابن الفوطي في حوادث سنة ٦٨٤هـ في معرض سرده لبعض الإجراءات المالية النقدية التي أجراها القائمون على ديوان بغداد إذ يقول: « وأُبطلت الدراهم وتعطلت أمور العالم لذلك وبطلت معايشهم... واختلفت قيمة الدراهم الأولى... فذهب من الناس شيء كثير، ثم ضرب في بقية السنة دراهم مثل الدراهم الأبغانية ... ثم غلت الأسعار فبلغ الكرّ من الحِنطة مائة وثمانين دينارا وكر الشعير مائة دينار، وبيع الخبز ثلاثة أرطال بدرهم، ووصل من الموصل دقيق وخبز مرقق بيع في الحجر، خبز ولا جلب إلى بغداد إلا بعد الواقعة»[١]، يعني واقعة غزو المغول بغداد بقيادة هولاكو.

ويقول أيضا في حوادث السنة نفسها: «وباع القوم الضعفاء أولادهم، وألقت امرأة نفسها إلى دجلة، قيل إنها كانت على الجسر تطلب فلم يعطها أحد شيئا فآثرت إتلاف نفسها، وأكل الناس ورق الجزر والسلجم والبصل ونبات الأرض كعروق القصب والبردي والحلفاء وغيرها، وانقضت السنة والناس على ذلك، ولقوا شدة عظيمة من الغلاء وكسر الدراهم»[٢].

ويقول أيضا في حوادث السنة التالية: «وكانت الأسعار في هذه السنة على ما كانت عليه في السنة الخالية والضعفاء في ويل عظيم من تعذّر القوت، وكثُرت الأمراض ببغداد والموت، ولطف الله بخلقه، فتراخت الأسعار في جمادى الأولى ورخصت الأشياء في آخر السنة»[٣].

---

(١) الحوادث الجامعة، صـ٤٤٦.

(٢) المصدر السابق، صـ٤٤٧.

(٣) المصدر نفسه، صـ٤٤٩.

٢- كساد التجارة داخليا وخارجيا واضطراب أحوال الأسواق.

٣- ظهور بوادر الفتن والثورات: ومن شواهد ذلك ما حدث من في أعقاب محاولة الدولة فرض العملة الورقية المستحدثة والمسماة الجاو بالقوة على الرعية بطريقة كادت تفضي إلى خراب البلاد واندلاع ثورة عارمة لولا تراجع الإيلخان كيخاتو خان ووزيره صدر جهان الزنجاني.

مرحلة عصر الإصلاحات الكبرى (عهد غازان وأولجايتو وأبي سعيد)

انطلقت في أوائل عهد السلطان محمود غازان خان (٦٩٤- ٧٠٣هـ) بفضل إسلامه وحسن دراية وتدبير وزيريه سعد الدين الساوجي ورشيد الدين الهمذاني، نهضة شاملة في النواحي الإدارية والاقتصادية والاجتماعية والعمرانية، وقد عمت هذه النهضة كافة الولايات الإيلخانية ومنها ولاية بغداد، وما يعنينا من تلك النهضة ما يتعلق منها بالنظام النقدي، ونعرض لذلك يما يلي:

إصلاحات النظام النقدي

من أهم الإصلاحات الاقتصادية التي قامت بها الدولة في ظل عهد غازان خان ووزيريه سعد الدين الساوجي ورشيد الدين الهمذاني إصلاحات النظام النقدي فقد اتجهت الدولة نحو سياسة نقدية جديدة تختلف شكلا ومضمونا عما كان معتمدا في العهود السابقة.

كان النظام النقدي القديم لا يزال حتى عهد غازان خان عرضة للغش والفساد وتعدد العيارات والصور، وعلى الرغم من صدور بعض المراسيم بين الحين والآخر في عهدي أرغون خان وگيخاتو خان بشأن ضبط عيارات سكِّ العملة، وتوحيد عيار الذهب والفضة

في كافة الولايات الإيلخانية ومنها ولاية بغداد والعراق العربي، إلا أنّ هذه المراسيم كانت صورية فقط[١].

يقول رشيد الدين: «وحتى ذلك الوقت (يعني أوائل عهد غازان خان) كانت السكة تضرب في بلاد الروم وفارس وكرمان وجورجيا وماردين بأسماء املوك والسلاطين هناك وبعيارات مختلفة، وفي عدة مواضع في عهد رغون خان وكخاتو خان صدر مرسوم يقضي بأن تضرب هناك سكة الفضة ذات عشرة عيارات بتسعة عيارات، وكان هذا من الناحية الاسمية فقط؛ إذ الواقع أنّ العشرة عيارات لم تزد عن سبعة عيارات أو ثمانية، والعملة الرومية التي كانت أحسن بالنسبة إلى غيرها من المواضع الأخرى وصلت إلى حد أنّ عيار الفضة فيها لم يزد عن دينارين في كل عشرة دنانير، وكانت البقية كلها نحاسا»[٢].

وقد بلغ من الإهمال والفساد أنّ المكلّفين بفحص العيار ومراقبة عمليات سك النقود، من رسل المغول العسكريين ومعاونيهم من العمال والكتاب الإيرانيين، كانوا جميعا يذهبون مرارا إلى الولايات بناء على أمر المراسيم الإيلخانية، وينفقون أموالا ضخمة للسفر والإقامة وغيرها، دون أن يؤدوا واجبهم أو يتداركوا الخلل بعقاب المجرمين الذين يزيفون النقود ويتلاعبون بعيارها[٣]، بل إنهم لم يستحوا من أن يسكوا عملات زائفة تبدو نحاسية دون أن يظهر فيها أي أثرأو زيادة تذكر من الفضة[٤].

وحينما جاء عهد غازان خان اتخذت الدولة بفضل جهود السلطان المسلم ووزيريه سعد الدين الساوجي ورشيد الدين الهمذاني إجراءات ناجحة بشأن إصلاح النظام النقدي في إيلخانية إيران، وبطبيعة الحال تمت تلك الإجراءات في ولاية بغداد والعراق العربي، وكان على رأسها تخليص عيار الذهب والفضة من الغش والشوائب، فقد صدرت الأوامر بتصفية

---

(١) رشيد الدين: جامع التواريخ (تاريخ عازان خان)، الترجمة العربية، صـ٣١٩؛ الصياد: الشرق الإسلامي في عهد الإيلخانيين، صـ٣١٩.

(٢) جامع التواريخ (تاريخ غازان خان)، الترجمة العربية، صـ٣١٩.

(٣) المصدر السابق، صـ٣١٩؛ مصطفى حسين: الدور السياسي والحضاري للوزراء زمن المغول الإيلخانيين في إيران، م٢، صـ٥٨٣.

(٤) جامع التواريخ (تاريخ غازان خان)، الترجمة العربية، صـ٣١٩.

الذهب والفضة من الغش[١]، كما صدر قرار يقضي بضرب نقود من الذهب الخالص، ومن الفضة الخالصة التي يمكن معرفة ما قد يداخلها من تخليط بعدة وسائل[٢] كما صدر قرار يقضي بتجريم تزييف النقود[٣]، كما تم توحيد عيار الضرب في كافة ولايات الدولة ومنها ولاية بغداد، وصدرت الأوامر بسحب المسكوكات القديمة من الناس وإعطائهم مسكوكات صحيحة الوزن والعيار بنسبة استبدال مرضية، وبتثمين مناسب، كما صهرت المسكوكات القديمة، وتم سكّ عملات جديدة بأوزان وعيارات ثابتة، وبقيم متفاوتة تناسب الكافة، ووفقا لمؤرخ العراق ابن الفوطي ففي حوادث سنة ٦٩٨هـ، قرر غازان خان أن «تُضرب الدراهم متساوية الوزن ليتعامل بها الناس عددا، ويكون وزن الدرهم نصف مثقال، وعُملت دراهم وزن الدرهم منها ثلاثة مثاقيل، ومثقال يخرج بنسبة ذلك، ويكون كل مثقال من الذهب بأربعة وعشرين درهما، وضُرب من الذهب أشياء مختلفة الوزن: خمسة مثاقيل، وثلاثة مثاقيل، ومثقالان، ومثقال، ونصف مثقال، وربع مثقال، وأمر بأن يُعمل ذلك في جميع الممالك، فعُمل وانتفع الناس به»[٤].

وبالإضافة إلى ما سبق، فقد وُضعت على السكة علامة خاصة يصعب تزويرها، ونُقش عليها اسم الله تعالى، والرسول ﷺ، والإيلخان، وتم ترويجها في أنحاء البلاد[٥]، وكذلك سُكّت عملة جديدة تزن الواحدة منها مائة مثقال من الذهب الخالص، ونقش اسم غازان عليها بخطوط كل الولايات، كما نقشت عليها آيات من القرآن الكريم، وأسماء الأئمة الإثنى عشرية، ولما كانت هذه العملة في غاية الجودة واللطف، فقد كان من حصل عليها

---

(١) ابن الفوطي: الحوادث الجامعة، صـ٤٩٨؛ عباس الغزاوي: تاريخ النقود العراقية، صـ٥٢.

(٢) رشيد الدين: جامع التواريخ (تاريخ غازان خان)، الترجمة العربية، صـ٣٢١؛ مصطفى حسين: المرجع السابق، م٢، صـ٥٨٤.

(٣) رشيد الدين: جامع التواريخ (تاريخ غازان خان)، الترجمة العربية، صـ٣٢٢.

(٤) الحوادث الجامعة، صـ٤٩٨، عباس الغزاوي: تاريخ النقود العراقية، صـ٥٢.

(٥) رشيد الدين: جامع التواريخ (تاريخ غازان خان)، الترجمة العربية، صـ٣٢٠- ٣٢١.

حريصا على الاحتفاظ بها[١]، وعلى الرغم من شهرة تلك العملة في المصادر فإنه لم يُعثر بعد على نموذج منها[٢].

ونتيجة للإجراءات السابقة، راجت السكّة الجديدة في البلاد الإيلخانية، وانقرضت العملات المغشوشة، وذلك في عام واحد منذ أن بدأ تنفيذها سنة ٦٩٨هـ، وكان لذلك كله أثر بالغ في تنشيط التجارة وتيسير حال الناس، وخاصة التجار الذين شرعوا يتاجرون مطمئنين[٣]، ووفقا لشهادة المؤرخ رشيد الدين الهمذاني فإنه « لما صار النقد متساويا في كل البلاد استراح الناس، وأخذ التجار يستبدلون الأمتعة بالنقود التي كانوا يدخرونها، والآن (يعني في زمنه) يحملون أنواع البضائع إلى كل بلد، وقد رخصت أسعارها، وتمتع جميع الناس بفوائدها، وانتشر اسم سلطان الإسلام (يعني غازان) خلد سلطانه، وذاع بالاستحسان والثناء »[٤].

المبحث الخامس: الضرائب والمصادرات وأثرهما على الحياة الاقتصادية في بغداد

من أبرز القضايا ذات الأهمية الكبرى والتأثير القوي على الحياة الاقتصادية في العراق عامة وبغداد خاصة بعد الغزو المغولي الضرائب والمصادرات؛ فقد تنوعت أصناف الضرائب وتشعبت من قبل الحكومة الإيلخانية إلى حدٍّ لافت للنظر، كما كان أداؤها شديد الصعوبة على الرعايا من جانب، ومعرضا للتلاعب والاختلاس والتهرب من جانب العمال والولاة وأتباعهم من جانب آخر، وهذا جعل الدولة تلجأ إلى سياسة المصادرة في قسوة وبطش بحق وبغير حق.

ويمكن تناول هذا المبحث بالدراسة من زاويتين: الأولى الضرائب، والثانية المصادرات. وهذا على النحو التالي:

---

(١) رشيد الدين: المصدر السابق، صـ٣٢٣.

(٢) برتولد شبولر: تاريخ مغول در ايران، صـ١٩٤– ١٩٥.

(٣) خواندمير: تاريخ حبيب السير، م٣ ، جـ١، صـ١٧٤.

(٤) جامع التواريخ (تاريخ غازان خان)، الترجمة العربية، صـ٣٢٣.

أ- الضرائب

ورث المغول من الحكومات السابقة والكيانات السياسية التي قضوا عليها واستولوا على أراضيها النظم المالية التي كانت سائدة فيها، وقد برز ذلك واضحا فيما أقروه في العراق وبغداد بعد الخلفاء العباسيين؛ فقد أخذوا نظام الضرائب واعتمدوا معظم الضرائب التي كان يحصلها الخلفاء العباسيون من رعيتهم.

وعلى هذا فقد كانت معظم ضرائب العصر الإيلخاني «استمرارا للضرائب العباسية، حتى إننا لا نجد ضريبة إيلخانية إلا ولها سابقة في عهدٍ ما من العهود العباسية، ولكنّ الضرائب الإيلخانية كانت أكثر ثقلا وخضوعا لأهواء الحكام وجشعهم الذي لم يعد له حدود، وقد وردتنا أكثر الضرائب الإيلخانية تحت الأسماء الآتية: ضريبة الأرض أو الخراج، وضريبة الرؤوس، وضريبة البيوت والعقارات، وضرائب الأسواق، والتمغات، والقبجور أو ضريبة المراعي، وحصة الديوان من الأوقاف، وما كانت تحصل عليه الحكومة من غش النقود ومصادرة الموظفين، وأخيرا ما كان ينفقه أصحاب الدور على الجنود الذين كنت تفرض إقامتهم عليهم أحيانا»[1].

ولم تكن الضرائب التي وضعها الخلفاء العباسيون كلها ضرائب شرعية بل كان بعضها شرعيا كالخراج والجزية والصدقات والعشر المأخوذ من التجارة، وبعضها غير شرعي كضرائب الأسواق والحوانيت والضرائب التجارية والإضافات على الضرائب الشرعية.

وبالنسبة للمغول، فبطبيعة الحال لم يكن يشغلهم أو يعنيهم التمييز في الضرائب بين ما هو شرعي وما هو غير شرعي، بل كان همهم تحقيق المكاسب المالية أيا كانت متبعين كافة الوسائل التي توفر لهم المزيد من الأموال[2]، وقد استعانوا في ذلك بعمال من أهل البلاد، ذوي خبرة ودراية بأنواع الضرائب وطرق جبايتها، وعلى هذا الأساس يمكن تبيُّن قسمين من الضرائب التي أقرّها المغول في بغداد كما يلي:

---

(١) خصباك: العراق في عهد المغول الإيلخانيين، صـ١١١.

(٢) انظر: القزاز: الحياة الساسية في العراق في عهد السيطرة المغولية، صـ٢٥٢- ٢٥٣.

أولا: الضرائب العباسيّة المعتادة وهي:

ضريبة الخراج

كان الخراج هو الضريبة الرئيسة التي تفرضها الدولة الإسلامية في مختلف عصورها الراشدية والأموية والعباسية، ولا سيما في البلدان الزراعية كالعراق الذي كانت الزراعة فيه المصدر الأول للثروة العامة؛ ولذلك كثر اهتمام الدولة به وتأكيدها عليه في مختلف العهود، وقد صارت معظم بلاد العراق خراجية في أواخر العهد العباسي وكان الخراج يجري تبعا للمساحة، ثم أصبح بنظام المقاسمة منذ أيام الخليفة المهدي، وحينما جاء الخليفة المأمون جعل مقاسمة أهل السواد بمقدار الخُمسين بعد أن كانت النصف في عهد الخليفة هارون الرشيد(١).

ولأنّ ضريبة الخراج كانت الأهم بين كافة أنواع الضرائب، فقد كان طبيعيًّا أن يستمر الاهتمام بها في عهد المغول بعد العباسيين؛ فهناك روايات عديدة تشير إلى أنّ المغول الإيلخانيين أبقوا على تلك الضريبة متبعين النظام العباسي نفسه في تقديرها وطريقة استيفائها، مع ملاحظة نوع الأرض المفروضة عليها تلك الضريبة(٢).

ومن المؤكد أنّ عمال المغول كانوا يتلاعبون في مقدار تلك الضريبة وفقا لأهوائهم وإرضاء للسلاطين وأعوانهم من الأمراء، ومن ذلك ما ورد من أنّ جمال الدين الدستجرداني أحد وزراء المغول الإيلخانيين(٣) ضاعف تلك الضريبة على الرعية في العراق، كما فعل

---

(١) خصباك: المرجع السابق، صـ١٠٩.

(٢) الفيل: الجغرافية التاريخية للعراق بين الفتح المغولي والفتح العثماني، صـ١٩٩؛ نقلا عن القزاز: الحياة السياسة في العراق في عهد السيطرة المغولية، صـ٢٥٤.

(٣) هو الصاحب جمال الدين أبو الحسن علىّ بن محمد بن منصور الدَّسْتجِرْدِيّ أو الدَّسْتجِرْدَانِيّ، نسبة إلى "دستجرد"، وهي إحدى بلاد العراق ويقال لها "الدّسكرة"، وتقع في الناحية الشمالية الشرقية من بغداد على مقربة من مدينة حلوان. (لسترنج: بلدان الخلافة الشرقية، الترجمة العربية، صـ٨٦)، وهو الوزير العراقي الوحيد بين الوزراء الإيلخانيين الذين كان أغلبهم إيرانيين، وقد انتقل إلى مدينة بغداد مبكرا، واشتغل بتحصيل العلوم حتى أصبح من العلماء المحققين في العلوم العقلية والنقلية، وبلغ الغاية في معرفة الحساب والاستيفاء، فتولى عدة وظائف منها==

ذلك أيضا صدر الدين أحمد الخالدي الزنجاني الذي تولى وزارة المغول الإيلخانيين أيضا[١].

وقد أورد مؤرخ العراق كمال الدين عبد الرازق ابن الفوطي بعض التفاصيل القيمة عن سياسة الوزير جمال الدين الدستجرداني في تحصيل ضريبة الخراج؛ إذ يشير إلى أن الدستجرداني بلغ من قسوته على أهل بغداد أنّه أمر باستيفاء مقداره بالذهب الأحمر، غير أنّ السلطان غازان خان ألغى هذا الإجراء تخفيفا على الرعية وأعاد الأمر إلى ما كان.

يقول ابن الفوطي في حوادث سنة ٦٩٦هـ: «وأقام (أي السلطان غازان) بدار الخليفة أياما فتألم الناس من إلزامهم بالخراج ذهبا أحمر، وكان الدستجرداني قد استوفاه في السنة الماضية كذلك، وقال: "قد كانوا في زمن الخلفاء يؤدونه ذهبا"، فأضرّ بالناس ذلك، فأمر السلطان بإجرائهم على عادتهم منذ فُتحت بغداد، فتوفر عليهم شيء كثير»[٢].

ضريبة الجزية (ضريبة الرؤوس)

فُرضت هذه الضريبة منذ فجر الإسلام على أهل الذِّمّة من اليهود والنصارى، وكان يُطلق عليها أيضا ضريبة الرؤوس والضريبة الشخصيّة، وهي من الضرائب العباسية التي كانت تطبَّق في زمن الخلفاء، وكانت تعتبر ثمنا لحماية المسلمين لأهل الذمة، وتدرجت

== صدرية وقوف العراق العربي في عهد أرغون خان بن أباقا، ثم كتابة ديوان بغداد والعراق، ثم صحابة ديوان تلك الولاية، ثم ناصر الأمير بايدو بن طراغاي في ثورته على كيخاتو خان، وبعد استيلاء بايدو على العرش الإيلخاني سنة٦٩٤هـ/ ١٢٩٥م، كافأ الدستجرداني بمنصب الوزارة فتولاها مرتين، استغرقت الأولى عهد بايدو خان الذي لم يستمر سوى حوالي ستة أشهر من سنة ٦٩٤هـ، أما المرة الثانية فكانت في أوائل عهد غازان خان، ثم أفضى صراعه مع صدر جهان الزنجاني الطامع في الوزارة إلى مقتله في٢٨ من ذي الحجة سنة ٦٩٥هـ/ ١٢٩٦م وفقا لرواية رشيد الدين الهمذاني. للمزيد حول هذا الوزير ودوره راجع: مصطفى حسين: الدور السياسي والحضاري للوزراء زمن المغول الإيلخانيين في إيران، الفصل الخامس.

(١) راجع ما سبق في الحاشية رقم (٢) ص٥٨.

(٢) الحوادث الجامعة، ص٤٩٣، وانظر: مصطفى حسين: الدور السياسي والحضاري للوزراء زمن المغول الإيلخانيين في إيران، م٢، ص٤٩٠.

مقادير تلك الضريبة إلى ثلاث درجات وفقا لحالة الذمي وقدرته المالية؛ فالفقير يدفع اثني عشر درهما، ومتوسط الحال يدفع أربعة عشر درهما، والغنيّ ثمانية وأربعين درهما، وهذه المقادير تعدل في زمنها على الترتيب: دينارا واحدا وديناران و ثلاثة وأربعة دنانير[١].

ومن العجيب حقا أن المغول في حياتهم الأولى زمن جنكيز خان عرفوا ذلك النوع من الضرائب غير أنها لم تكن ذات وجهة دينية، وإنما كانت ضريبة شخصية تؤخذ على الأفراد، وهذا ما أشار إليه الرحالة ماركو بولو في رحلته فذكر أن الملك أونك خان الذي كان المغول يخضعون له قبل جنكيز خان كان يأخذ ضريبة عن كل فرد مقدارها العشر من كل شيء يملكونه[٢]، وقد ورث جنكيز خان وأبناؤه هذا النوع من الضرائب عن أونك خان وهناك شواهد على ذلك منها ما يشير إليه المستشرق مينورسكي حين يذكر أنّ أحد كبار قادة الجيوش المغولية –ويدعى جورماغون نويان– حينما دخل مدينة تبريز بإقليم آذربيجان جمع أشراف المدينة وفرض عليهم جزية سنوية يدفعونها لجند المغول[٣].

وقد حرص عمال المغول الإيلخانيين منذ استيلائهم على بغداد واستقرار الأوضاع بها على تنظيم عملية استيفاء ضريبة الرؤوس، يشهد على ذلك ما ذكره ابن الفوطي في حوادث سنة ٦٥٧هـ/ ١٢٥٩م، وهي السنة التالية لسقوط بغداد، إذ يقول: «وتُقُدِّم بجمع أهل بغداد وكُتبت أسماؤهم، وجُعل عليهم أمراء ألوف ومئات وعشرات، وقُرِّر على كل واحد منهم ما يؤديه في كل سنة على قدر حاله ما عدا الشيخ الكبير ومن هو غير بالغ، فما زالوا على ذلك إلى أن ولي الصاحب علاء الدين عطاملك الجويني العراق فأسقط ذلك عنهم»[٤].

---

(١) القزاز: الحياة السياسية في العراق في عهد السيطرة المغولية، ص٢٥٥.

(٢) ماركو بولو: رحلات ماركو بولو، ترجمها إلي الإنجليزية وليم مارسدن، وترجمها إلي العربية عبد العزيز جاويد، ثلاثة أجزاء، الطبعة الثانية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، سنة ١٩٩٥–١٩٩٦م، جـ١ صـ٧٨؛ القزاز: المرجع السابق، صـ٢٥٥– ٢٥٦.

(٣) مينورسكي: ترجمة المعارف الإسلامية، م٤، مادة "تبريز"، صـ٥٤٤؛ نقلا عن: القزاز: الحياة السياسية في العراق في عهد السيطرة المغولية، صـ٢٥٦.

(٤) الحوادث الجامعة، صـ٣٣٩.

الضريبة على التركات

ثمة بعض الإشارات في المصادر تؤكد وجود ضريبة التركات في العراق في العهد الإيلخاني، واعتمادا على تلك الضريبة كان يتم نقل إرث الميت الذي لا وارث له إلى خزانة الدولة، وبالنسبة للميت الذي له وارث فقد كان هناك مقدار يقتطع من التركة للدولة وقد ذكر علاء الدين الجويني صاحب ديوان العراق أنّه لما ولي أمر العراق في عهد هولاكو خان وجد ضريبة التركات تطبق على الناس فألغاها[١].

ويذكر ابن الفوطي أنه في سنة ٦٩٣هـ (١٢٩٣م) وصل إلى بغداد زين الدين محمد الخالدي ليتولى وظيفة قاضي القضاة ومتولي الوقوف والوكالة والتركات والمقاطعات والجوالي[٢]، وهذا يدل على أن ضريبة التركات وديوان الجوالي كانا من الأمور المعمول بها في العراق في العهد الإيلخاني.



ضريبة التمغا

كانت هذه الضريبة مجموعة من الرسوم المفروضة على التجارة الداخلية في المدن[٣]، وهناك إشارات عديدة تؤكد أن الحكومة الإيلخانية كانت تستوفي هذه الضريبة في بغداد عن طريق الضمان، فوظيفة ضامن تمغات بغداد كثيرا ما يتردد ذكرها لدى ابن الفوطي، وقد تولاها كثيرون منهم الزين الحظائري، الذي تعرض مرارا للضرب والعقوبة بسبب بقايا ضمان التمغات[٤]، وانتهى مصيره بالقتل.

---

(١) Ata Malik Juvaini, The History of the World conquerer, 2vols, translated by J.A. Boyle (Manchester University Press, 1958) vol. 1, p. 34.

(٢) ابن الفوطي: الحوادث الجامعة، صـ٤٧٨.

(٣) خصباك: العراق في عهد المغول الإيلخانيين، صـ١١٣.

(٤) الحوادث الجامعة، صـ٤٥٤، ٤٥٧، ٤٥٨.

ويرى عباس العزاوي أنّ ضريبة التمغات كانت توضع على الأموال التجارية الداخلية، وأنها اتخذت هذا الاسم بسبب السمة التي كانت توضع بدلها على الأموال وتسمى تمغا[١]، ويذكر بعض المستشرقين أنّ التمغا كانت ضريبة تؤخذ بنسبة ١/٢٤٠ من رأس المال[٢].

وهناك ضرائب أخرى تضاف إلى ما سبق ومنها حصة الحكومة من أموال الأوقاف؛ فابن الفوطي يذكر في حوادث سنة ٦٨٣هـ أنّ الحصة اليوانية في الوقوف حُذفت ووُفرت على أربابها[٣]، وهناك أيضا الضرائب المقررة على أماكن بيع الخمور ومحلات الفواحش[٤].

ثانيا: الضرائب الإيلخانية المستحدثة وهي:

ضريبة البيوت والعقارات

من الضرائب المستحدثة في العراق بعد سقوط بغداد في أيدي المغول ضريبة قُرّرت على البيوت والعقارات؛ ففي ذلك يذكر ابن الفوطي في حوادث سنة ٦٧٧هـ: أن علاء الدين عطا ملك الجويني صاحب ديوان العراق «أمر بإثبات الدور ببغداد، فأُثبتت جميعها، وطالبوا أربابها بالأجرة عنها عن شهرين»[٥]، وقد اقترنت المطالبات بتلك الضريبة غالبا بنوعين آخرين من الضرئب المستحدثة هما ضريبة المساعدة، وضريبة القرض على النحو التالي عرضه.

---

(١) تاريخ الضرائب العراقية، بغداد، ١٩٥٩م، صـ٣٥.

(٢) M.Minovy and V.Minorsky, Nasir Al-Din Tusi on Finance, Bulletin of the School of Oriental Studies, (University of London, 1940- 1942) Vol. 10, p.78.

(٣) الحوادث الجامعة، صـ٤٤٣.

(٤) أبو الفداء عماد الدين إسماعيل بن عليّ صاحب حماة: المختصر في أخبار البشر، دار الكتاب اللبناني، بيروت، بدون تاريخ، جـ٤ صـ١١٧.

(٥) ابن الفوطي: الحوادث الجامعة، صـ٣٩٨؛ خصباك: العراق في عهد المغول الإيلخانيين، صـ١١٢.

ضريبة المساعدة

من الضرائب التي استحدثت في بغداد في عهد المغول الإيلخانيين ضريبة المساعدة، ومن ذلك ما ذكره ابن الفوطي في حوادث سنة٦٧٧هـ من أنّه «ورد تقدُّم إلى علاء الدين صاحب الديوان باستيفاء "خمسين ألف دينار" على وجه المساعدة، فشرع في استيفاء ذلك من الناس بالعسف والقهر، ثم أمر بإثبات الدور ببغداد، فأثبتت جميعها، وطالبوا أربابها بالأجرة عنها شهرين ... وانفرد مجد الدين بن الأثير باستيفاء ما قُرَّر على الناس فغُلِّقت الأسواق واختفى أكثر العالم، فطولب النساء بما قُرِّر على رجالهنّ ولم يخلص من هذا أحدٌ حتى إنّ العلويين والقضاة والعدول استُوفِي منهم بالقهر والمضايقة العنيفة وكذلك جرى في أعمال بغداد جميعها»(١).

ومن أمثلة اقتران ضريبة المساعدة أيضا بضريبة البيوت في بغداد أنّ الأمير أرغون بن آباقا والي خراسان في عهد عمه السلطان أحمد اتجه بجيش من خواص أمرائه إلى بغداد وأمر في سنة ٦٨١هـ/ ١٢٨٢م بعمل حساب العراق، فكانت النتيجة أن تخلف على الضمناء شيء كثير فطولبوا به وضويقوا عليه وألزم أهل بغداد بضريبة المساعدة، وأُحضر قاضي القضاة عز الدين بن الزنجاني وقرر عليه وعلى العدول عشرة آلاف دينار، واستُوفي ذلك بالعسف، ولم يقف البطش عند ذلك الحد، بل نُهبت دار كل من اختفى، وبيع ما فيها(٢)، كما أُلزم نواب الأعمال الحلِّيّة والواسطية والبصرية وغيرهم بمثل ذلك، ثم طولب أهل بغداد بأجرة أملاكهم عن ثلاثة شهور، فاستوفيت من أكثرهم، ثم تُقدّم بإعفاء من تبقوا من ذلك وقفل أرغون راجعا إلى خراسان(٣).

---

(١) ابن الفوطي: الحوادث الجامعة، صـ٣٩٨؛ خصباك: العراق في عهد المغول الإيلخانيين، صـ١١٢.

(٢) ابن الفوطي: الحوادث الجامعة، صـ٤٢٤؛ خصباك: المرجع السابق، صـ٨٢.

(٣) انظر: ابن الفوطي: الحوادث الجامعة، صـ٤٢٤.

ضريبة القرض

من الضرائب التي استحدثت في بغداد بعد سقوطها في أيدي المغول كذلك ضريبة الاقتراض، وهي ضريبة اقترنت بسابقتيها المذكورتين - وهما ضريبة البيوت وضريبة المساعدة – واختصّ بها التجار، ومن شواهدها أنه في سنة ٦٨٢هـ «أُلزم التجار ببغداد بالقرض والمساعدة، وضويقوا على ذلك وألزم الناس بأجرة مساكنهم عن ثلاثة شهور»[١].

ومن شواهد ضريبة القرض في بغداد أيضا أن ناصر الدين قتلغ شاه صاحب ديوان بغداد قسط على الناس أموالا على سبيل القرض سنة ٦٨٦هـ وثقّل عليهم في استيفائها، فنفرت منه نفوس الناس، لكن مبعوثي الإيلخان أرغون خان المكلّفين بتصفح أحوال العراق لم يلبثا أن أسقطا عن الناس ما قرره قتلغشاه[٢].

ضريبة "إقامة العسكر"

من الضرائب المستحدثة ببغداد أيضا بعد الغزو المغولي ضريبة "إقامة العسكر"، فقد كان الديوان في بغداد يلزم الأغنياء من الناس بأموال يدفعونها كلما جاء عسكر المغول إلى ولاية بغداد ليتم الإنفاق منها علة إقامة العسكر، ومن شواهد ذلك ما يذكره ابن الفوطي في حوادث سنة ٦٨٢هـ (١٢٨٣م) إذ يقول: «وطولب أرباب الأموال بإقامة عسكر، وقُرِّر عليهم على قدر أحوالهم، واستوفي ذلك بالقهر والقسر»[٣].

ضريبة المؤونة

من الضرائب المستحدثة في ولاية بغداد في عهد المغول الإيلخانيين أيضا "ضريبة المؤونة"، والظاهر أن تلك الضريبة كانت تُقرَّر على المبيعات في الأسواق، وقد ورد خبر مقتضب عنها لدى ابن الفوطي في حوادث سنة ٦٧٧هـ (١٢٧٨م)، ففيها « أحضر بعض

---

(١) ابن الفوطي: الحوادث الجامعة، صـ٤٣٠.

(٢) ابن الفوطي: الحوادث الجامعة، صـ٤٥٠- ٤٥١.

(٣) المصدر السابق، صـ٤٣٠.

أهل السواد كارةً من الدُّخن بيعت بدرهمٍ فطُولب بالمؤنة عنها درهمين فانهزم وتركها»[١]، وكما هو واضح كانت هذه الضريبة تقَّدَّر جزافا دون مراعاة لثمن السلعة أو قدرة صاحبها.

طرق جباية الضرائب

باستقراء ما ورد في المصادر حول السياسة الإدارية والمالية التي اتبعها المغول الإيلخانيون في جباية أموال الضرائب واستيفاء الحقوق الديوانية من الرعايا، يتضح أن هناك ثلاث طرق استخدموها في جباية الضرائب، وهي الإقطاع والضمان والجباية المباشرة، ونعرض لكل منها بشيء من التفصيل فيما يلي:

الطريقة الأولى: الإقطاع:

الإقطاع هو أن تُقطع المنطقة أو المدينة أو الإقليم لأحد الأفراد مقابل دفع حصة معينة من ضرائبها يتم الاتفاق عليها مع الحكومة[٢].

وقد اعتمد المغول في نظامهم المالي بعد استيلائهم على العراق نظام الإقطاع «ويبدو أنّ الإقطاع الإيلخاني كان يشبه الإقطاع العباسي من حيث كونه أسلوبا في الإدارة يتضمن قيام المقطَع (بالفتح) بإدارة إقطاعه وإرسال واردات للحكومة بعد قطع جزء منها لنفسه أو تقبلها بشكل ضمان يدفعه للحكومة ويحتفظ بما يزيد عن ذلك لنفسه»[٣]، أما أهم فرق بين الإقطاعين العباسي الأخير والمغولي الإيلخاني فيتمثل في أنّ« الإيلخانيين أكثروا من إقطاع المدن والبلاد من أجل تقديم خدمة عسكرية لهم أي للدولة»[٤].

ومن شواهد اعتماد المغول الإيلخانيين الإقطاع وسيلة من وسائل جباية الضرائب أنّ السلطان آباقا خان قدم العراق سنة ٦٧٢هـ/١٢٧٤م فأقطع الأميرة "بولوغان خاتون"

---

(١) الحوادث الجامعة، صـ٤٠٤؛ وانظر: خصباك: العراق في عهد المغول الإيلخانيين، صـ١١٢.

(٢) خصباك: المرجع السابق، صـ١١٤.

(٣) خصباك: المرجع نفسه، صـ١٠٥

(٤) خصباك: المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

المحوّل[١]، كما أقطع السلطان محمد خدابنده أولجايتو المتوفى سنة ٧١٦هـ/ ١٣١٦م العالم الشيعي الشهير ابن المطهر الحلي بلادا كثيرة[٢].

والظاهر أنّ المغول الإيلخانيين اعتمدوا نوعين من الإقطاع في كافة الولايات الإيلخانية ومنها ولاية بغداد والعراق العربي، أحدهما كان يعني تمليك المقطَع منطقة معينة، والآخر منح المقطع حق الاستغلال فقد دون التمليك[٣].

ويذكر المؤرخ عبد الله الشيرازي الشهير بوصاف الحضرة أنّ جميع أعمال العراق كالبصرة وواسط والحلة والكوفة والنيل والأعمال الفراتية ونهر الملك ونهر عيسى ودجيل وبعقوبا وطريق خراسان وغيرها وضع خراجها في ثلاث طرق: ففرض على بعضها خراج مقنن، وأعطيت أخرى بنظام الضمان، في حين جعلت الأجزاء الباقية أمانة باسم أحد أرباب الدولة أو مشاهير العصر، وهذا الصنف الأخير ما هو إلا نوع من أنواع الإقطاع[٤].

وقد استمر الإقطاع بعد الإيلخانيين الوسيلة الأولى والأساسية لاستيفاء الضرائب في العراق، «ولا يوجد أي شك في أنّ النظام الإقطاعي الذي أقامه خلفاء الإيلخانات أثبت أنه عقبة في وجه الإنتاج الزراعي، وأدى إلى تسارع تناقص المحاصيل»[٥].

الطريقة الثانية: الضمان:

اتبع المغول الإيلخانيون في جباية ضرائب العراق أيضا طريقة الضمان، وهو –كما هو مشهور– يعني أن يلتزم الضامن بدفع مبلغ من المال تحدّده الدولة بمواقيت معيّنة،

---

(١) ابن الفوطي: الحوادث الجامعة، صـ٣٧٥، خصباك: المرجع السابق، صـ١٠٤.

(٢) أبو الفداء: الحافظ إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي: البداية والنهاية في التاريخ، مطبعة السعادة، القاهرة، سنة ١٩٣٢م، جـ١٤، صـ١٢٥.

(٣) انظر: خصباك: المرجع السابق، صـ١٠٤.

(٤) عبد الله الشيرازي: تاريخ وصاف، جـ٤ صـ٤٠٢؛ نقلا عن: خصباك: المرجع السابق، صـ١٠٥.

(٥) آ. آشتور: التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للشرق الأوسط في العصور الوسطى، صـ٣٥٣.

ويكون له الحق في تحصيل المقدار الذي يحدده هو من الرعايا دون أن تتدخل الدولة في ذلك، وبطبيعة الحال كان الضامن يأخذ من الناس أضعافا مضاعفة مقابلا لما يدفعه للدولة، والظاهر أنّ الضمان كان الأسلوب الأكثر شيوعا بين طرق جباية الضرائب في العراق في العهد الإيلخاني، وذلك في جباية ضرائب الخراج وضرائب الأسواق والتمغات والخمر والفاحشة[١].

وتؤكد كثير من الوقائع في العهد الإيلخاني أنّ ضرائب هذا العهد كانت ثقيلة جدًّا من حيث الكمية، وقد بلغ من ثقلها «أنّ الضمناء أنفسهم كانوا يعجزون عن دفعها أحيانا، وأنها كانت كيفية في كثير من الوجوه، تخضع من حيث الكمية والنوعية ووقت الجباية لإرادة الحاكم أو الضامن أو جابي الضريبة نفسه»[٢].

وتؤكد الوقائع نفسها «أنّ طريقة الضمان كان يعقبها على الأكثر جباية الضامن الكثير من المال لنفسه إضافة لما هو مكلَّف بدفعه للحكومة، وأنّ الفساد كان شائعا بين الحكام وجباة الضريبة إلى حدٍّ يجعل أكثر الأموال في أكثر الأحوال لا يصل إلى خزينة الحكومة، ولعلّ ذلك كان من جملة الأسباب التي تدفعها إلى مصادرة الحكام والضمناء والجباة وتعذيبهم والفتك بهم، حيث تتعمد غضّ النظر عن تصرفاتهم من أجل اتخاذهم إسفنجة تمتص بواسطتهم أقصى ما تستطيعه من أموال دافعي الضرائب للإنفاق على حاجات الدولة وسلاطينها وأمرائها»[٣].

ومن شواهد اعتماد المغول الإيلخانيين الضمان وسيلة لتحصيل الضرائب أنّ بهاء الدين أحمد بن عثمان البروجردي المتوفى في بغداد سنة٦٧٦هـ/ ١٢٧٧م ضمن الأعمال

---

(١) خصباك: العراق في عهد المغول الإيلخانيين، صـ١١٥. ومن المعروف أن البغاء والخمور وما إليه من فواحش كانت لها أماكن معينة وحانات تركتها دولة المغول وكانت تستغل ذلك مصدرا من مصادر الضرائب.

(٢) خصباك: المرجع السابق، الصفحة نفسها.

(٣) خصباك: العراق في عهد المغول الإيلخانيين، صـ١١٥- ١١٦.

الواسطية وتفرد بها ولم يكن لصاحب ديوان بغداد -الذي كان يمثل قمة السلطة الإدارية- معه حكم فيها[١].

كما عُقد ضمان الأعمال الحلّيّة على مجد الدين إسماعيل بن إلياس إضافة إلى نيابة الديوان والحكم في بغداد، وكان ذلك سببا لذهاب أمواله وأملاكه[٢].

وكذلك ضُرب الزين الحظائري ضامن تمغات بغداد وعذّب بالدوشاخة، فأدى مالا كثيرا وباع أملاكه وأسبابه وقام بما تخلف عليه من ضمان الحلّة[٣].

الطريقة الثالثة: الجباية المباشرة

الجباية المباشرة هي أن يكون للحكومة موظفون مكلّفون بجباية الضرائب المقررة مباشرة من الرعايا طبقا لأوامر الحكومة[٤]، دون وساطة كما هو في طريقتي الإقطاع والضمان، وكان يقوم بالجباية المباشرة موظف يسمى "المستوفي" ويعاونه بعض العمال وبعض جند المغول، ولعل أشهر من تولى هذه الوظيفة المؤرخ الشهير حمد الله بن أبي بكر المستوفي القزويني.

كانت الجباية المباشرة الطريقة المفضلة لدى ديوان بغداد في جباية الضرائب التي لم تكن ثابتة ولا مستقرة كالخراج المقدّر المستقر على الأراضي الزراعية مثلا، ومن تلك الضرائب غير الثابتة وغير المستقرّة ضرائب المساعدات الإجبارية والقروض الإجبارية والضرائب المفروضة على البيوت والعقارات[٥].

---

(١) انظر: ابن الفوطي: الحوادث الجامعة، صـ٣٩٥.

(٢) انظر: ابن الفوطي: المصدر السابق، صـ٤٥٣- ٤٥٤.

(٣) انظر: ابن الفوطي: المصدر نفسه، صـ٤٥٤، ٤٥٧.

(٤) خصباك: المرجع السابق، صـ١١٤.

(٥) خصباك: المرجع نفسه، صـ١١٥.

ب- المصادرات:

من الظواهر الاقتصادية المثيرة للانتباه في العراق في الفترة الإيلخانية التي أعقبت سقوط بغداد في أيدي المغول، شيوع مصادرة العمال والولاة والموظفين الديوانيين على نحوٍ يمثل سياسة واضحة كانت تتبعها الدولة وتعتبرها مصدرا مهما من مصادر دخل الخزانة.

ومن الملاحظ أن المصادرات كانت تلاحق موظفي الحكومة في ديوان بغداد في العصر الإيلخاني بمختلف مراتبهم واختصاصاتهم، فلم يسلم منها أحد حتى صاحب الديوان نفسه أو الوالي، وكانت تلك المصادرات كثيرة الوقوع وغير محدودة في كميتها، وقد وصلت أحيانا إلى حدّ الاستيلاء على كل ما يملكه الموظف بحق وبغير حق، والتعرّض للشخص ولأهله وأتباعه بالضرب والإهانة وتعريض الحياة للخطر(١)، وليس هذا فحسب، بل كان المصادَرون يتعرضون أحيانا للقتل.

ويزخر كتاب "الحوادث الجامعة" المنسوب لابن الفوطي بالأخبار والروايات المرتبطة بالمصادرات والمحاسبات العنيفة التي لم تخل من تعذيب وقتل بحق وبغير حق، ومن ذلك قتل عماد الدين عمر القزويني أحد الحكام ببغداد سنة ٦٦٠هـ/ ١٢٦١م، وكان هذا الرجل في صراع ووشايات مع علاء الدين الجويني صاحب ديوان بغداد، لكن الوزير الأعظم للدولة الإيلخانية شمس الدين الجويني أخا علاء الدين استطاع أن يأخذ خطوط الولاة بما صار إلى عماد الدين من الأموال وعرض ذلك على السلطان آباقا خان فأمر بقتله(٢)، كما قُبض على مجد الدين صالح بن الهذيل، وطولب بالبقايا، وشُدّد عليه ثم عذِّب بآلة يقال لها دوشاخة وضُرب وطيف به في واسط واستُوفيت منه أموال، ثم قُبض على نوابه وطولبوا بالأموال وضُربوا(٣).

---

(١) خصباك: المرجع السابق، صـ١١٤.

(٢) ابن الفوطي: الحوادث الجامعة، صـ٣٤٨- ٣٤٩؛ خصباك: العراق في عهد المغول الإيلخانيين، صـ١١٨.

(٣) انظر: ابن الفوطي: الحوادث الجامعة، صـ٣٤٨- ٣٤٩.

وفي سنة ٦٦١هـ/ ١٢٦٢م قتل علي بهادر شحنة بغداد وقُبض على وكيله شهاب الدين بن عبدوس ثُقّل بالحديد وطولب بالأموال، فأدّى عشرة آلاف دينار[١]، وفي سنة ٦٦٨هـ/ ١٢٦٩م عُذّب مسعود النصراني والي الموصل وعُزل وصودرت أمواله[٢].

وفي سنة ٦٧٢هـ/ ١٢٧٣م صادر علاء الدين الجويني صاحب ديوان بغداد أكثر أملاك النقيب تاج الدين علي بن رمضان بن الطقطقي بحجة ما تبقى عليه من ضمان الأعمال الحلِّيّة[٣]، كما قبض في السنة نفسها على فخر الدين مظفر بن الطرّاح وأصحابه ونوابه وأخذ منهم أموالا كثيرة وعزله[٤].

وفي سنة ٦٧٦هـ/ ١٢٧٧م كانت بين علاء الدين صاحب الديوان ومتولي تمغات بغداد شمس الدين علي بن الأعوج خصومة ووشايات، فعزله الصاحب من منصبه وصادر أمواله، وكان رجلا موسرًا غنيًّا، فغادر بغداد متجها إلى العاصمة الإيلخانية تبريز فتوفي بها[٥].

وفي سنة ٦٨٢هـ/ ١٢٨٣م أُحضر مجد الدين محمد بن الأثير، الذي كان من نواب صاحب الديوان، وطولب بما صار إليه من أموال الديوان، ثم دوشخ[٦] وعذب ووكل به أياما واستوفيت منه خمسون ألف دينار، ثم أرسل في السنة التالية إلى العاصمة الإيلخانية تبريز ولم يلبث أن رجع إلى بغداد وأعيد إليه المال، ثم أعيد إلى الحكم في الديوان، وبعد

---

(١) ابن الفوطي: المصدر السابق، صـ٣٤٩- ٣٥٠؛ خصباك: المرجع السابق، صـ١١٨.

(٢) ابن الفوطي: المصدر نفسه، صـ٣٦٧.

(٣) ابن الفوطي: الحوادث الجامعة، صـ٣٧٧.

(٤) ابن الفوطي: المصدر السابق، صـ٣٨١.

(٥) ابن الفوطي: المصدر السابق، صـ٣٩٥- ٣٩٦.

(٦) دُوشِخَ أي عُذّب بآلة تعذيب تسمى "دوشاخة" يشيع ذكرها لدى ابن الفوطي في كتاب "الحوادث الجامعة".

شهرين أُخذ وطُوّق بالحديد وضويق وطولب بأموال كثيرة، واستوفيت منه مائة ألف دينار، ثم حمل إلى معسكر الإيلخان بتبريز[١].

في سنة ٦٨٥هـ/ ١٢٨٦م صودرت أموال وأملاك ثلاثة من كبار رجال الديوان ببغداد وهم: مجد الدين بن الأثير، والأمير تاج الدين علي جليبان المشرف، وسعد الدين القزويني، وضُيق عليهم وعذّبوا ثم حملوا إلى المعسكر الإيلخاني بتبريز فقتلوا هناك وأرسلت جثثهم إلى بغداد[٢].

وممن صُودروا أيضا سنة ٦٨٦هـ/ ١٢٨٧م نجم الدين كاتب الجريد الذي عُذّب بالدوشاخة أيضا، وطولب ببقايا وجبت عليه فلما عرف من نفسه العجز عن أداء ما يطالب به وخشي على نفسه أليم العقاب قتل نفسه[٣].

ومن المصادرات التي وقعت في بغداد سنة ٦٨٧هـ/ ١٢٨٨م ما كان من مطالبة ولاة الأعمال والضعفاء بالبقايا ومضايقتهم في ذلك حتى أدّوا أموالا كثيرة، وضُرب عزّ الدين عبد العزيز الأربلي ناظر الكوفة فباع أملاكه فلم يقم بما عليه، وكان مريضا فمات من تواتر الضرب عليه، كما ضُرب "الزين الحظائري" عميد بغداد وضامن تمغاتها ودُوشِخ، فأدّى مالا كثيرا وباع أملاكه وأسبابه وقام بما تخلّف عليه من ضمان الحلّة[٤].

وفي سنة ٦٨٨هـ/ ١٢٨٩م قُبض مرة أخرى على الزين الحظائري ومعه مجد الدين إسماعل بن إلياس وصودرا وعوقبا بالضرب وغيره، وأُخذ مالهما من نقد وأملاك، ثم قتلا[٥].

---

(١) ابن الفوطي: المصدر السابق، صـ٤٣٠.

(٢) ابن الفوطي: المصدر نفسه، صـ٤٤٨.

(٣) ابن الفوطي: الحوادث الجامعة، صـ٤٥١؛ خصباك: العراق في عهد المغول الإيلخانيين، صـ١١٨- ١١٩.

(٤) ابن الفوطي: المصدر نفسه، صـ٤٥٤؛ خصباك: المرجع السابق، صـ١١٨.

(٥) ابن الفوطي: المصدر نفسه، صـ٤٥٨.

وفي أعقاب مقتل سعد الدولة اليهودي الأبهري وزير أرغون خان سنة ٦٩٠هـ/١٢٩١م تعرض أقاربه وأتباعه من يهود بغداد للقتل والتعذيب والمصادرة، ووقعت فتنة عظيمة تصدى لها صاحب الديوان وجنده فأسكنوها[١].

ولم يسلم علاء الدين الجويني صاحب ديوان بغداد نفسه من المصادرة، فكثيرا ما حيكت ضدّه المؤامرات ورفعت الوشايات إلى الإيلخان، وعلى الرغم من تولي أخيه شمس الدين محمد منصب الوزارة العظمى للدولة، فإن هذا لم يغن عنه شيئا في كثير من الأحيان؛ فمن ذلك ما جاء في حوادث سنة ٦٨٠هـ (١٢٨١م) من أنه قُبض على علاء الدين وأصحابه ونوابه وأتباعه، وسُلّموا إلى مشرف الممالك مجد الملك اليزدي[٢]، فاستوفى من صاحب الديوان أموالا كثيرة، وبيع من أملاك الصاحب جملة طائلة، ودوشخ (أي عذب بالدوشاخة) وألقي بأعلى بغداد على شاطئ دجلة مكتوفا عليه قميص واحد وكان البرد شديدا جدا، كما ضرب خواصه وخدمه وأتباعه واستوفيت منهم الأموال، وكثر الوشاة ضدّ الصاحب علاء الدين[٣]، وبلغ من شدة المحنة التي تعرض لها علاء الدين الجويني أن باع أملاكه وراح يستدين من الناس، وليس هذا فحسب، بل إن من المؤرخين من بالغ فزعم أن علاء ادين باع أطفاله ودفع ثمنهم لمجد الملك[٤].

---

(١) ابن الفوطي: المصدر نفسه، صـ٤١٥- ٤١٦، يوسف غنيمة: نزهة المشتاق في تأريخ يهود العراق، صـ١٦٨؛ مصطفى حسين: الدور السياسي والحضري للوزراء زمن المغول الإيخانيين في إيران، م١، صـ٣٧٦.

(٢) حول منصب "مشرف الممالك" ومجد الملك اليزدي راجع: مصطفى حسين: الدور السياسي والحضاري للوزراء زمن المغول الإيلخانيين في إيران، م١، صـ١٤٢ فما بعدها.

(٣) ابن الفوطي: الحوادث الجامعة، صـ٤١٥- ٤١٦؛ الأعظمي: علي ظريف: مختصر تاريخ بغداد القديم والحديث، مطبعة الفرات، بغداد، سنة ١٩٢٦م، صـ١٣٤؛ جمال الدين: محمد السعيد: علاء الدين عطا ملك الجويني حاكم العراق بعد انقضاء الخلافة العباسية في بغداد، الطبعة الأولى، سنة ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م، صـ٤١.

(٤) راجع: رشيد الدين: جامع التواريخ، م٢، جـ٢، الترجمة العربية، صـ٨٢، ٨٤؛ مصطفى حسين: الدور السياسي والحضاري للوزراء زمن المغول الإيلخانيين في إيران، م١، صـ١٥٠.

وكثيرا ما كان علاء الدين الجويني يلجأ إلى أخيه الوزير شمس الدين محمد ليخلصه من التعذيب والمصادرة، وكان أخوه هذا يعرف جيدا طبيعة المغول ونهمهم للأموال، ولذا كان ينصح علاء الدين بألا يعارضهم في دفع أية مطالبات، وقد بلغ بعلاء الدين أن دفع من ماله مبلغ ثلاثمائة تومان لمبعوثي الإيلخان[١]، ومع ذلك فلم يخلّصه من هذه الورطة إلا موت السلطان آباقا خان وتولي السلطان المسلم أحمد تكودار العرش في أوائل سنة ٦٨١هـ/ ١٢٨٢م.

أما مجد الملك اليزدي مشرف الممالك ونوابه وأتباعه فكانت نهايتهم بشعة فعذّبوا وقتلوا وصودرت أملاكهم ونهبت دورهم[٢].

ولو تتبعنا أخبار المصادرات التي وقعت في العراق في عهد المغول الإيلخانيين لطال بنا المقام، وحسبنا ما تقدم ذكره من أمثلة، وخلاصة القول أن الحكومة الإيلخانية كانت تتخذ من المصادرات وسيلة للحصول على الأموال، وقد اشتدّ نهم الإيلخانات في جمع الأموال «حتى إنهم كانوا على استعداد للتضحية بأخلص رجالاتهم من أجل استيفائها»[٣].

وعلى الرغم من أنّ المصادرات كانت تدرّ على الدولة أموالا طائلة، فإنها من ناحية أخرى كانت وبالا على الناحية الاقتصادية في بغداد؛ إذ كان ترقب العمال لوقوع المصادرة يدفعهم لتكديس الثروات وجمع الأموال من الناس بمختلف الذرائع، كما أنّ ديوان بغداد لم

---

(١) ميرخواند: تاريخ روضة لصفا، جـ٥، صـ٣٢٤– ٣٢٥؛ خواندمير: دستور الوزراء، با مقدمة وتحقيق سعيد نفيسى، طهران، ١٣١٧هـ. ش، صـ٢٨٠؛ الترجمة العربية للمصدر نفسه بعنوان: "المؤرخ الإيراني الكبير غياث الدين خواندمير كما يبدو في كتابه دستور الوزراء"، تأليف وترجمة وتعليق الدكتور حربي أمين سليمان، تقديم الدكتور فؤاد عبد المعطي الصياد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، سنة ١٩٨٠م، صـ٣٤٧.

(٢) راجع التفاصيل لدى ابن الفوطي: الحوادث الجامعة، صـ٤١٩– ٤٢٣.

(٣) صبري سليم: الصراع السياسي والمذهبي بين الشيعة والسنة في عصر سيطرة إيلخانات المغول في إيران، صـ٣٦٠.

تكن له سياسة اقتصادية قائمة على تنمية الموارد الإنتاجية، بل كانت قصاراه استيفاء الضرائب بالقهر والعسف من الناس، ولأنّ العمال في الولايات ومنها ولاية العراق لم يكونوا في الأعم الأغلب أمناء فقد كانت السلطة المركزية تصدق أية وشايات دون تحقيق طالما أنها ستوفر الأموال.

****

تعقيب:

لقد كان من أبرز نتائج سقوط بغداد في أيدي المغول أن « أصيبت الحياة الاقتصادية على اختلاف فروعها بالشلل التام، بحكم حالة القلق التي كان يعاني منها الناس طيلة فترة الغزو المغولي، الذي نجمت عنه مجاعة شملت وادي الرافدين وسورية وبلاد الروم، ولم يصب المغول الجوع؛ فقد كانوا يعمدون إلى إحراق الحبوب والغلال التي تزيد عن حاجتهم»[١].

وقد انقضى ما قارب الأربعة عقود عقب سقوط بغداد في أيدي المغول كانت في أغلبها في حالة من التدهور الاقتصادي الذي تخللته بعض الإجراءات الإصلاحية الاقتصادية التي لا تمثل اتجاها واضحا نحو الإصلاح.

ثم ما لبثت الدولة –بفضل إسلام السلطان غازان وكفاءة وزرائه وعماله– أن اتجهت نحو الإصلاحات الكبرى الشاملة بوحي من إقبال المغول على الإسلام وتأثير هذا الدين الحنيف عليهم، وبطبيعة الحال كان لولايات الدولة نصيب من هذه الروح الإصلاحية، وفي مقدمتها ولاية بغداد والعراق العربي على نحو ما عرضنا له في هذا الفصل.

---

(١) محمد القزاز: الحياة السياسية في العراق في عهد السيطرة المغولية، صـ١١٤؛ براون: إدوارد جرانفيل: تاريخ الأدب في إيران من الفردوسي إلى السعدي، ألفه بالإنجليزية إدوارد براون، ونقله إلى الفارسية الأستاذ علي أصغر حكمت، ونقله من الفارسية إلى العربية الدكتور إبراهيم أمين الشواربي، مطبعة السعادة بمصر، سنة ١٣٧٣هـ/ ١٩٥٤م، جـ٢ ، صـ٥٦٠.

وغنيٌّ عن البيان أن الحياة الاجتماعية شديدة الارتباط بالحياة الاقتصادية والتبعية لها، وإذا كان الفصل الحالي قد عرض للآثار الاقتصادية للغزو المغولي لبغداد، فإن الفصل التالي سيعرض للآثار الاجتماعية لذلك الغزو في الصفحات التالية.

****

***

*



الفصل الثالث

الآثار الاجتماعية والعمرانية للغزو المغولي لبغداد

مدخل:

من المتفق عليه أن المغول كانوا في مبدأ أمرهم مجموعات من القبائل الرعوية المتنقلة بين الصحاري والسهوب، البعيدة عن حياة العمران والاجتماع؛ إذ كانوا تجمعات بدائية نادرة الاحتكاك بالمجتمعات الحضرية في البلاد المجاورة لهم، ولعل توحيد قبائل المغول واندفاعهم في موجات عسكرية متلاحقة نحو المشرق الإسلامي، وقضاءهم على الدولة الخوارزمية ثم الخلافة العباسية، لعل ذلك أتاح لهم احتكاكا مباشرا بالحياة الاجتماعية الحضرية.

وعلى الرغم من تمسّك المغول الأوائل بأسلوب حياتهم وعاداتهم البدائية، فإنّ الأجيال المغولية الجديدة التي نشأت في مدن إيران والعراق وغيرهما من مناطق الدولة الإيلخانية، بدأت تتأثر بالحياة الحضرية شيئا فشيئا وتبتعد عن حياة البداوة، فلا غرو أن كان للغزو المغولي للحواضر الإسلامية دوافع اجتماعية ارتبطت ارتباطا مباشرا بالآثار الاجتماعية لذلك الغزو على البلدان التي استولوا عليها.

وإذا كان للغزو المغولي للحاضرة العباسية "بغداد" آثار اقتصادية جاءت في مقدمة الآثار الحضارية لذلك الغزو على نحو ما رأينا في الفصل السابق، فقد كان لذلك الغزو آثار اجتماعية ظاهرة للعيان، ولا يخفى عن الأذهان أن الحروب تدمر المجتمعات التي توجّه إليها؛ فقتل البشر وتدمير منازلهم ومنشآتهم وإشاعة الفوضى والدمار، وغير ذلك مما تحدثه الحروب، كلها أمور تترك أضرارا اجتماعية عميقة الأثر يمكن ملاحظتها وقياسها، واستقراء نتائجها على المجتمعات التي تتعرض لويلات الحروب، وبعد أن تضع الحرب أوزارها لا يمكن أن نتوقع أن يرجع المجتمع إلى سابق عهده وبنائه الاجتماعي بين عشية وضحاها؛ ذلك أن الآثار الاجتماعية

للحروب من أشدّ المؤثرات طويلة المدى وأعمقها من حيث درجة التأثير على الحياة في أي مجتمع بشري.

وأحسب أن المصادر التاريخية -على اختلاف لغاتها بين العربية والفارسية والإنجليزية- قد عنيت بوصف مشاهد التدمير والخراب الذي أصاب المجتمعات التي هاجمها المغول بروايات مستفيضة، فقد كانت الهجمات المغولية ضربات قاصمة للبناء الاجتماعي للمدن التي هاجمتها وبخاصة بغداد، التي خيمت عليها مشاهد التدمير والقتل والسلب والنهب، ويبدو أن شهرة تلك المدينة التي طبقت الآفاق جعلها تبدو وكأنها صاحبة النصيب الأكبر من التدمير والخراب، وذلك على الرغم من أنها كانت في الحقيقة أسعد حظا من بعض المدن الخوارزمية التي سحقتها جيوش المغول فأزالتها من الوجود وعفت أطلالها فأصبحت أثرا بعد عين.

ومن المعروف أنَّ الغزاة المغول حرصوا بمجرد انتهاء الأعمال العسكرية والاستيلاء التام على بغداد والعراق العربي على إقرار نظام إداري يحقق لهم مصالحهم؛ لأنهم يدركون أنهم لن يحصلوا على الأموال بغير استقرار المجتمع على نحو يتيح لهم التعامل مع الرعايا في سهولة ويسر، وقد استعمل المغول بعض صنائعهم من الفرس ومن المتواطئين معهم من العراقيين ممن كانوا في إدارة بغداد في زمن الخليفة، فقام هؤلاء بإدارة المدينة لمصلحة المغول، لكنهم عملوا في الوقت نفسه على تضميد الجراح قدر استطاعتهم.

وفي ضوء ما تقدم فإنّه يمكن تقسيم الآثار الاجتماعية للغزو المغولي لبغداد إلى قسمين رئيسين:

القسم الأول: الآثار الاجتماعيّة الأوّليّة المترتبة على تخريب بغداد.

القسم الثاني: الآثار الاجتماعية الناتجة عن الاستقرار الإداري للمغول في بغداد.

وسيحاول الباحث في هذا الفصل أن يحلل الروايات التي وردت في المصادر عن تخريب الحاضرة العباسية بغداد والعراق العربي، ويستخلص الآثار الاجتماعية الناتجة عن الغزو المغولي لتلك المدينة، كما سيحاول الفصل الحالي الإجابة على تساؤل مهم، ألا وهو: هل استمر المجتمع البغدادي بعد الغزو المغولي على ما كان عليه قبل الغزو من حيث النمو السكاني والعمراني والبناء الطبقي لمكوناته وعناصره؟ أو أنّ ثمة تغيرات وآثارا اجتماعية أصابت هذا المجتمع في ظل الحكم المغولي الجديد؟

وسيدور اهتمام الفصل أيضا حول القسمين المشار إليهما، وذلك من خلال تحقيق أهداف بحثيّة تتضمنها المباحث التالية:

المبحث الأول: حجم التخريب الذي أصاب بغداد على أيدي المغول.

المبحث الثاني: الأوبئة والأمراض الناتجة عن غزو بغداد.

المبحث الثالث: أثر الغزو المغولي على التركيبة السكانية لبغداد.

أ – عناصر المجتمع وطبقاته قبل الغزو المغولي.

ب – تغير التركيبة السكانية لبغداد بعد الغزو.

المبحث الرابع: الاستقرار الإداري وأثره في إعادة إعمار بغداد

وفيما يلي عرض تفصيلي لتلك المباحث:

المبحث الأول: حجم التخريب الذي أصاب بغداد على أيدي المغول

عند استقراء الروايات المتعلقة بالغزو المغولي لبغداد وما ترتب عليه من أعمال تخريبية، وتحليل تلك الروايات تحليلا يركز على بيان الأضرار الاجتماعية الناتجة عن الغزو المغولي، عند ذلك يمكن ملاحظة الآثار الاجتماعية المترتبة على غزو بغداد وقياسها والوقوف على مدى تأثيرها على بغداد وأهلها في تلك الفترة العصيبة من تاريخ المسلمين، ويمكن تركيز نتائج استقراء الروايات المشار إليها من خلال النقاط التالية:

١- تأثير القتل وسفك الدماء على المجتمع البغدادي

لا شك أن للقتل وسفك الدماء آثارًا سلبية لا يمكن إنكارها على أي مجتمع يتعرض لهما، فالحرب تحرم الناس نعمة الأمن والاستقرار، وحينما تكون حياة الناس معرضة للأخطار والعدوان، فإن اضطراب الحياة الاجتماعية وتفكك البناء الاجتماعي تكون من النتائج الطبيعية المتوقعة عندئذٍ.

ومن المؤكّد على أن المجتمع البغدادي لم يتعرض في حياة العراق على مرّ العصور لهزة أقوى من تلك التي تعرض لها على أيدي المغول، وعلى الرغم من قوة تلك الهزة ومن بشاعة القتل العام الذي تعرض له ذلك المجتمع، فقد ظلّ باقيا صامدا في وقت زالت فيه مدن ومجتمعات كاملة من الوجود على أيدي المغول، وسنرى فيما يأتي كيف استطاع هذا المجتمع أن يتكيف مع الوضع الجديد ويواصل عطاءه الاجتماعي في دنيا البشر.

٢- تناقص السكان وأثره على المجتمع

مما لا شك فيه أنّ سكان المجتمع العراقي بوجه عام والبغدادي بوجه خاص قد تناقص عددهم نتيجة للغزو المغولي، وهذا التناقص بطبيعة الحال كان نتيجة لقتل

عشرات الآلاف من الناس في آيام معدودات، وهروب آخرين وهجرتهم فرارا من الوقوع في أيدي المغول.

والواقع أنه ليس لدينا أية إحصاءات لسكان بغداد في أواخر العصر العباسي، ولا في أوائل العهد الإيلخاني، ومع ذلك فثمة إحصاءات قائمة على التحريات الأثرية، تشير على سبيل الترجيح إلى أنّ المنطقة المعمورة في منطقة ديالي التي تضم مدينة بغداد وغيرها تقلصت من ٤١٤ هكتارا قبل الغزو المغولي إلى ١٩٠ هكتارا بعده بسبب التناقص في السكان في العراق، فقد كانت نتائج الغزو المغولي مدمّرة[١].

ومن حيث عدد السكان قبل الغزو المغولي وبعده في المنطقة التي تتوسطها بغداد، فوفقا للتحريات الأثرية التي قام بها أحد المستشرقين، تراجع عدد أولئك السكان من ٨٧٠٠٠٠ (ثمانمائة وسبعين ألف) نسمة سنة ٨٠٠م إلى ٤٠٠٠٠٠ (أربعمائة ألف) نسمة سنة ١١٠٠م، ثم إلى ٦٠٠٠٠ (ستين ألف) نسمة بعد الغزو المغولي سنة ١٢٥٨م[٢] /٦٥٦هـ ، وهذا التراجع الحادّ الذي أعقب الغزو المغولي كان نتيجة طبيعية للقتل والهجرة.

ويعلق المستشرق النمساوي آ. آشتور على تدهور النمو السكاني في العراق بعد الغزو المغولي وفي ظل الحكم الإيلخاني فيقول: «ولكن أهم ظاهرة في تاريخ العراق الاجتماعي في تلك الفترة هي تناقص السكان، ورغم أنه لم تصلنا حوليات تفصيلية من تلك الفترة من تاريخ العراق، فليس هناك أيّ شك في ذلك»[٣].

---

(١) آ. آشتور: التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للشرق الأوسط في العصور الوسطى، صـ٣١٩.

(٢) آ. آشتور: المرجع السابق، صـ٣٢٠.

(٣) آ. آشتور: المرجع نفسه، صـ٣١٧.

ولا يقارن الخراب الذي جلبه المغول، بنتائج أيِّ غزو سابق؛ فالاستيلاء على مدن عديدة في العراق، وكذلك في أعالي ما بين النهرين، تبعته مجازر رهيبة، فالأشخاص الذين قتلوا في بغداد عام ٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م بلغوا مائة ألف شخص على أوسط تقدير، كما تعرضت معظم المدن الأخرى غير بغداد لمجازر رهيبة(١).

وأيًّا ما كان الأمر، فالمؤكد أنّ القتل والتخريب اللذين أصابا بغداد وغيرها من مدن العراق كان لهما أثرهما السيء على الحياة الاجتماعية في العراق عامة وبغداد خاصة.

٣- الهجرات الجماعية والنزوح فرارا من المغول

من المؤكَّد تاريخيًّا أنّ القتل لم يكن العامل الوحيد في تراجع النمو السكاني ببغداد وغيرها من مدن العراق إبّان الغزو المغولي، بل كان هناك عامل آخر ربما كان أثره الأقوى في ذلك التراجع، ألا وهو الهجرة؛ ذلك أنّ جماعات هائلة من الناس في تلك المناطق فرُّوا هاربين بأنفسهم من هجمات المغول الشرسة، ومتجهين شرقا صوب الشام ومصر، « فالكثيرون من سكان مدن العراق وأعالي ما بين النهرين هربوا قبل وصول المغول وعادوا بعد رحيلهم، ولكنّ من المؤكد أنّ استيلاء المغول على العراق كان كارثة ديمغرافية؛ فكثير من المدن بقيت مهجورة، كما حدثت مجازر في الريف أيضا، ويقول رشيد الدين المدافع عن الإيلخانيين إنّ سكان المناطق الحدودية جرى تهجيرهم وبقيت الأراضي يبابا، كما يقول إن الشيء نفسه حدث في بعض مناطق ديار بكر... ويقسم أنّ معظم المدن على ضفتي الفرات كانت أيضا منهوبة ومهجورة»(٢).

---

(١) آ. آشتور: المرجع السابق، صـ٣١٧، بتصرف.

(٢) آ. آشتور: المرجع السابق، صـ٣١٧- ٣١٨.

ويشير ابن شاكر الكتبي إلى هجرات العلماء التي أعقبت اجتياح بغداد وقتل أهلها من قبل المغول، فيذكر أنّ الذين نجوا من مذابح المغول لم يستطيعوا البقاء بين الأطلال فهاجروا فرارا بدينهم وعلمهم إلى البلاد المجاورة، واستقر بعضهم في الشام وبعضهم في القاهرة، ووصلوا بذلك ما انقطع ببغداد فحفظوا لنا بقية من علم قديم(١).

ويبدو أن الهجرات التي أعقبت سقوط بغداد في أيدي المغول لم تكن سوى حلقة في سلسلة من الهجرات التس سبقت هذا السقوط؛ ذلك أن الظروف التي سبقت سقوط بغداد كانت قاسية فهجر الناس قراهم ومزارعهم الواقعة شرقي بغداد قبل أكثر من عشرين سنة من سقوط تلك المدينة، وذلك بسبب تعرضهم لهجمات المغول المستمرة(٢).

وقد تحدث ابن فضل الله العمري كذلك عن أنّ أقواما بأكملها هاجرت من ديارها فرارا من المغول ولجأت إلى بلاد الشام ومصر حيث توزعت أرجاءها واستقرت فيها(٣).

ويشهد أحد كبار المؤرخين الجغرافيين المعاصرين للغزو المغولي، وهو حمد الله بن أبي بكر المستوفي بأنّ الطريق التي سلكها هولاكو بجيشه نحو بغداد قد أقفرت من ساكنيها، وتحولت مدنه وقراه إلى خراب؛ ففي معرض حديثه عن "خانقين" و"حلوان" و"الخالص" و"النهروان" يذكر أنها

---

(١) ابن شاكر: عيون التواريخ، صـ١٥٨- ١٥٩؛ نقلا عن محمد القزاز: الحياة السياسية في العراق في عهد السيطرة المغولية، صـ١١٣- ١١٤.

(٢) محمد القزاز: المرجع السابق، صـ١١٤.

(٣) العمري: مسالك الأبصار، جـ٢، ق٢، صـ٣١٠؛ محمد القزاز: المرجع السابق، صـ١١٥.

بقيت خرابا على الرغم من مرور أكثر من ثمانين سنة على سقوط بغداد في أيدي المغول(١).

المبحث الثاني: الأوبئة والأمراض الناتجة عن غزو بغداد

كان العراق على مرّ العصور من البلدان كثيرة التعرض للهجمات الشديدة من الأمراض الوبائية والمستوطنة، وكانت الملاريا والتيفوئيد –على سبيل المثال– تتحول في بعض السنين إلى أوبئة فتاكة يصعب في بعض الأحيان التمييز بينها وبين الأوبئة الطارئة؛ لأن ظروف البلاد الاقتصادية والمعيشية وانخفاض مستوى الطب الإنساني آنذاك كانت تساعد على ذلك(٢).

وفي السنوات الأخيرة من العصر العباسي لم تعد بغداد وغيرها من مدن العراق غنية كسابق عهدها، بل تقلصت أملاك الخلافة العباسية فتقلص دخلها وصار اعتماد العراق قاصرا على مصادره الخاصة التي تمثلت في الزراعة البدائية التي لم تكن توفر سوى الكفاف من الغذاء، وقد تعرض العراق لسنوات من القحط والضيق الاقتصادي قبيل الغزو المغولي نتيجة لقلة الأمطار أحيانا، وتعدد الفيضانات أحيانا أخرى، وكثرة هجمات الجراد وأمراض الماشية، ووقوع الآفات الزراعية وحدوث المجاعات على نحوٍ تضعف معه مقاومة الأجسام للأوبئة والأمراض(٣).

وعندما تعرضت بغداد للغزو المغولي جاءت الحرب بمزيد من الويلات والظروف السيئة، فكان من أبرز الآثار الاجتماعية التى تمخضت عن ذلك الغزو المدمّر انتشار

---

(١) القزويني: حمد الله المستوفي: نزهة القلوب، صـ٤٠، ٤١، ٤٦؛ لسترنج: بلدان الخلافة الشرقية، صـ٨٥؛ محمد القزاز: المرجع السابق، صـ١١٥.

(٢) خصباك: العراق في عهد المغول الإيلخانيين، صـ٢٠٦.

(٣) خصباك: المرجع السابق، الصفحة نفسها.

الأوبئة والأمراض الناتجة عن كثرة القتلى وتناثر الجيف في شوارع بغداد وغيرها من مدن العراق.

ولعلّ أوثق الروايات التي نقلت لنا أخبار تلك الأوبئة والأمراض التي أصابت بغداد آنئذٍ ما ذكره المؤرخ البغدادي كمال الدين عبد الرازق ابن الفوطي المعاصر لأحداث الغزو المغولي لإيران والعراق؛ ففي معرض سرده لأحداث سنة ٦٥٦هـ/(١٢٥٨م)، وما تخللها من وقائع الهجوم المغولي على حاضرة الخلافة العباسية بغداد، يقول ابن الفوطي:

«ووقع الوباء فيمن تخلف بعد القتل من شم روائح القتلى وشرب الماء الممتزج في الجيف، وكان الناس يكثرون من شم البصل لقوة الجيفة وكثرة الذباب فإنه ملأ الفضاء، وكان يسقط على المطعومات فيفسدها»[١]، وعلى هذا النحو تحدد الرواية أسباب انتشار الوباء بكثرة الجيف وامتزاجها بماء الشرب، وانتشار الذباب ووقوعه على الأطعمة، كما تحدد الرواية إحدى الوسائل التي حاول الناس بها مقاومة الوباء.

ويشير ابن الفوطي إلى أنّ أهالي المناطق المجاورة لبغداد كان لهم دور في إنقاذ أهالي تلك المدينة ومعاونتهم على مقاومة تبعات الوباء وآثاره السلبية فيقول: «وكان أهل الحلة والكوفة والسيب يجلبون إلى بغداد الأطعمة فانتفع الناس بذلك، وكانوا يبتاعون بأثمانها الكتب النفيسة وصُفَر المطعم وغيره من الأثاث بأوهى قيمة، فاستغنى بهذا الوجه خلق كثير منهم»[٢].

وقد أشار رشيد الدين الهمذاني مؤرخ المغول إلى أنّ كثرة القتلى بمدينة بغداد قد أدت إلى عفونة هوائها، وهذا أفضى بدوره إلى رحيل هولاكو خان عن المدينة في

---

(١) الحوادث الجامعة: صـ٣٣١.

(٢) المصدر السابق، الصفحة نفسها.

الرابع عشر من صفر سنة ٦٥٦هـ[١]/ ١٢٥٨م خوفا من أن تصيبه العدوى، بعد أن صارت بغداد نتنة الجو كريهة الرائحة من كثرة جثث الضحايا الذين قتلوا على أيدي جند المغول الهمجيين[٢].

تأثر البلاد المجاورة بالوباء

وقد تعدى أثر الوباء الذي انتشر في بغداد بعد سقوطها على أيدي المغول حدود العراق فانتقل إلى بعض البلاد المجاورة؛ إذ يشير المؤرخ جريجوريوس الطبيب الملطي الشهير بابن العبري –وهو معاصر للأحداث– إلى انتشار الوباء في العراق والجزيرة وبلاد الروم آنذاك[٣].

وفي سنة ٦٧٨هـ/ ١٢٧٩م فسد الهواء في أكثر بلاد العجم والموصل وبغداد والحلة والكوفة وواسط والبصرة وجميع نواحي العراق وكثر السعال في الناس[٤]، وفي سنة ٦٨٥هـ/ ١٢٨٦م كثر المرض والموت في بغداد[٥].

---

(١) رشيد الدين: جامع التواريخ، م٢، جـ١، صـ٢٩٣.

(٢) سعد بن محمد حذيفة: سقوط الدولة العباسية ودور الشيعة بين الحقيقة والاتهام، الطبعة الثالثة، دار ابن حذيفة، سنة ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م، صـ٣١٢.

(٣) ابن العبري: تاريخ الزمان، الترجمة العربية، صـ١٣٤؛ خصباك: العراق في عهد المغول الإيلخانيين، صـ٢١٣.

(٤) الحوادث الجامعة، صـ٢٣١؛ خصباك: المرجع السابق، الصفحة نفسها.

(٥) الحوادث الجامعة، صـ٤٤٩؛ خصباك: المرجع السابق، صـ٢١٣.

المبحث الثالث: أثر الغزو المغولي على التركيبة السكانية لبغداد

من المتفق عليه في أوساط البحث التاريخي أنّ الغزو المغولي لم يكن ذا طابع عسكري محض، بل اصطبغ بصبغة اجتماعية فاتخذ طابع الهجرات، ومن الثابت في المصادر الفارسية التي عنيت بالغزو المغولي أنّ أباطرة المغول كانوا إذا وجهوا جيشا لغزو منطقة معيّنة أطلقوا على تلك المنطقة مصطلح "يورت" بمعنى الموطن والمقرّ، وتعهدوا للأمير القائد المرسل على رأس الجيش بأن تكون المناطق المفتوحة ملكا له ولأبنائه من بعده، والناظر إلى تشكيلات الجيش الذي بعثه الخاقان المغولي صحبة أخيه هولاكو يتبين بوضوح أنّ الجيش كان مكونا من تركيبة اجتماعية تشمل الجند المحاربين وأسرهم من نساء وأطفال.

ومما يؤكد ذلك ما ذكره رشيد الدين في جامع التواريخ من أنّ الخاقان المغولي منكو قآن قرّر أن يصحب هولاكو أهلَه وعشيرته من أزواج وأبناء وأقارب وعبيد[١]، وأنه كان بصحبة هولاكو أمراء ينحدرون من نسل كل أمير من أبناء جنكيز خان[٢]، كما انضم إلى جيش هولاكو أمراء آخرون من الأسرة المغولية الحاكمة، وهم أبناء وإخوان، وأبناء إخوان وأبناء أخوات القآن نفسه[٣].

واستنادا إلى ما ذكره رشيد الدين وغيره من المؤرخين من أمثال تلك الروايات، التي توضح الجانب الاجتماعي للتشكيلات العسكرية الموجهة للغزو، أقول: استنادا إلى ذلك يمكن القول بأنّ الهدف من موجات الغزو المغولي لم يكن عسكريا فحسب، بل كان ذا مسحة اجتماعية واضحة.

---

(١) رشيد الدين: جامع التواريخ، م٢، جـ١، صـ٢٣٥.

(٢) المصدر السابق، الصفحة نفسها.

(٣) الغامدي: سقوط الدولة العباسية ودور الشيعة بين الحقيقة والاتهام، صـ٢٥٥.

ويلاحظ أنّ الاستقرار المغولي في العراق بعد غزو بغداد وغيرها من المدن قد أثر تأثيرا مباشرا وملحوظا على عناصر ومكونات المجتمع البغدادي خاصة والعراقي عامة، ويمكن تأكيد ذلك من خلال عرض نقطتين: الأولى عناصر المجتمع قبل الغزو المغولي، والثانية تغيّر التركيبة السكانية لبغداد بعد الغزو، وذلك على النحو التالي:

أ – عناصر المجتمع وطبقاته قبل الغزو المغولي:

ليس من الصعب ملاحظة أنّ المناطق التي غزاها هولاكو في إيران والعراق وامتداداتهما، والتي استقرّت فيها أسرة هولاكو خان وأتباعه، قد تأثرت بنيتها السكانية وبناؤها الاجتماعي تأثرا ملحوظا؛ فالبناء الطبقي للمجتمع البغدادي قبيل الغزو المغولي كان في غالبيته يعتمد على العنصر العربي متمثلا في الخليفة وأهله، ثم من انضم إليهم من العمال والحاشية والأمراء والجند الذين تعود أصولهم إلى من تبقى من البويهيين والسلاجقة والفرس الذين عاشوا في بغداد وانخرطوا في طابعها الاجتماعي.

ب – تغير التركيبة السكانية لبغداد بعد الغزو

لكن التركيبة السكانية لبغداد تغيرت بعد الغزو المغولي، وكذلك الشأن بالنسبة للبناء الطبقي للمجتمع البغدادي؛ فالعنصر المغولي المصاحب لهولاكو توطن في البلاد المفتوحة، وصار أمراء المغول وجندهم يشكلون الطبقة الحاكمة، وانضم إليهم الفرس الإيرانيون من عمال المغول.

ومن ناحية الطبقات الاجتماعية، فمن الملاحظ أنّه « في العهد الإيلخاني المغولي أصاب التغيّر تركيب المجتمع العراقي فيما يتعلق بالصفوة أو الأعيان منه، بظهور سيطرة الأمراء المغول كفئة صغيرة، وازدياد سيطرة الإيرانيين وتساوي المسلمين وأهل

الذمة أمام السلطان إلى أيام محمود غازان (الذي تولى الحكم سنة ٦٩٤هـ/ ١٢٩٥م) ولكن المفاهيم الطبقية ظلت على خالها، وكان قادة المجتمع بنظر المعاصرين هم السلاطين والأمراء والحكام والعلماء ورجال الدين والتجار والأغنياء»[١].

وفي حين «كان الخليفة رأس المجتمع العراقي ورمز وحدته وقوته السياسية، يتلوه عدد من أقاربه وقادة جيشه، حلّ السلطان الإيلخاني محلّه، ولكنّه كان بعيدا عن العراق على الأكثر يقضي غالب أيامه في إيران»[٢].

ولم تستمر السلطة الإسلامية متمثلة في الخليفة المسلم، بل أصبح رأس السلطة وثنيا في معظم العقود الأولى من الدولة الإيلخانية، وهو هولاكو خان ثم ابنه آباقا خان، ثم تولى العرش السلطان المسلم أحمد تكودار فلم تزد مدته عن سنتين، ثم رجع الحكم الوثني في عهود أرغون بن آباقا ثم گيخاتو خان ثم بايدو خان ثم تحولت الدولة إلى الإسلام نهائيا بداية بعهد غازان فمن بعده من الإيلخانيين.

فيما يتعلق بالأمراء العباسيين وقادة الجيش العباسي من المماليك أصحاب النفوذ والثروة الطائلة التي اكتسبوها بتقربهم إلى الخليفة، فقد زالت تلك الطبقة بصورة كاملة «وحلّ محلهم أمراء المغول وقادة جيوشهم وخواتينهم ووزراؤهم وولاتهم، ولكن أكثر هؤلاء كانوا يقضون أوقاتهم في إيران، ومع ذلك فإن العلويين ظلوا طبقة اجتماعية محترمة ذات نفوذ كبير في بعض الأحيان، وأخذ قليل من العباسيين يظهرون بعد هدوء الأحوال وابتعاد أيام الفتح كفئة محترمة يرتبط وجودها بذكريات الدولة العباسية وأيامها وصبغتها الدينية»[٣].

---

(١) خصباك: العراق في عهد المغول الإيلخانيين، صـ٢٦٣.

(٢) خصباك: المرجع السابق، الصفحة نفسها.

(٣) خصباك: العراق في عهد المغول الإيلخانيين، صـ٢٦٣.

جـ- أبرز طبقات المجتمع البغدادي في ظلّ الحكم المغولي:

- أمراء المغول وجندهم

أضاف الغزو المغولي لبغداد عنصرا جديدا لعناصر السكان في بغداد، وتمثل هذا العنصر في "أمراء المغول وجندهم"؛ فقد صار هؤلاء يمثلون الطبقة العليا في طبقات المجتمع البغدادي بعد الغزو المغولي، وأصبح من المعتاد أن يتولى حاكم عسكري الإشراف على ولاية العراق بتكليف مباشر من الإيلخان، كما فعل هذا آباقا حان حين عين عهد بشئون فارس وبغداد إلى سونجاق نويان[١]، فأناب هذا الأمير عنه عطاملك الجويني في حكم وإدارة بغداد، وحينما تولى السلطان أحمد تكودار العرش أقر عطاملك في منصبه[٢]، وهكذا كان يتم فيما تلا ذلك من عهود، كما أصبح هناك "شحنة" (أي رئيس شرطة) مغولي على رأس ثلاثة آلاف فارس مقيمين في بغداد بوصفهم حامية مغوليّة[٣]، ولعلّ أبرز من تولى ذلك المنصب من المغول علي بهادر الخراساني، وقرابوغا وتوكال بخشي وتتاريقيا وتاولدار[٤].

وكعادة الأمراء والجند، فإنهم لم يخالطوا المجتمع البغدادي، بل صاروا منعزلين، وقد حدا ذلك بأحد الباحثين أن يقول: «لا نعرف عدد من سكن العراق من المغول بعد الفتح، ولكن الأخبار الضئيلة التي وصلتنا عنهم تشير إلى أنّ عددهم كان صغيرا لم

---

(١) فؤاد الصياد: الشرق الإسلامي في عهد الإيلخانيين، صـ٣٦؛ محمد السعيد جمال الدين: علاء الدين عطا ملك الجويني حاكم العراق، صـ١٤.

(٢) خصباك: المرجع السابق، صـ٢٦٥؛ فؤاد الصياد: الشرق الإسلامي في عهد الإيلخانيين، صـ١٢٤.

(٣) رشيد الدين: جامع التواريخ، م٢، جـ١، الترجمة العربية، صـ٢٩٥؛ خصباك: العراق في عهد المغول الإيلخانيين، صـ٢٦٤.

(٤) راجع: ابن الفوطي: الحوادث الجامعة، صـ٣٤٩، ٣٥٢، ٣٥٧؛ خصباك: المرجع السابق، صـ٢٦٤.

يغير في تركيب السكان، ولم يكون طبقة اجتماعية كبيرة منهم»[1]، لكنّ هذا الرأي فيما يبدو غير دقيق؛ ذلك أن انعزال الأمراء والجند عن المجتمع لا ينفي كونهم طبقة من طبقاته.

وقد مثلت تلك الطبقة أحد جانبي إدارة بغداد العسكرية والمدنيّة؛ ففي عهد هولاكو خان مثلا جُعلت الإدارة العسكرية لبغداد «تحت رئاسة الأمير سيف الدين علي بهادر الخراساني الذي كان أول جندي من جيش المغول يدخل بغداد ويفتح أبوابها لهم فأصبح بموجب ذلك الحاكم العسكري للمدينة»[2]، وبناء على ذلك «أصبحت من أهم واجباته المحافظة على الأمن العام بالقضاء على الثورات وأعمال الشغب والعصيان وكذلك مراقبة أعمال الديوان لضمان ولائه للدولة الإيلخانية حتى إنه أصبح فعلا السلطان على رؤساء إدارة العراق من الموظفين المدنيين»[3].



---

(1) خصباك: المرجع السابق، صـ٢٦٤.

(2) عبد المحمد آيتي: تحرير تاريخ وصاف، صـ٢٢؛ صبري سليم: الصراع السياسي والمذهبي بين الشيعة والسنة في عصر سيطرة إيلخانات المغول في إيران، صـ٢٣٨. راجع ترجمة علي بهادر لدى: الصفدي: صلاح الدين خليل بن أيبك: الوافي بالوفيات، الطبعة الأولى، دار نشر فرانزشتاينر، فيسبادن، ألمانيا، سنة ١٣٩٠هـ/ ١٩٧٠م، جـ١٠ ، صـ٢٩٤؛ ابن تغري بردي: جمال الدين أبو المحاسن يوسف: المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي، الطبعة الأولى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، سنة ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٤م، جـ٣، صـ٤٢٨.

(3) صبري سليم: الصراع السياسي والمذهبي بين الشيعة والسنة، صـ٢٣٨؛ وانظر: خصباك: العراق في عهد المغول الإيلخانيين، صـ٢٧٩- ٢٨٠؛ محمد القزاز: الحياة السياسية في العراق في عهد السيطرة المغولية، صـ٢١٩.

وقد حظيت طبقة الأمراء المغول بكثير من الامتيازات علاوة على قربها من البلاط المغولي، ومن تلك الامتيازات إعفاؤها من الروسوم والضرائب(١).

- **الفرس الإيرانيون الوافدون مع المغول**

رافقت الجيش المغولي مجموعة كبيرة من عمالهم الفرس الإيرانيين المسلمين، الذين اعتمد عليهم سلاطين المغول وأباطرتهم في حكم وإدارة مناطق إيران بوجه خاص، وكاد هؤلاء العمال يشكلون طبقة مستقلة نتيجة لبروز دورهم السياسي والإداري والاجتماعي في الدولة الإيلخانية، وقد مثل وجود بعض هؤلاء خيرا للرعايا المسلمين المغلوبين على أمرهم.

وقد ظلت طبقة العمال الفرس الذين استعملهم المغول الإيلخانيين في العراق شاهدا على استمرار وقوة المؤثرات الإيرانية على العراق، وهذه المؤثرات كانت ماثلة للعيان منذ أيام سيطرة البويهيين ثم السلاجقة على الخلافة العباسية، وحينما جاء الإيلخانيون المغول استمرت التأثيرات ذاتها واشتدت؛ فقد اتخذ الإيلخانيون إيران قاعدة لحكمهم «وأخذوا يذوبون في في ثقافتها، ويتخذون من الكثير من الإيرانيين مساعدين لهم في حكم إمبراطوريتهم التي كان العراق جزءا منها حتى يمكن القول إنّ الإيرانيين صاروا طبقة متنفذة مهمة في حكم العراق»(٢).

---

(١) السيد الباز العريني: المغول، الطبعة الأولى، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، سنة ١٤٠٢هـ/ ١٩٨١م، صـ٥٨؛ صبري سليم: المرجع السابق، صـ٣٧.

(٢) خصباك: العراق في عهد المغول الإيلخانيين، صـ٢٦٤.

«وقد كثر الحكام الفرس بالعراق ممن نجد أسماءهم في مراجع العصر المهمة مثل "الحوادث الجامعة" و"جامع التواريخ" وتلخيص مجمع الآداب»[١]، وغيرها.

وفي لمحة راصدة للتغيّر الاجتماعي الذي أصاب بغداد على أثر الغزو المغولي، أثبت القلقشندي ملاحظة جديرة بالتسجيل هنا، ألا وهي اشتداد دور طبقتي أمراء المغول وعمال الفرس في بغداد بعد الغزو المغولي. يقول القلقشندي: «ثم لمّا انقرضت الخلافة من بغداد في وقعة هولاكو ملك التتار في سنة (ستٍّ وخمسين وستمائة) واستولت المغل والأعاجم على بغداد، بطل رسم الكتابة المعتبرة (يعني بالعربية) وصار أكثر ما يُكتَب عن ملوك التتار بالمغلية أو الفارسية»[٢].

أمثلة من هذه الطبقة:

آل الطوسي

نال آل الطوسي منزلة اجتماعية سامية في العهد الإيلخاني وتولى بعضهم أرفع المناصب الإدارية والمالية؛ وذلك نتيجة للمكانة التي حظي بها عميدهم نصير الدين محمد الطوسي الذي التحق بخدمة هولاكو بعد استيلاء المغول على قلاع الملاحدة الإسماعيليّة سنة ٦٥٤هـ، فقد صحب الطوسي هولاكو وجيشه وكان بمثابة مستشاره وكاتب رسائله ومنجم بلاطه[٣].

---

(١) خصباك: المرجع السابق، صـ٢٦٥.

(٢) صبح الأعشى، جـ١، صـ٩٤.

(٣) أ. ج. آربري: تراث فارس، الطبعة الأولى، نقله إلى العربية مجموعة من أساتذة كلية الآداب، جامعة القاهرة، واشترك في ترجمته وراجعه الدكتور يحيى الخشاب، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، سنة ١٣٧٩هـ/ ١٩٥٩م، صـ٣٨٩؛ محمد أحمد محمد: إسلام الإيلخانيين، الطبعة الأولى، شركة الصفا للطباعة والترجمة والنشر، القاهرة، سنة ١٤١٠هـ/ ١٩٨٩م، صـ٢٨؛ كارل بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية، الطبعة ==

ولعل أبرز إنجازات نصير الدين الطوسي في عهد الإيلخانيين إنشاء المرصد الفلكي بالعاصمة الإيلخانية الأولى مراغة بتكليف من هولاكو[1]، وكان هذا المرصد صرحا علميا ضخما شارك في إنشائه نخبة من علماء العصر مختلفي التخصصات، الذين استقدمهم الطوسي من مختلف الأقطار، وقد أنفق الطوسي عليه أموالا ضخمة مفوضا من هولاكو، فكان أقلَّ ما أخذه بعد الفراغ من بناء المرصد لأجل الآلات وإصلاحها فقط عشرين ألف دينار خارجا عن رواتب الحكماء والقوَمة[2].

وقد تولى الطوسي عدّة مناصب كان من أبرزها –علاوة على كونه مستشار هولاكو– ولاية الأوقاف الإسلاميَّة بالبلاد التي استولى عليها المغول الإيلخانيّون، فقد فوضه هولاكو في التصرف في أموال الأوقاف المنتشرة في البلاد الإيلخانية، فكان له نائب في كل ولاية من الولايات يستغل الأوقاف ويرسل للطوسي عُشر حاصلها ليتم الإنفاق منه على مرصد مراغة[3]، ويشهد عدد من المؤرخين بأنّ الطوسيّ كان كثير المتابعة لشئون الأوقاف الإيلخانية والرقابة على عمالها[4]، وقد ظلّ الطوسي في منزلة

==الخامسة نقله عن الألمانية نبيه أمين فارس، ومنير البعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، سنة ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م، صـ٣٨٩؛ صبري سليم: الصراع السياسي والمذهبي بين الشيعة والسنة، صـ٢٩٢.

(١) المقريزي: تقي الدين أبو العباس أحمد بن علي: السلوك لمعرفة دول الملوك، الطبعة الأولى، القاهرة، سنة ١٣٥٣هـ/ ١٩٣٢م، جـ١، ق٢، صـ٤٦٠؛ عبد المحمد آيتي: تحرير تاريخ وصاف، صـ٢٩.

(٢) الصفدي: الوافي بالوفيات، جـ١، صـ١٨١؛ ابن شاكر الكتبي: فوات الوفيات والذيل عليها، جـ٣ ، صـ٢٥٠؛ صبري سليم: المرجع السابق، صـ٢٩٨.

(٣) ابن العبري: تاريخ الزمان، صـ٣٣٠؛ عباس إقبال: تاريخ مفصل إيران، الترجمة العربية، صـ١٩١؛ صبري سليم: الصراع السياسي والمذهبي بين الشيعة والسنة، صـ٢٩٨.

(٤) راجع: رشيد الدين: جامع التواريخ، م٢، جـ٢، الترجمة العربية، صـ٥؛ ابن الفوطي: الحوادث الجامعة، صـ٣٥٠؛ ابن كثير: البداية والنهاية، جـ١٣، صـ٢٤٢؛ العيني: عقد الجمان، جـ١، صـ٣٨٧.

سامية بالبلاط الإيلخاني حتى توفي في عهد آباقا خان في شهر ذي الحجة سنة ٦٧٢هـ[1]./ يونيو ١٢٧٤م.

وبعد وفاة نصير الدين الطوسي توارث أبناؤه منصب الولاية على الأوقاف الإسلامية في البلاد الإيلخانية في معظم الفترات، وحازوا المال والجاه، وقد ازدهرت شئونهم في عهد أرغون خان بن آباقا، الذي فوض إلى فخر الدين أحمد بن نصير الدين الطوسي شئون الأوقاف الإسلامية في كافة الممالك الإيلخانية سنة ٦٨٣هـ/ ١٢٨٤م، فاتخذ عدة إجراءات مالية وإدارية مؤثرة في شئون الأوقاف آنئذ[2].

ومن الجدير بالملاحظة أنّ أبناء الطوسي عُهد إليهم آنئذٍ بالإشراف على المدارس السنيّة الكبرى كالمدرسة المستنصرية ببغداد؛ فقد كان فخر الدين أحمد بن نصير الدين يقوم بتعيين المدرسين والفقهاء بتلك المدرسة وتحديد رواتبهم[3]، وقد واصل فخر

---

(١) الإدفوي: جعفر بن ثعلب بن جعفر كمال الدين أبو الفضل: البدر السافر في أنس المسافر، مخطوط رقم (٨١) بمعهد إحياء المخطوطات العربية بالقاهرة، صـ٥٥؛ ابن الشحنة: أبو الوليد محمد بن كمال الدين محمد بن محمود: روض المناظر في علم الأوائل والأواخر، مخطوط رقم (٢٧٠) بمعهد إحياء المخطوطات العربية بالقاهرة، صـ٧١؛ الديار بكري: حسين بن محمد: تاريخ الخميس في أحوال أنفس نفيس، الطبعة الأولى، المطبعة الوهبية، القاهرة، سنة ١٢٨٣هـ/ ١٨٦٦م، جـ٥ ، صـ٣٧٩.

(٢) ابن الفوطي: الحوادث الجامعة، صـ٤٤٣؛ محمد القزاز: الحياة السياسية في العراق في عهد السيطرة المغولية، صـ٢٨٨؛ صبري سليم: الصراع السياسي والمذهبي بين الشيعة والسنة، صـ٣٧٣.

(٣) محمد رضا الشبيبي: مؤرخ العراق ابن الفوطي، الطبعة الأولى، مطبوعات المجمع العلمي العراقي، بغداد، سنة١٣٧٠- ١٣٧٨هـ/ ١٩٥٠- ١٩٦٨م، جـ٢ صـ٢٠٩؛ ناجي معروف: تاريخ علماء المستنصرية، الطبعة الثالثة، مؤسسة دار الشعب، القاهرة، سنة ١٣٩٥هـ/ ١٩٧٥م، جـ١، صـ٦٦.

الدين اتباع سياسة والده في الاهتمام بخزانة كتب المستنصرية وتزويدها بكل جديد[1]، وهكذا كان لآل الطوسي إسهام واضح في الحياة العامة ببغداد في العصر الإيلخاني.

آل الجويني

كانت الأسرة الجوينية من أبرز الأسر التي أسهمت بدور ملحوظ في الحياة السياسية والاجتماعية في الدولة الإيلخانية، وقد مثل وجودهم في خدمة المغول بعض الخير والمنافع بالنسبة للرعايا المسلمين المغلوبين على أمرهم تحت حكم المغول.

ومن أبرز أفراد الأسرة الجوينية في عهد المغول الإيلخانيين:

عطا ملك الجويني صاحب ديوان بغداد

هو المؤرّخ علاء الدين عطا ملك بن محمد الجويني الذي كان والده من كبار عمّال المغول في إيران قبل قدوم هولاكو إليها، وحينما قصد هولاكو وجيشه إيران سنة ٦٥٤هـ/ ١٢٥٦م للقضاء على الإسماعيلية وإسقاط الخلافة العباسيّة، تم اختيار علاء الدين عطا ملك ليكون ملازما لخدمة هولاكو، ومنذ ذلك الحين أصبح علاء الدين من خواص الملازمين والكتاب لهولاكو ومن المقربين إليه[2].

وبعد استيلاء المغول على بغداد بسنة واحدة، أي في سنة ٦٥٧هـ/ ١٢٥٩م، ولّى هولاكو علاء الدين حاكما على ولاية بغداد وصاحبا لديوانها، فتولى تدبير شئونها

---

(1) ناجي معروف: تاريخ علماء المستنصرية، جـ٢، صـ٤٢٤؛ صبري سليم: المرجع السابق، صـ٣٧٤.

(2) تاريخ جهانكشاي، جـ٣، صـ١٠٠؛ محمد السعيد جمال الدين: علاء الدين عطا ملك الجويني حاكم العراق، صـ٧.

المالية والإدارية منذ ذلك الحين[١]، وقد استمر في منصبه على مدى عهد هولاكو خان، ثم أقرّه آباقا خان في المنصب ذاته «وطوال فترة حكم آباقا خان كان علاء الدين عطاملك حاكما على بغداد، وكلّ العراق العربي من قِبل الأمير سونجاق، وكان هذا فقط من الناحية الاسمية، أما في الواقع وحقيقة الأمر فإنّ هذا المؤرخ كان مستقلا استقلالا تاما في إدارة شئون هذه المناطق، وخلال هذه الفترة بذل كلّ ما في وسعه في سبيل إصلاح إقليم العراق العربي وتعمير الخرائب التي أحدثها المغول، وكذلك أنشأ قرى وقصبات كثيرة، وأجرى الأنهار من أجل الزراعة، وحوّل الأراضي البور إلى مناطق زراعيّة خصبة، ووفّق في هذا السبيل توفيقا كبيرا»[٢].

وعلى الرغم من كثرة الوشايات والمؤامرات التي تعرض لها علاء الدين الجويني[٣]، فقد بقي في منصبه بفضل مساندة أخيه الوزير شمس الدين محمد صاحب الديوان، حتى أوائل عهد السلطان أحمد تكودار بن هولاكو، ثم توفي وفقا للرأي الراجح في الرابع من ذي الحجة سنة ٦٨١هـ[٤]/ ١٢٨٢م بعد أن تولى صحابة ديوان ولاية بغداد والعراق العربي إحدى وعشرين سنة وشهورا كان فيها عادلا حسن السيرة أديبا فاضلا[٥].

---

(١) ابن الفوطي: الحوادث الجامعة، صـ٣٣٩؛ محمد السعيد جمال الدين: المرجع السابق، صـ١٣.

(٢) فؤاد الصياد: الشرق الإسلامي في عهد الإيلخانيين، صـ٣٧.

(٣) راجع تفاصيل تلك الوشايات لدى: فؤاد الصياد: المرجع السابق، صـ٣٧ فما بعدها؛ محمد السعيد جمال الدين: علاء الدين عطا ملك الجويني حاكم العراق، صـ١٨ فما بعدها.

(٤) رشيد الدين: جامع التواريخ، م٢، جـ٢، الترجمة العربية، صـ٩٩؛ ابن الفوطي: الحوادث الجامعة، صـ٤٢٣؛ فؤاد الصياد: الشرق الإسلامي في عهد الإيلخانيين، صـ١٣٠.

(٥) ابن الفوطي: الحوادث الجامعة، صـ٤٢٣.

الوزير شمس الدين محمد الجويني

الشخصية الثانية التي كان لها دور سياسي وحضاري بارز في الدولة الإيلخانية تمثلت في الوزير شمس الدين محمد بن بهاء الدين محمد الجويني[1]، أخي المؤرخ علاء الدين عطا ملك حاكم العراق، فقد تولى منصب صاحب ديوان الممالك الإيلخانية فصار الوزير الأعظم للدولة في عهود هولاكوخان وآباقا خان وأحمد تكودار، ولم يكن مستقرا في بغداد، بل في بلاط الإيلخان بمدينة تبريز الواقعة في إقليم آذربيجان، لكنّه كان يقوم ببعض المهام في الولايات الإيلخانية بين الحين والآخر مكلَّفا من قبل الإيلخان.

والظاهر أنّ تعيين علاء الدين عطا ملك الجويني صاحبا لديوان ولاية بغداد والعراق العربي في عهود كل من هولاكو وآباقا وأحمد تكودار، وكونه هدفا للعديد من الوشايات والمؤامرات، كانا على رأس الأسباب التي دفعت الوزير شمس الدين إلى كثرة زيارة تلك الولاية ومراقبة عمالها، والدفاع عن أخيه ضدّ المتآمرين والوشاة؛ فمن ذلك ما يذكره ابن الفوطي في حوادث سنة ٦٦٠هـ (١٢٦١م) عن "عماد الدين عمر بن محمد القزويني"، أحد مساعدي علاء الدين في إدارة العراق العربي، الذي كان من أعداء الأسرة الجوينية. يقول ابن الفوطي: «لما كان الصاحب شمس الدين بالعراق (يعني في السنة الماضية وهي سنة ٦٥٩هـ/ ١٢٦٠م) أخذ خطوط الولاة والأكابر بما صار إليه من الأموال، وعرض ذلك على السلطان (يعني هولاكو خان) فأمر بالفحص عنه، فثبت عليه أكثره، فأمر بقتله»[2].

ومن ذلك أيضا أنّ الوزير شمس الدين نزل العراق سنة ٦٦٠هـ/ ١٢٦١م، وقبض على مجد الدين صالح بن الهذيل حاكم مدينة واسط، وطالبه بالأموال الديوانية

---

(1) حول هذا الوزير ودوره السياسي والحضاري تفصيلا راجع: مصطفى حسين: الدور السياسي والحضاري للوزراء زمن المغول الإيلخانيين في إيران، م١، صـ٩١ فما بعدها.

(2) الحوادث الجامعة، صـ٣٤٨- ٣٤٩؛ مصطفى حسين: المرجع السابق، م١، صـ١٢٩.

المتأخرة عليه، وشدّد عليه، وأمر بضربه وتعذيبه، وطيف به في واسط، ثم استوفى منه الوزير بعض الأموال، وقبض على أصحابه ونوابه وطالبهم بالأموال، ثم عزله عن الأعمال الواسطية وعيّن آخر بدلا منه(١).

وقد امتدح كثير من المؤرخين الأخوين شمس الدين وعلاء الدين الجويني وأثنوا على جهودهما في خدمة مجتمعهما والتخفيف عن الرعايا المغلوبين على أمرهم تحت الحكم المغولي. ومن أولئك المؤرخين ابن شاكر الكتبي الذي يقول: « كان علاء الدين وأخوه (يعني شمس الدين) فيهما كرم وسؤدد وخبرة بالأمور وعدل ورفق بالرعية وعمارة البلاد... وكان الفاضل إذا عمل كتابا ونسبه إليهما يكون جائزته ألف دينار، وكان لهما إحسان إلى العلماء والفضلاء، ولهما نظر في العلوم الأدبية والعقلية»(٢).

وإلى جانب علاء الدين عطا ملك الجويني وأخيه الوزير شمس الدين برز أيضا ابنا الوزير شمس الدين: بهاء الدين محمد، وشرف الدين هارون، فأما بهاء الدين فقد كان حاكم العراق العجمي في الفترة من سنة ٦٦٣هـ/ ١٢٦٤م حتى وفاته سنة ٦٧٩هـ/ ١٢٨٠م، كما كان على النقيض تماما من والده؛ فقد كان ظالما مرهقا للرعية سفاكا للدماء(٣).

---

(١) ابن الفوطي: الحوادث الجامعة، صـ٣٤٩؛ خصباك: العراق في عهد المغول الإيلخانيين، صـ٨٢؛ مصطفى حسين: الدور السياسي والحضاري للوزراء زمن المغول الإيلخانيين في إيران، م١، صـ١٢٩.

(٢) فوات الوفيات، جـ٣، صـ٢٤٧- ٢٤٨.

(٣) ميرخواند: تاريخ روضة الصفا، جـ٥ صـ٢٧٩- ٢٨٠؛ خواندمير: تاريخ حبيب السير، م٣، جـ١، صـ١٠٩.

وأما شرف الدين هارون فقد كان من فضلاء عصره، كما كان مجلسه مجمع العلماء البارزين في مختلف العلوم[1]، وقد تولّى حكم ديار بكر والموصل وأربيل في عهد السلطان أحمد تكودار، ثم حلّ محلّ عمه علاء الدين في صحابة ديوان العراق بعد وفاته في ذي الحجة سنة ٦٨١هـ[2]/ ١٢٨٢م، فبقي في منصبه حتى قتل في عهد أرغون بن آباقا الذي انقلب على عمه السلطان أحمد سنة ٦٨٣هـ/ ١٢٨٤م.

آل الزنجاني

من الأسر الديوانية التي برزت في طبقة الفرس الإيرانيين الوافدين مع المغول، فكان لها أثرها الواضح في المجتمع البغدادي أيضا الأسرة الزنجانية، وقد تولى أفرادها المناصب السياسية والإدارية الديوانية الرفيعة في الدولة الإيلخانية، فكان من بينهم:

الوزير صدر جهان[3]

هو صدر الدين أحمد بن عبد الرازق بن أحمد الخالدي الزنجاني الشهير بصدر جهان، تعود أصوله إلى أسرة اشتهرت بتولي منصب القضاء في زنجان[4]، التحق بخدمة أحد كبار أمراء المغول في عهد أرغون خان وهو الأمير طغاجار نويان فنال

---

(١) ابن الفوطي: الحوادث الجامعة، صـ٢٧٤؛ صبري سليم: الصراع السياسي والمذهبي بين الشيعة والسنة، صـ٣١١.

(٢) رشيد الدين: جامع التواريخ، م٢، جـ٢، الترجمة العربية، صـ٩٩؛ مصطفى حسين: الدور السياسي والحضاري للوزراء زمن المغول الإيلخانيين في إيران، م١، صـ١٥٧.

(٣) حول هذا الوزير راجع مصطفى حسين: المرجع السابق، م٢، صـ٣٩٧ فما بعدها.

(٤) كرمانى: ناصر الدين منشى: نسائم الأسحار من لطائم الأخبار در تاريخ وزراء، (مؤلّف بسال ٧٢٥هـ)، بتصحيح ومقدمه وتعليق مير جلال الدين حسينى ارموى محدّث، انتشارات دانشگاه تهران، بى تاريخ، صـ١٠٩؛ خواندمير: دستور الوزراء، صـ٣٠٥، الترجمة العربية، صـ٣٦٦.

بفضله منزلة سامية نتيجة لفصاحته ومعرفته بلغة المغول، وما لبث أن اتخذه طغاجار نائبا عنه، وفوض إليه التصرف في شئونه كافة، فكان يطيعه في كل شيء وهذا جعل الزنجاني يفصل في كافة أمور ذلك الأمير دون مشورته[١].

وقد مكنت الزنجاني منزلته لدى طغاجار نويان فيما بعد من تولي منصب الوزارة العظمى للدولة، أي صحابة ديوان الممالك ثلاث مرات: استغرقت الأولى عهد گيخاتو خان[٢]، والمرتان الأخريان في عهد غازان خان، وقد ازدهرت شؤون الأسرة الزنجانية بفضل نفوذ هذا الوزير الذي فوضه گيخاتو خان في كافة شؤون الملك والمال في البلاد.

زين الدين محمد الزنجاني

كان من أبرز الشخصيات المؤثرة في الحياة الاجتماعية في بغداد زين الدين محمد أخو الوزير صدر الدين الزنجاني؛ فقد نال بتوسط أخيه منصب قاضي قضاة بغداد في عهد گيخاتو خان سنة ٦٩٣هـ/ ١٢٩٣م.

يقول ابن الفوطي:[٣] في حوادث تلك السنة: «وفيها وصل إلى بغداد زين الدين محمد الخالدي على أنه قاضي القضاة متولي الوقوف والوكالة والتركات والمقاطعات

---

(١) الكرماني: نسائم الأسحار، صـ١٠٩؛ عقيلى: سيف الدين حاجى بن نظام: آثار الوزراء (از كتب مؤلفه در نيمۀ قرن نهم هجرى)، بتصحيح وتعليق مير جلال الدين حسينى ارموى محدث، انتشارات دانشگاه تهران، شمارۀ ٥٢٨، تهران، ١٣٣٧هـ . ش، صـ٢٨٢.

(٢) مصطفى حسين: الدور السياسي والحضاري للوزراء زمن المغول الإيلخانيين في إيران، م٢، صـ٤٠١.

(٣) الحوادث الجامعة، صـ٤٧٨.

و... فلم يُمض شمس الدين محمد السكورجي[١] له من ذلك غير القضاء والحسبة، فحكم إلى آخر السنة وعاد إلى الأردو (يعني معسكر گيخاتو)، واستخلف أحد أصحابه على منصبه».

وكان استقرار زين الدين في قضاء قضاة بغداد مرتبطا باستقرار أخيه الوزير صدر جهان في الوزارة، يشهد على ذلك أنّه حينما عُزل الأخير عن منصبه في عهد بايدو القصير (ستة أشهر من سنة ٦٩٤هـ)، عُزل زين الدين وعُيِّن قاضٍ آخر بدلا منه هو جمال الدين عبد الجبار البصري[٢]، وحينما رجع صدر جهان إلى الوزارة مرة أخرى في سنة ٦٩٦هـ/ ١٢٩٦م في عهد السلطان محمود غازان، أعيد زين الدين محمد إلى قضاء القضاة ببغداد من جديد[٣].

وحينما أعيد زين الدين إلى منصبه صار يعتمد أكثر من ذي قبل على نفوذ أخيه الوزير صرجهان، ويتقوى به في صراعه مع منافسيه، ومن شواهد ذلك ما يرويه ابن الفوطي من أنّ زين الدين حينما وصل إلى بغداد في سنة ٦٩٦هـ/ ١٢٩٦م لتقلد منصب قاضي القضاة، دخل في صراع مع القاضي المعزول فاستنصر بأخيه الوزير، وفي ذلك يقول ابن الفوطي: «وجرى بينه (أي زين الدين) وبين قاضي القضاة عماد الدين البصري من المنافسة على المنصب والحكم أشياء لا يليق ذكرها، فاستظهر زين الدين عليه بمساعدة أخيه صدر الدين صاحب ديوان الممالك، وطولب عماد الدين

---

(١) هو شمس الدين محمد التركستاني المعروف بالسكورچي، تولى حكومة العراق في عهد گيخاتو خان في أوائل سنة ٦٩٣هـ/ ١٢٩٤م فأقام العدل وأحسن إلى الناس، لكنه ما لبث أن عُزل في السنة التالية، ثم نُكب هو وآله وصودرت أموالهم. راجع: ابن الفوطي: المصدر السابق، صـ٤٧٥- ٤٧٦، ٤٧٨، ٤٨١- ٤٢٨.

(٢) ابن الفوطي: الحوادث الجامعة، صـ٤٨٤.

(٣) ابن الفوطي: المصدر السابق، صـ٤٩٤؛ مصطفى حسين: الدور السياسي والحضاري للوزراء زمن المغول الإيلخانيين في إيران، م٢، صـ٤٠٧.

بحقوق ديوانية كان قد سومح بها أبوه في البصرة، وسُلِّم إلى من يستوفي ذلك منه، فأدى بعضه ببغداد، ثم انحدر إلى البصرة لاستيفاء الباقي فهرب واعتصم بالبطائح»[١].

قطب الدين حَمد (قاضي قضاة الممالك)

هو أحد أفراد آل الزنجاني الذين برز دورهم في طبقة الفرس الإيرانيين أيضا، وقد اعتمد هو الآخر على نفوذ أخيه الوزير صدر جهان، ونال منصب قاضي قضاة الممالك الإيلخانية بفضل أخيه كما شهد بذلك المؤرخان رشيد الدين[٢] وابن الفوطي[٣] المعاصران للأحداث، وقد نال قطب جهان سلطة ونفوذا واسعا حتى عهد إليه أخوه الوزير صدر جهان بحكومة العاصمة الإيلخانية تبريز[٤].

آل الدامغاني

من الأسر التي استمر بروزها في العصر الإيلخاني في المجتمع العراقي أيضا آل الدامغاني الذين تعود أصولهم إلى دامغان في إيران، وقد استوطنوا بغداد منذ أيام

---

(١) الحوادث الجامعة، صـ٤٩٤- ٤٩٥؛ مصطفى حسين: الدور السياسي والحضاري للوزراء زمن المغول الإيلخانيين في إيران، م٢، صـ٤٠٧.

(٢) جامع التواريخ، م٢، جـ٢، الترجمة العربية، صـ١٧٩.

(٣) مجمع الآداب في معجم الألقاب، خمسة أجزاء، تحقيق محمد الكاظم، الطبعة الأولى، مؤسسة الطباعة والنشر، وزارة الثقافة والإرشاد الإسلامي، طهران، سنة ١٤١٦هـ، جـ٣، صـ٣٧٥، ترجمة رقم٢٧٨٩.

(٤) رشيد الدين: جامع التواريخ، م٢، جـ٢، الترجمة العربية، صـ١٧٩؛ مصطفى حسين: المرجع السابق، م٢، صـ٤٠٦.

الخليفة القائم بأمر الله العباسي[1]، واشتهر من بينهم عدد من القضاة، وفي عهد الخليفة العباسي الأخير المستعصم بالله كان عميدهم فخر الدين بن الدامغاني يشغل منصب "صاحب ديوان بغداد" منذ سنة ٦٤٣هـ/ ١٢٤٥م « وقد تنقل في الوظائف الكبيرة وولي صدرية عرض الجيش وأخيرا لي ديوان الزمام سنة ٦٤٨هـ»[2]/١٢٥٠م.

وعندما هاجم المغول بقيادة هولاكو بغداد وحاصروها سنة ٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م كان فخر الدين ابن الدامغاني أحد أفراد الوفد الذي خرج لمقابلة هولاكو في أثناء الحصار، وقد عامله هولاكو بإكرام «بأن جعل بيته دار آمنة لمن يلوذ بها عند اقتحام بغداد، وفي سنة ٦٥٧هـ (١٢٥٩م) سافر إلى معسكر هولاكو في آذربيجان، وعرض عليه شؤون الإدارة في العراق فأوشك هولاكو أن يفوض إليه حكومة العراق لولا وشاية ابن عمران الباجرائي، الذي اتهم الدامغاني بإطلاق بعض ذرية العباسيين من سجن المدائن وإرسالهم إلى الشام ومصر فأمر هولاكو باعتقاله حيث توفي في نواحي "أشنويه" بأرومية في رجب سنة ٦٥٨هـ (١٢٦٠م) ودفن هناك»[3].

المبحث الرابع: الاستقرار الإداري وأثره في إعادة إعمار بغداد

لا شكّ أنّ الضربة التي تلقتها مدينة بغداد على أيدي المغول لم تكن بالقليلة، بل أصابتها إصابة بالغة وأضرّت بها وخاصة من الناحية العمرانية؛ إذ المشهور عن

---

(١) خصباك: العراق في عهد المغول الإيلخانيين، صـ٢٥٥.

(٢) خصباك: المرجع السابق، صـ٢٥٦. وراجع ابن الفوطي: تلخيص مجمع الآداب، جـ٤، ق٣، صـ٩٩.

(٣) صبري سليم: الصراع السياسي والمذهبي بين الشيعة والسنة، صـ٢٣٩؛ وراجع ابن الفوطي: مجمع الآداب في معجم الألقاب، جـ٤، ق٣، صـ٩٩؛ محمد رضا الشبيبي: مؤرخ العراق ابن الفوطي، جـ٢، صـ١٢٨؛ القزويني: حواشي وتعليقات على تاريخ جهانكشاي، جـ٢، صـ٤٧٣.

المغول أنهم لم يكونوا يكتفون بالهجوم العسكري على الجيوش التي تواجههم، بل كانوا يهدمون ويدمّرون حتى بعد انتصارهم، وهذا ما فعلوه في مدن الدولة الخوارزمية كبخارى وسمرقند وغيرهما، وقد أعملوا في بغداد التخريب والسلب والنهب ولم يكتفوا –كعادتهم– بالاستيلاء عليها.

وبشهادة مؤرخ المغول رشيد الدين «فقد احترق أكثر الأماكن المقدسة في المدينة مثل جامع الخليفة ومشهد موسى الجواد عليه الرحمة وقبور الخلفاء»[١]، أما ابن العبري –وهو معاصر للأحداث كرشيد الدين – فيذكر أنّ نهب بغداد استمر سبعة أيام ثم رُفع بعدها السيف وتوقف السّبي[٢].

وعلى هذا لم تستمر الأعمال العسكرية والهجوم والتخريب سوى أيام معدودات، بعدها أمر هولاكو بالتوقف عن القتل والنهب؛ لأن بغداد أصبحت ملكا له، كما أمر بأن يستقر الأهالي وينصرف كل شخص إلى عمله، وبذلك وجد الأمان أولئك الذين نجوا من السيف[٣]، ثم شرع هولاكو في تنظيم الشؤون الإدارية وتولية العمال والموظفين، وبمرور الزمن بعد الاستيلاء على بغداد أخذت الحياة تعود للمدينة من جديد، وكان على الذين تمكنوا من البقاء أحياء أن يرضوا بالأمر الواقع ويباشروا حياتهم «ثم بادر كل شخص بدفن قتلاه، وطُهِّرت الطرق من جثث الحيوانات النافقة وعمرت الأسواق»[٤].

وقد بلغ من شدة حرص هولاكو على السيطرة الإدارية على بغداد سريعا وإقرار الوضع الأمني أنه «في نفس اليوم الذي قتلوا فيه الخليفة (١٤ صفر سنة ٦٥٦هـ/

---

(١) جامع التواريخ، م٢، جـ١، صـ٢٩٢– ٢٩٣.

(٢) تاريخ مختصر الدول، وقف على طبعه ووضع حواشيه الأب أنطون صالحاني اليسوعي، الطبعة الثانية، المطبعة الكاثوليكية ، بيروت، سنة ١٩٥٨م، صـ٢٧٢.

(٣) انظر: رشيد الدين: جامع التواريخ، م٢، جـ١، صـ٢٩٣.

(٤) رشيد الدين: جامع التواريخ، م٢، جـ١، صـ٢٩٥.

١٢٥٨م)، أرسلوا إلى المدينة مؤيد الدين ابن العلقمي ليقوم بالوزارة، وفخر الدين الدامغاني ليكون صاحب الديوان، وجعلوا علي بهادر شحنة لها، وعينوا المحتسبين لمراقبة المقاييس والأوزان، ونصبوا عماد الدين عمر القزويني نائبا للأمير "قراتاي"... كذلك نُصّب نجم الدين أبو جعفر أحمد ابن عمران الملقب براست دل (المخلص) واليا على أعمال شرقي بغداد، مثل طريق خراسان وخالص وبندنجين، وأمر هولاكو بأن يكون نظام الدين عبد المؤمن البندنجيني قاضيا للقضاة، واختار إيلكا نويان وقرابوقا ومعهما ثلاثة آلاف من فرسان المغول، وبعث بهم إلى بغداد ليقوموا بالعمارة في الحال، وليعملوا على استتباب الأمن»[١].

وعلى هذا الأساس فقد بدأ الاستقرار الإداري في بغداد يظهر تدريجيا في مدة قصيرة بعد الغزو المغولي «وعندما استولي المغول على أملاك الدولة الخوارزمية والخلافة العباسية، فإنهم أبقوا على الديوان وسيطروا من خلاله ماليا وإداريا على البلاد»[٢].

وكان يرأس هذا الديوان "الوزير الأعظم" الذي كان يحمل لقب "صاحب ديوان الممالك"، وقد بلغ من قوة الاستقرار الإداري لمؤسسة الديوان في العصر الإيلخاني، أنّه في عهد الإيلخانيين، وبعد مرحلة من الإدارة السيئة ظهرت بعد الهجوم المغولي المخرِّب، تم إحياء الجهاز الإدارى للبلاد من جديد، واستعاد الديوان ازدهاره السابق،

---

(١) رشيد الدين: المصدر السابق، صـ٢٨٩.

(٢) مصطفى حسين: الدور السياسي والحضاري للوزراء زمن المغول الإيلخانيين، م١، صـ١٢٣.

وأصبح الديوان يشكل القاعدة الإدارية الأساسية في البلاد، والعقل المدبِّر للحكومة الإيلخانية، وبؤرة نفوذها وسلطتها السياسية والإدارية[1].

وقد نما الديوان المركزي على نحو ملحوظ ونمت كذلك دواوين الولايات ومنها ولاية بغداد، وتعددت هيئات الديوان وتنظيماته ومراتب وظائفه، وتنوعت كذلك نظمه ومكاتباته، وأصبح هذا التعدد والتنوع يشكلان نموذجا للتنمية السريعة والتطور العظيم لجهاز إداري في ظروف تاريخية واجتماعيه صعبة[2].

وإلى جانب الديوان المركزي في العاصمة الإيلخانية، تم إنشاء عدة دواوين في عواصم الولايات، كلّ ديوان منها يتولى حكم وإدارة الولاية ويرأسه "صاحب الديوان"، وعلى هذا الديوان كان اعتمادهم الأكبر في استيفاء الضرائب وتنظيم الشئون الإدارية والمالية وتعمير الولاية، وكانت إدارة هذا الديوان شركة بين ثلاثة: الشِّحْنَة المغولي (أو رئيس الشرطة)، والوالي أو الحاكم الإداري المغولي، وكان يتم اختيارهما من أمراء المغول في الغالب، أما الثالث فهو "صاحب الديوان"، ويكون من أرباب القلم الخبراء بالشئون المالية والإدارية[3].

وعلى هذا النحو من الضبط والتنظيم كان ديوان بغداد المالي والإداري الذي كان يشكل أحد أبرز أدوات الحكومة الإيلخانية في التأثير على الحياة البغدادية بعد استقرار بغداد في حوزتهم، وقد مارس هذا الديوان دوره في إزالة خرائب الغزو المغولي ونقل بغداد إلى مرحلة الاستقرار الأمني وإعادة الإعمار.

---

(1) زاده: هاشم رجب: آئين كشورداری در عهد وزارت رشيد الدين فضل الله همذانی، ترجمة خلاصة صـ١٨٤– ١٨٥ إلى العربية بتصرف.

(2) المرجع السابق، صـ١٨٥؛ مصطفى حسين: الدور السياسي والحضاري للوزراء زمن المغول الإيلخانيين، م١، صـ١٢٣.

(3) مصطفى حسين: المرجع السابق، م١، صـ١٢٤، بتصرف.

وقد حدث تطور ملموس في إدارة العراق كان له أثره البالغ على حياتها الاقتصادية والاجتماعية بوجه خاص؛ فبعد أن كانت بغداد في العصر العباسي مركزا للعديد من الدواوين التي تشرف على شؤون العراق العامة كديوان الزمام وديوان الإنشاء وديوان الجوالي وديوان عرض الجيش وديوان التركات وديوان الحسبة وديوان المقاطعات وغيرها، تغير كل هذا ولم نعد نسمع عن تلك الدواوين شيئا في عهد المغول الإيلخانيين، والراجح أنها ألغيت أكثرها بعد سقوط بغداد، واستُبقي ديوان الوزير الذي أصبح يطلق عليه "الديوان" كما بقي كذلك ديوان الزمام وصدره المسمّى صاحب الديوان، ثم أُدمج الديوانان في ديوان واحد صار رئيسه يسمّى صاحب الديوان(١).

وقد اعتمد المغول الإيلخانيون أسلوبا واحدا في حكم وإدارة ولاية بغداد وغيرها من الولايات الإيلخانية، ويتمثل هذا الأسلوب في تعيين حاكم عسكري مغولي لكل منطقة، تتبعه حامية عسكرية تضمن خضوع الأهالي للسلطة، ثم تعيين إدارة مدنية يرأسها حاكم إداري من السكان المحليين(٢)، وقد اقتضى ذلك الإبقاء على بعض الحكام المحليين الذين أذعنوا للمغول وأعلنوا تبعيتهم وولاءهم(٣). وهذا هو الإجراء الذي اعتمده المغول الإيلخانيون في حكم وإدارة ولاية بغداد.

ولقد كان لسقوط العراق عامة وبغداد خاصة تحت حكم المغول نتيجة شديدة الأهمية والتأثير على الرعايا المغلوبين على أمرهم، وكان هذا التأثير متعدد الجوانب إداريا واقتصاديا واجتماعيا؛ « لأن إقامة الحكم الإيلخاني معناه تغير كامل في نظام الحكومة، فالحكام الجدد بدو رُحّل حقيقيون غريبون عن حياة الاستقرار، تواقون لاستغلال الفلاحين وسكان المدن إلى أقصى الحدود، ولمدة نصف قرن احتفظت

---

(١) خصباك: العراق في عهد المغول الإيلخانيين، صـ٦٦- ٦٧.

(٢) انظر: صبري سليم: الصراع السياسي والمذهبي بين الشيعة والسنة، صـ٣٠٧- ٣٠٨.

(٣) مصطفى حسين: الدور السياسي والحضاري للوزراء زمن المغول الإيلخانيين، م١، صـ١٧. راجع: خليل أدهم: تاريخ الدول الإسلامية، جـ١، صـ٣١٦- ٣١٨، ٣٢١، جـ٢، صـ٣٦٥- ٣٦٦، ٣٧٩.

الطبقة الحاكمة بهويتها القومية ولغتها، ووثنيتها، ولباسها الغريب، ولا حاجة للقول بأنّ الجيش المغولي اعتاد أن ينهب القرى ويسوق المواشي وصادر الحكام الجدد أيضا حقول الحبوب لاستخدامها كمراعٍ»[١].

الجهود التي بُذلت لإعادة إعمار بغداد

على الرغم من كثرة الروايات التي وردت حول قسوة عمال المغول في العراق وبطشهم بالرعايا في سبيل تحصيل الضرائب والرسوم، فإن المصادر التاريخية المعتبرة في العصر الإيلخاني تؤكد في الوقت نفسه أنّ ثمة جهودا كبيرة من جانب ديوان ولاية بغداد الذي أقامه الحكم الإيلخاني، بُذلت لإزالة آثار الخراب الذي لحق ببغداد على أثر الغزو المغولي، وإعادة إعمار تلك المدينة والرجوع بها إلى سابق عهدها مرة أخرى.

وفي العهد الإيلخاني تولى عدد من الشخصيات صحابة ديوان بغداد والعراق العربي، وكان أبرزهم علاء الدين عطا ملك الجويني الذي حكم تلك الولاية وأدارها إحدى وعشرين سنة وشهورا، ثم خلفه بعد فاته سنة ٦٨١هـ/ ١٢٨٢م شرف الدين هارون ابن أخيه الوزير شمس الدين[٢]، ثم جاء بعده آخرون منهم "ناصر الدين قُتلغ شاه" الذي كان مملوكا لعلاء الدين الجويني، ثم عهد إليه أحد كبار أمراء أرغون خان بصحابة ديوان العراق سنة ٦٨٦هـ[٣]/ ١٢٨٧م، ومنهم كذلك فخر الدولة اليهودي

---

(١) آ. آشتور: التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للشرق الأوسط في العصور الوسطى، صـ٣١٦.

(٢) ابن الفوطي: الحوادث الجامعة، صـ٤٢٨؛ رشيد الدين: جامع التواريخ، م٢، جـ٢، الترجمة العربية، صـ٩٩.

(٣) ابن الفوطي: الحوادث الجامعة، صـ٤٥٠- ٤٥١؛ مصطفى حسين: الدور السياسي والحضاري للوزراء زمن المغول الإيلخانيين في إيران، م١، صـ٢٢٥.

الذي عيّنه أخوه الوزير سعد الدولة سنة ٦٨٨هـ/ ١٢٨٩م في المنصب نفسه بمشاركة يهودي آخر هو مهذب الدولة نصر بن الماشعيري[١]، ثم توالى غيرهم على المنصب.

لكن الحقيقة المؤكدة بين المؤرخين أن الحقبة التي أعقبت وفاة علاء الدين عطاملك الجويني سنة ٦٨١هـ/ ١٢٨٢م شهدت سلسلة من أصحاب الديوان لم يستمر الواحد منهم في الحكم سوى مدة قصيرة، ولم يبد أيٌّ منهم ما أبداه علاء الدين الجويني في أيام حكمه من مقدرة وجهد[٢].

وأبرز ما يلفت النظر في هذه المسألة الدور الذي قام به علاء الدين عطا ملك الجويني حاكم العراق بعد الخلفاء العباسيين، وهو ما يستحق إفراده بالحديث التالي.

جهود عطا ملك الجويني الحضارية

حكم عطا ملك الجويني ولاية بغداد إحدى وعشرين سنة وأشهرا، وبذل في تلك المدة جهودا كبيرة لإعادة بغداد إلى سابق عهدها من الازدهار والرقيّ في أيام الخلفاء العباسيين.

ويشيد كثير من المؤرخين بجهود علاء الدين عطا ملك الجويني صاحب ديوان بغداد والعراق العربي، في إقالة عثرة العراق وإزالة آثار الخراب الذي لحقه بعد الغزو المغولي، ثم النهوض به من جديد[٣].

---

(١) ابن الفوطي: المصدر السابق، صـ٤٥٨؛ خصباك: العراق في عهد المغول الإيلخانيين، صـ٢٠٢؛ مصطفى حسين: المرجع السابق، م١، صـ٣١١.

(٢) خصباك: المرجع السابق، صـ٦٨.

(٣) من هؤلاء على سبيل المثال: ابن الفوطى: الحوادث الجامعة، صـ٣٥٧ فما بعدها؛ عبد الله الشيرازي: تاريخ وصاف، صـ٥٩ فما بعدها؛ آيتى: تحرير تاريخ وصاف، صـ٣٣ فما

وقد صرف علاء الدين الجويني همّه وهمّته لتعمير العراق وخدمة رعاياه، ورفع عن الناس كثيرا من المظالم والأثقال، كما عمل على إنشاء القرى والمزارع وشق قنوات الري، ومن أبرز المشروعات التي أقامها حفر نهر متفرع من الفرات من الأنبار إلي الكوفة والنجف، وقد أنفق على هذا النهر مائة ألف دينار، كما أنشأ مائة وخمسين قرية على امتداد النهر الجديد، واهتم كذلك علاء الدين ببناء المساجد والمدارس والأربطة، فاتجه العراق العربي بعامة، وبغداد بخاصة، في عهد علاء الدين نحو العمران من جديد، بعد أن كان قد تحول إلي خرائب وأطلال نتيجة للغزو المغولي(١).

وعلى الرغم من وثنية الحكم المغولي في معظم فترة ولاية علاء الدين في عهد هولاكو وآباقا وأحمد تكودار، فقد حرص علاء الين على النهوض بالحياة الدينية في ولايته، وأضفى عليها الطابع الإسلامي، وأولى مدارس أهل السنة والجماعة التي كانت في بغداد آنئذ اهتماما خاصا، فنالت المدرسة النظامية الشهيرة غاية سعيه واهتمامه ورعايته.

وكان علاء الدين يتأنق في الإنشاء والتعمير حتى إنّه بنى في سنة ٦٦٥هـ/ ١٢٦٦م بظاهر بغداد تجاه باب المظفرية والحلبة قصرا ورواقات وحماما واستجد حوله بستانا عظيما غرس فيه أنواع النخيل والأشجار والأثمار حتى الفستق، وقد غرم عليه مالا كثيرا(٢).

وفي سنة ٦٧٠هـ/ ١٢٧١م أقام علاء الدين الجويني مشروعا تعميريا اقتصاديا اجتماعيا ضخما، وقد تحدث ابن الفوطي عن ذلك المشروع فذكر أنّ علاء الدين أمر في تك السنة « بعمارة موضع في نهر جعفر من أعمال واسط سماه المأمن، وبنى فيه

بعدها؛ محمد السعيد جمال الدين: علاء الدين عطا ملك الجويني حاكم العراق، الكتاب كاملا.

(١) محمد السعيد جمال الدين: المرجع السابق، صـ١٤– ١٥؛ مصطفى حسين: الدور السياسي والحضاري للوزراء زمن المغول الإيلخانيين في إيران، م١، صـ١٥٣.

(٢) ابن الفوطي: الحوادث الجامعة، صـ٣٥٧.

ديوانا وجامعا وخانا وحماما وسوقا، وانتقل إليه خلق كثير، وكان التجار المنحدرون إلى البصرة والمصعدون منها يصعدون متاعهم إليه، فانتفعوا به وأمنوا على أموالهم وبنى فيه ناصر الدين قتلغ شاه الصاحبي مدرسة»[1].

وقد دفعت جهود علاء الدين عطاملك الجويني صاحب الديوان في النهوض بالعراق وتعمير خرائبه بعض المؤرخين إلى شيء من المبالغة فذكر بعضهم أن مدينة بغداد التي ضربها الغزو المغولي قد أصبحت في ظلّ ولايته أكثر عمرانا وازدهارا، وأجود مما كانت عليه في زمن الخلفاء العباسيين[2].

وهناك روايات عديدة في المصادر تجعل من مبالغة المؤرخين السابقة أمرا مقبولا إلى حدٍّ كبير، ولعل أبرز ما تمدنا المصادر به من أعمال علاء الدين الجويني المعمارية ما يلي:

إنشاء رباط مشهد علي رضي الله عنه

يذكر ابن الفوطي أن علاء الدين الجويني أنشأ رباطا بمشهد علي بن أبي طالب رضي الله عنه سنة ٦٦٦هـ (١٢٦٧م) وفي ذلك يقول: « فيها أمر علاء الدين صاحب الديوان ببناء رباط بمشهد علي عليه السلام ليسكنه المقيمون هناك، ووقف عليه وقوفا كثيرة وأدرّ لمن يسكنه ما يحتاج إليه »[3].

---

(١) الحوادث الجامعة، صـ٣٧٣- ٣٧٤.

(٢) ابن شاكر الكتبي: فوات الوفيات، جـ٢، صـ٥٢- ٥٣؛ محمد السعيد جمال الدين: علاء الدين عطا ملك الجويني حاكم العراق، صـ١٥؛ السباعي: محمد السباعي: عطا ملك الجويني وكتابه جهان گشا، دار الزهراء للنشر، القاهرة، سنة ١٤١٢هـ/ ١٩٩١م، صـ١٨؛ الصياد: الشرق الإسلامي في عهد الإيلخانيين، صـ٣٧.

(٣) ابن الفوطي : الحوادث الجامعة، صـ٣٥٨.

تعمير مسجد قمرية

من الأعمال المعمارية التي تذكر لعلاء الدين عطا ملك الجويني أيضا تعميره مسجد قمرية بالجانب الغربي ببغداد سنة ٦٦٨هـ/ ١٢٦٩م؛ ففي حوادث تلك السنة يقول ابن الفوطي: «ثم أمر (يعني علاء الدين) بعمارة مسجد قمرية بالجانب الغربي، وكانت قد خربت في زمن الخليفة المستعصم عند زيادة دجلة وغرق بغداد، وعمل موضعها سكر من الخشب وبقي إلى الآن (يعني زمانه) فتقدم بتجديده وعمله كما كان أولا»[١].

تعمير جامع الخليفة ومشهد موسى الجواد

يشير رشيد الدين الهمذاني إشارة سريعة إلى أحد أعمال الإعمار التي شهدتها بغداد في فترة ولاية علاء الدين الجويني، ألا وهو تعمير جامع الخليفة ومشهد موسى الجواد[٢]، وذلك بعد أن كانا قد احترقا بعد الغزو المغولي.

أما ابن الفوطي فيذكر في حوادث سنة ٦٧٠هـ/ ١٢٧١م أنّ علاء الدين صاحب الديوان أمر « بتجديد عمارة منارة جامع الخليفة، وكان صدر الوقوف يومئذ شهاب الدين علي ابن عبد الله فشرع في ذلك، وأنجزت في آخر شعبان، ثم سقطت في شهر رمضان بعد فراغ الناس من صلاة التراويح ولم يتأذّ أحد ممن كان هناك»[٣]، لكن علاء الدين استدرك هذا الإهمال وأعاد الكرة سنة ٦٧٨هـ/ ١٢٧٩م فتمت فيها عمارة منارة ذلك الجامع[٤].

---

(١) الحوادث الجامعة، صـ٣٦٥.

(٢) جامع التواريخ، م٢، جـ١، الترجمة العربية، صـ٢٩٥.

(٣) ابن الفوطي : الحوادث الجامعة، صـ٣٧١.

(٤) المصدر السابق، صـ٤٠٨.

تعمير مسجد معروف

وفي سنة ٦٧٨هـ/ ١٢٧٩م أيضا قام علاء الدين الجويني بتعمير مسجد آخر بدعم من أخيه الوزير شمس الدين؛ ففي حوادث تلك السنة يقول ابن الفوطي: « وتمت عمارة مسجد الشيخ معروف الكرخي قدس الله روحه (كذا)، بالجانب الغربي من بغداد على شاطئ دجلة، أمر بعمارته شمس الدين محمد بن الجويني صاحب ديوان الممالك، وكان قد خرب لما غرقت بغداد سنة ثلاث وخمسين وستمائة»[1].

تعمير المدرسة المستنصرية

لعل أبرز المشروعات الاجتماعية العلمية في وقت معا لعلاء الدين عطا ملك الجويني يتمثل في تعمير المدرسة المستنصرية سنة ٦٦٨هـ، وقد رصد ابن الفوطي تفاصيل ذلك المشروع العظيم بقوله في حوادث تلك السنة:

«فيها تقدم علاء الدين صاحب الديوان بعمل دولاب تحت مسناة المدرسة المستنصرية يقبض الماء من دجلة ويرمي إلى مزملتها، ثم يجري تحت الأرض إلى بركة عُملت في صحن المدرسة، ثم يخرج منها إلى مزملة عملت تجاه إيوان الساعات خارج المدرسة، وجدّد تطبيق صحنها وتبنيد حيطانها، وكان المتولي لذلك شمس الدين حميد الخراساني صدر الوقوف»[2].

تعمير سوق المدرسة النظاميّة

يُذكر لعلاء الدين الجويني أيضا أنه قام بتعمير سوق المدرسة النظامية ببغداد بعد أن التهمه حريق كبير، وقد تحدث عن ذلك ابن الفوطي في حوادث سنة ٦٧٠هـ/ ١٢٧١م فقال: «وفيها وقع حريق بسوق المدرسة النظامية فاحترق جميعه وهلك فيه

---

(١) المصدر نفسه، صـ٤٠٨.

(٢) ابن الفوطي : الحوادث الجامعة، صـ٣٦٥.

خلق كثير ممن كان في الغرف وذهب من أموال الناس شيء كثير فأمر الصاحب علاء الدين بعمارته من حاصل وقف المدرسة »[١].

وحسبنا ما تقدم من نماذج تعبر في وضوح عن أن تعيين علاء الدين عطا ملك الجويني من قبل سلاطين المغول الإيلخانيين الأوائل صاحبا لديوان ولاية بغداد والعراق العربي كان خيرا وبركة على الرعايا المسلمين المغلوبين على أمرهم في ذلك الوقت.

مشاركة زوج علاء الدين في الإعمار:

لم يتوقف الجهد عند علاء الدين وحده، بل أسهمت زوجه شمس الضحى بنت عبد الخالق بن ملك شاه بن أيوب في جهود الإعمار أيضا، فقامت ببعض المشروعات الخيرية التي كان لها أثر اجتماعي طيب في قلوب معاصريها؛ فمن ذلك مثلا:

إنشاء المدرسة العصمتية ورباط الصوفية بها

قامت زوج علاء الدين الجويني شمس الضحى بجهود إصلاحية في ناحية مجال الإنشاء والتعمير فقامت بإنشاء المدرسة العصمتية بظاهر بغداد، ووقفت عليها الأراضي والضياع، ثم ألحقت بها رباطا للصوفية، وكانت كما شهد مؤرخ العراق ابن الفوطي امراة صالحة كثيرة البرّ والإحسان[٢]، فأسهمت بذلك في النهوض بالحياة الاجتماعية والدينية في العراق بصحبة زوجها علاء الدين.

وقد رصد ابن الفوطي ذلك الإسهام الحضاري الطيب فتحدث عن ذلك فقال:

---

(١) المصدر السابق، صـ٣٧١.

(٢) ابن الفوطي: الحوادث الجامعة، صـ٤١٠، حوادث سنة ٦٧٨هـ؛ مصطفى حسين: الدور السياسي والحضاري للوزراء زمن المغول الإيلخانيين في إيران، م١، صـ١٥٣.

«وفي سنة ٦٧١هـ (١٢٧٢م) تكاملت عمارة المدرسة التي أمرت بإنشائها زوجة علاء الدين صاحب الديوان مجاور مشهد عبيد الله عليه السلام ظاهر بغداد، وسُمِّيت العصمتية، ووقفتها على الطوائف الأربع، وبنت إلى جانبها تربة لها ورباطا للمتصوفة وفُتحت في هذه السنة ورتبت بها القاضي عزّ الدين أبو العز محمد ابن جعفر البصري مدرس الطائفة الشافعية، وعفيف الدين ربيع بن محمد الكوفي مدرس الحنفية، وشرف الدين داود الجيلي مدرس الحنابلة، ومجد الدين المعروف بشقير الواعظ مدرس المالكية، وخُلع على الجميع وعُمل بها وظيفة وجعلت النظر فيها إلى شهاب الدين علي بن عبد الله والإشراف عليه إلى من ولي قضاء القضاة ببغداد»[1].

النمو العمراني لبغداد بعد الغزو المغولي

وفيما يتعلق بالنمو العمراني لبغداد بعد انتهاء الأعمال العسكرية للغزو المغولي والاستقرار الإداري للمغول في تلك المدينة، فثمة بعض الدراسات التي قامت على الحفريات الأثرية فكان لها نتائج دقيقة إلى حد كبير في تقدير مسار حركة العمران في العراق في الفترة العباسية الأخيرة والإيلخانية.

ومن بين تلك الدراسات دراسة آشتور التي تذكر أن أبحاث أحد الباحثين الأثريين –وهو ماك آدامز– أثبتت « أنّ عددا كبيرا من المستوطنات الريفية قد اختفى أثناء حكم الإيلخانات، وفي حالات كثيرة كان ذلك نتيجة للصيانة غير المناسبة لأنظمة الري، وفي حالات أخرى فمن المرجح أنه نتيجة لتناقص السكان وأحيانا كلاهما معا،

---

(1) الحوادث الجامعة، صـ٣٧٣– ٣٧٤.

وعندما أصبح عدد من سكان القرية قليلا جدا، لم يعد بالإمكان صيانة أقنية الريّ، وتناقصت المحاصيل وأخيرا اضطروا لهجر المستوطنة»[1].

ويستنتج آشتور من أبحاث آدامز أنّ « ٤٧,٥ % من المناطق المأهولة في ديالي (التي تضم مدينة بغداد وغيرها) هُجرت خلال هذه الفترة»[2]، يعني منذ سقوط بغداد في أيدي المغول وعلى امتداد العهد الإيلخاني.

تعقيب:

طفنا خلال هذا الفصل في الآثار الاجتماعية والعمرانية للغزو المغولي لبغداد، ورأينا كيف كان لهذا الغزو آثار اجتماعية سلبية رافقته، فكان من بينها الخراب الذي تعرضت له المدينة والأوبئة والأمراض التي أصابت الناس آنئذٍ، ثم تمخض الاستقرار الإداري للمغول الإيلخانيين في العراق عن بعض الجوانب الإيجابية التي نتجت عن استعمال المغول بعض الرعايا المسلمين الإيرانيين في إدارة العراق، فبرز من بينهم علاء الدين عطا ملك الجويني الذي أقال كثيرا من عثرات العراق قدر استطاعته، فأزال الخرائب وأقام المشروعات الدينية والاقتصادية والاجتماعية، فخفف بذلك بعض العبء عن الرعايا المغلوبين على أمرهم.

ولعلّ أبرز ما رصده الفصل الحالي ما كان من آثار للغزو المغولي لبغداد على التركيبة السكانية والعناصر المكونة للمجتمع البغدادي، وذلك من خلال المقارنة بين ما كانت عليه تلك العناصر قبل الغزو المغولي، وما آلت إليه تلك العناصر بعد الغزو، وانتهى الفصل من تلك المقارنة إلى بروز طبقة جديدة من العمال الفرس المصاحبين للمغول من أمثال عائلة الجويني وعائلة الزنجاني، وقيام بعض أفراد تلك

---

(١) آ. آشتور: التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للشرق الأوسط في العصور الوسطى، صـ٣٢٠.

(٢) آ. آشتور: المرجع السابق، صـ٣٤٢– ٣٤٣.

الطبقة بدور اجتماعي بارز في الحياة الخاصة والعامة في بغداد في العصر الإيلخاني.

كما رصد الفصل الحالي آثار الاستقرار الإداري للمغول في بغداد والعراق العربي، وأثر ذلك الاستقرار في إعادة إعمار بغداد، مستشهدا على ذلك ببعض نماذج المشروعت العمرانية التي شهدتها بغداد في الفترة موضع البحث.

ولم يتبق سوى الفصل الأخير من الدراسة الحالية، وهو الذي يحاول البحث فيه رصد الآثار الدينية والثقافية للغزو المغولي لبغداد، وذلك على نحو ما نراه في الصفحات التالية.



****

***

*

الفصل الرابع

الآثار الدينية والثقافية للغزو المغولي لبغداد



مدخل:

بقي من بين الآثار الحضارية الناتجة عن الغزو المغولي لمدينة بغداد سنة ٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م الآثار الدينية والثقافية، وهذه الآثار هي موضوع الفصل الحالي، وهو رابع فصول الدراسة والأخير منها.

لقد كانت بغداد عاصمة العالم الإسلامي طيلة القرون العباسية، كما كانت مقرًّا لرمز ديني ذي شأن عظيم في نفوس المسلمين في العالم أجمع آنذاك، ألا وهو الخليفة العباسي، وبعد سقوط بغداد في أيدي المغول وقتل الخليفة العباسي، تغيّر الوضع تماما فتراجعت مكانة بغداد السياسية والدينية والثقافية، فلم يبق لها من تلك المكانة سوى أن تكون مقرّا إداريّا لإحدى ولايات الدولة الإيلخانية الناشئة، كما زال بريق بغداد العباسيّة فلم تعد قبلة العلماء والفضلاء وطلاب العلم كسابق عهدها؛ ذلك أنّ المغول استولوا عليها وبطشوا بها وأصبح الأمن فقيدا بها، فعزف التائقون لها عن شدّ الرِّحال إليها.

لقد ترتب على سقوط بغداد في أيدي المغول مجموعة من الآثار السياسية والحضاريّة، وكان في مقدّمة تلك الآثار أثر ديني بارز؛ إذ «كان المسلمون يتطلعون إلى الخلافة على أنها رمز للممالك الإسلامية جميعِها، يجب أن يظل قائما، وكانوا ينظرون إلى الخليفة نظرة إجلال واحترام، وعلى هذا كان نفوذه الدينيّ بعيد الأثر في نفوس المسلمين جميعا، وعلى الرغم من أنّ الخلافة العباسية كانت قد فقدت منذ قرون جانبا كبيرا من قوتها المادّية؛ فإنها كانت لا تزال تدخر قدرا كبرا من سلطانها الأدبي والروحي، فلما سقطت بغداد وقتل الخليفة قُضيَ على هذا النفوذ، وزال ما كان لتلك العاصمة من مكانة دينية ممتازة »[1].

---

(1) فؤاد الصياد: المغول في التاريخ، جـ١ صـ٢٨٠.

ومن المقرر على مدى التاريخ أنّ عاصمة أيّ دولة تحظى في الأعم الأغلب بأهم وأبرز السمات الدينية المميزة لتلك الدولة؛ إذ تضم العاصمة جميع الفئات السكانية الممثلة للديانات والثقافات المتنوعة، وهكذا كانت العاصمة العباسية بغداد على تلك الشاكلة، ومن المشهور أنّ الخلفاء العباسيين وحاشيتهم من العمال ولا سيما الفرس حرصوا على الاهتمام – في أغلب عهود العصر العباسي– بالجانبين الديني والثقافي، كما كان البلاط العباسي موئلا للقصاد من كل صوب، وبخاصة العلماء والأدباء والمثقفون الذين لقُوا عناية كبيرة من الخليفة وحاشيته من كبار رجال الدولة.

ومن المؤكد أن الضربة القاسية التي أصابت الحاضرة العباسية بغداد كان لها آثارها السلبية على الناحيتين الدينية والثقافية على نحو ملحوظ، وذلك وفقا لما أوردته المصادر التاريخية المعتبرة في هذا الشأن، وفي ضوء ما تقدم فإنّه يمكن تقسيم الآثار الدينية والثقافية للغزو المغولي لبغداد إلى قسمين رئيسين:

القسم الأول: الآثار الدينية للغزو المغولي لبغداد

القسم الثاني: الآثار الثقافية للغزو المغولي لبغداد

وسيحاول البحث في هذا الفصل أن يحلّل الروايات التي وردت في المصادر عن الآثار الدينية والثقافية للغزو المغولي للحاضرة العباسية بغداد، ويستخلص أبرز تلك الآثار محللا لها ومحاولا تفسيرها، سعيًا إلى الوصول إلى الصورة الحقيقيّة للحياة الدينيّة والثقافية التى آلت إليها بغداد في ظل وضعها الجديد بعد زوال الخلافة العباسية ووقوعها تحت الحكم المغولي.

كما سيحاول الفصل الحالي الإجابة على تساؤل مهم، ألا وهو: هل استمر المجتمع البغدادي بعد الغزو المغولي على ما كان عليه من توجّه ديني إسلامي قبل الغزو؟ أو أنّ ثمة تغيّرات وآثارا أصابت هذا التوجه في ظلّ الحكم المغولي الجديد؟

وسيدور اهتمام الفصل أيضا حول القسمين المشار إليهما، فإذا تطرقنا للآثار الدينية للغزو المغولي لبغداد وجب علينا الإلماح إلى المباحث التالية:

دين المغول (الديانة الشامانية)

من المتفق عليه أن الدين كان يحظى بقدر كبير من الاهتمام لدى المغول في بيئتهم الأولى قبل خروجهم من موطنهم بمنغوليا واحتكاكهم بالأمم الأخرى وتفاعلهم معها، أما عن الدين الذي اعتنقه المغول فالظاهر أنه «لم يكن للمغول دين واحد بعينه يعتنقونه ويجمعون عليه، بل كانت طوائفهم تتنازع الديانات المختلفة من شامانية وبوذية ومسيحيّة وإسلام، وعلى الرغم من هذا، فإنهم بصفة عامة كانوا بعيدين عن التعصب لمذهب دون آخر»[١].

وتُعرَّف الشامانية بأنها «نوع من الديانة الوثنية، كانت تتمثل في عبادة كل شيء يسمو على مدارك المغول، ويدق على أفهامهم، كما تتمثل أيضا في عبادة كل ما يخشونه ويرهبونه، فلهم أرباب[٢] في النهر والجبل والشمس والقمر، والبرق الخاطف

---

(١) فؤاد الصياد: المغول في التاريخ، جـ١ صـ٣٣٤- ٣٣٥؛ صبري سليم: الصراع السياسي والمذهبي بين الشيعة والسنة في عصر سيطرة إيلخانات المغول في إيران، صـ٤٢.

(٢) في الأصل "آلهة" فعُدّلت إلى (أرباب).

والرعد القاصف، وإذا كان المغول يتقربون إلى هذه الظواهر[١]، فإنهم كانوا يفعلون ذلك دفعا لشرها وأذاها، وإبعادا لغضبها وجلبا لرضاها، راجين منها الصِّحة في أجسامهم وعقولهم، ملتمسين إليها حماية أبنائهم وحيواناتهم »[٢].

وبالإضافة إلى ما سبق فقد كان أتباع الديانة الشامانيّة «يعبدون أرواح أجدادهم، لاعتقادهم أنّ لهذه الأرواح سلطانا كبيرا على حياتهم، كما كانوا يؤمنون بالقوى السحرية؛ فلا غرو أن كان لكهنة هذا الدين خبرة بالسحر؛ ولهذا كانوا يعنون عناية كبيرة بالتنجيم، كما كانوا يدرسون العلاقات بين الأرواح التي يحضرونها، ويحصلون (كما زعموا)[٣] بواسطتها على كشف الغيب، والتنبؤ بالمستقبل»[٤].

وخلاصة القول في دين المغول أنهم كانوا يؤمنون بأنّ خالق هذا الكون إله واحد مقتدر، لكنهم لم يكونوا مدركين لطبيعة هذا الإله فتصوروه تارة في الشمس وأخرى في القمر وثالثة في الرعد وغيره، كما أنهم كانوا لا يؤمنون بالنبوات، بل كانت فكرتهم عن الدين تتلخص في أنه لما كان هناك إله واحد في السماء، فإنه يجب أن يكون هناك حاكم واحد على الأرض، وهذه المعتقدات المختلطة هي خلاصة الديانة التي كانت معظم أقوام المغول تدين بها وهي المعروفة بالديانة الشامانية كما سبقت الإشارة.

---

(١) في الأصل "الآلهة" فعُدّلت إلى (الظواهر).

(٢) مصطفى طه بدر: محنة الإسلام الكبرى أو زوال الخلافة العباسية من بغداد على أيدي المغول، صـ٥٦؛ فؤاد الصياد: المغول في التاريخ، جـ١ صـ٣٣٥.

(٣) (كما زعموا) إضافة من الباحث على النص المنقول.

(٤) فؤاد الصياد: المغول في التاريخ، جـ١ صـ٣٣٥.

تنوع أديان عمال المغول ووزرائهم

لعلّ من المقدمات الأساسية الضرورية لبحث الآثار الدينية للغزو المغولي لبغداد النظر في مسألة تنوع الانتماء الديني والمذهبي لعمال المغول ووزرائهم في مختلف الدول المغولية التي قامت على الأراضي التي خضعت لسلطان المغول.

ومن الأمور المستقرة في البحث التاريخي أنه على الرغم مما عُرف عن المغول من وحشية ودموية، وعلى الرغم من أنّ غاراتهم كانت وبالا على البشرية وقتلت الملايين من البشر دونما ذنب أو جريرة، على الرغم من ذلك كله إلا أنه من المؤكد أنه لم تكن لديهم أية مشاعر معادية للأديان، بل المستقر في البحث التاريخي أنهم لم يضطهدوا أحدا بسبب دينه، ولم يثبت عنهم في أيٍّ من المصادر أنهم ازدروا أي دين من الأديان.

ومما هو مشهور في المصادر أن بلاط المغول كان حافلا بالوزراء والعمال والموظفين من مختلف الأجناس والأديان، ومختلف الملل والنحل والمذاهب والأعراق؛ فسلاطين المغول وخاقاناتهم وأمراؤهم وكبار رجال دولتهم لم يكونوا يفرقون بين المقربين إليهم على أساس من دين أو عرق أو لغة أو خلافه، بل كان التفاني في الخدمة والخضوع والولاء – ولا شيء غير هذا – معيارا للتفضيل والتقريب، وكان التقصير – في المقابل – مفضيًا إلى الإقصاء والانتقام.

وتشير المصادر الصينية والفارسية إلى العديد من الوزراء الصينيين والأويغوريين والفرس، المسلمين والبوذيين والشامانيين وغيرهم من أرباب الديانات المختلفة(١).

---

(١) يتأكد ذلك بتصفح كثير من المصادر والمراجع التي تحدثنا عن العديد من الشخصيات التي خدمت المغول من أهل الأديان المختلفة من الفرس والترك والأويغوريين والصينيين والعرب. ومن ذلك: عطا ملك الجويني: تاريخ جهانكشاى، جلد اول، در تاريخ چنگيز خان واعقاب او تا كيوك خان، تاريخ جهانكشاى، جلد ثانى، در تاريخ خوارزمشاهيان،

موقف اليهود والنّصارى من غزو المغول بغداد

من القضايا الأساسية المرتبطة بالآثار الدينية للغزو المغولي لبغداد موقف يهود بغداد ونصارى بغداد من ذلك الغزو؛ فقد كان على كل طائفة من الطوائف الدينية أن تتصرف حيال المغول الغزاة بما يحقق أهدافها ويرعى مصالح أفرادها، ويكفيهم شرّ المغول وبطشهم، وقد تباين موقف اليهود من ناحية وموقف النصارى من ناحية أخرى على النحو التالي:

أولا: موقف يهود بغداد من الغزو المغولي:

من اللافت للنظر أن يهود بغداد اتخذوا موقف الدفاع عن بلدهم ضد المغول فوقفوا جنبا إلى جنب مع المسلمين في قتال المغول الغزاة، وفي هذا يذكر "ريتشارد كوك" أنّ اليهود « وقفوا تجاه الغزو المغولي لمدينة بغداد موقفا يُحسدون عليه؛ فقد ساندوا المسلمين من أهل تلك المدينة وحاربوا معهم حتى آخر لحظة ودافعوا عن أرضهم، وقاتلوا المغول وقاسوا مع المسلمين ما قاسوا من المذابح التي أعقبت دخول المغول بغداد»[1].

ثانيا: موقف نصارى بغداد من الغزو:

تؤكد المصادر التاريخية أنّ موقف نصارى العراق من الغزو المغولي لم يكن موقف المدافعين عن بلادهم ضدّ المحتلين الغزاة، بل كان موقفا على النقيض من

تاريخ جهانكشاى جلد سوم، در تايخ منگو قاآن وهولاگو واسماعيليه؛ رشيد الدين: جامع التواريخ، المجلد الأول الجزء الأول، والمجلد الثاني الجزء الأول، والمجلد الثاني الجزء الثاني؛ عباس إقبال: تاريخ مفصل ايران، صبري سليم: الصراع السياسي والمذهبي بين الشيعة والسنة في عصر سيطرة إيلخانات المغول في إيران، وغيرها من المصادر.

(١) Richard Coke : Baghdad the City of Peace, p. 152, London, 1927.

ذلك؛ إذ يبدو أنهم – على الرغم مما لقوه من حرية واستقرار في أيام الخلفاء العباسيين– فإنهم تخاذلوا عن واجب الدفاع عن بلادهم، ووضعوا أيديهم في أيدي المغول سعيا إلى تحقيق مصالحهم الخاصة، وإيثارا للسلامة، ولم يكن من قبيل المصادفات أن سلم جميع نصارى بغداد من بطش المغول فلم يُقتل منهم أحد أو يتعرض لمجرد أذى.

ولعل شهادة المؤرخ النصراني المعاصر للأحداث جريجوريوس الطبيب ابن العبري تؤكد سلامة النصارى واتفاقهم مع المغول؛ فهو يقول في معرض روايته لأحداث الغزو المغولي للعراق: « أما الحاثليق فجمع النصارى كلهم في كنيسة السوق الثالث وصانهم هناك ولم يلحق أذى بأحد منهم»[١]، ولاشك أنّ هذه الرواية تؤكد ما ذهب إليه البحث في هذه المسألة، وتؤيد ما جاء من أخبار تؤكد استقرار أوضاع النصارى في كنف السلطة المغولية في العصر الإيلخاني.

وعن موقف نصارى بغداد من الغزو المغولي يقول المستشرق الفرنسي "دوسون": « أمّا المسيحيون الذين كانوا يفوقون اليهود عددا، والذين كانوا أكثر منهم تقربا إلى الخلفاء العباسيين، واتصالا بالحياة العامة في بغداد، فإنهم لم يفعلوا مثل ما فعل اليهود، بل على العكس من ذلك سالموا المغول وتقربوا إليهم وتمكنوا من كسب عطف هولاكو خان بضغط وتأثير من زوجته المسيحية دوقوز خاتون»[٢].

وينتقد الدكتور مصطفى طه بدر موقف نصارى بغداد من الغزو المغولي فيقول: «ولو أنّ فعل المسيحيين اقتصر على ذلك، لكان من السهل إيجاد مبرر لهم سواء في حبهم في الحياة وتعلقهم بها أو في خوفهم من المغول، خصوصا بعد أن أصبح

---

(١) تاريخ الزمان، الترجمة العربية، صـ٣٠٨.

(٢) D'osson, Histoire des Mongols Depuis Tchinguiz Kan Jusq'a Timour Bey ou Tamerlan Tome III, P.270, Amsterdam 1852.

نجاحهم أمرا متوقعا، ولكنهم ضنوا بالحياة على بعض المسلمين عندما كان في قدرتهم تقديم المساعدة لهم»[١].

ومنذ بداية الغزو المغولي لبغداد كافأ القائد المغولي هولاكو نصارى بغداد على انضمامهم لجانبه، وهذا ما يؤكده "دوسون" بقوله: « وقد صرح هولاكو للبطريق النسطوري في العراق بجمع المسيحيين في إحدى الكنائس حتى يميَّزوا عن غيرهم فلا يتعرض لهم الجند المغولي عند نهب بغداد، ففعل، وحاول بعض المسلمين أن يأووا إلى الكنيسة مع إخوانهم المسيحيين حتى ولو بتقديم كل ثرواتهم فلم يقبل البطريق النسطوري وتركهم تحت رحمة السيف المغولي»[٢].

وكلام "دوسون" يأتي اعتمادا على ما ذكره ابن العبري في هذا الشأن. يقول ابن العبري: «ونقل أغنياء العرب (أي المسلمين البغداديين) أموالهم وأمتعتهم إلى دار الجاثليق يؤملون النجاة ولكنهم قتلوا عن بكرة أبيهم»[٣]، وعلى الرغم مما يشوب هذه الرواية من اقتضاب فإنه يمكن أن يُلمح فيها تخلّي الجاثليق عمّن لاذ به من المسلمين في تلك المحنة.

وعلى كل حال، فخلاصة القول أنَّ «المسيحيين لم يشتركوا مع المسلمين في الدفاع عن المدينة التي عاشوا فيها زمنا طويلا في ظل الخلفاء العباسيين، ونجوا من العذاب الذي صبّه المغول على تلك المدينة وأهلها، وكان موقفهم في هذا الأمر يشبه

---

(١) مصطفى طه بدر: محنة الإسلام الكبرى، أو زوال الخلافة العباسية من بغداد على أيدي المغول، صـ٢١٦.

(٢) D'osson, Histoire des Mongols Depuis Tchinguiz Kan Jusq'a Timour Bey ou Tamerlan Tome III, P.241; Richard Coke, Baghdad the City of Peace, p. 149.

(٣) تاريخ الزمان، الترجمة العربية، صـ٣٠٨.

تماما موقف الشيعة، ولم يدافع عن بغداد في محنتها ويلاقي العذاب ألوانا إلا أهل السنة واليهود»[1].

موقف المغول من أهل الديانات

لم يثبت تاريخيّا أن المغول اضطهدوا دينا من الأديان، أو كانت لهم أهداف دينية دفعتهم للخروج من مقرهم الأصلي ومهاجمة الدول المجاورة لهم شرقا وغربا، كما أنّه «لم يكن الصراع بين المغول وغيرهم من الشعوب الأخرى صراعا دينيا في المقام الأول؛ فلا يذكر التاريخ أنّ المغول في أيام جنكيز خان قد حاولوا فرض دينهم أو أي دين آخر على الشعوب التي خضعت لهم، وقد حافظ خلفاء جنكيز خان على هذا الاتجاه الأصيل الذي نصّت عليه الياسا، وتمسكوا بتدعيمه، فلم تكن إتاحة الحرية الدينية للآخرين لتكلفهم شيئا على الإطلاق، كما أنهم كانوا يدركون مغبة الضغط على المشاعر الدينية لدى المقهورين، وما قد يترتب على ذلك من إذكاء لروح المقاومة أو التمرد لديهم»[2].

ومن المرجّح بدرجة كبيرة أنّ اجتياح جيوش المغول بلاد المسلمين وقتلهم الآلاف من المسلمين وعلى رأسهم الخليفة العباسي المستعصم بالله، لم يكونا ناتجين عن دوافع دينية، بل كان ذلك كله أمرا سياسيا عسكريا واضحا، ويؤيد ذلك أن بلاط المغول في مختلف دولهم ضمّ شخصيّات ممثّلة للديانات المختلفة من وثنية وسماوية على حدٍّ سواء.

---

(1) مصطفى طه بدر: محنة الإسلام الكبرى، أو زوال الخلافة العباسية من بغداد على أيدي المغول، صـ٢١٦– ٢١٧.

(2) صبري سليم: الصراع السياسي والمذهبي بين الشيعة والسنة، صـ٤٩٠.

أ- موقفهم من الديانات الوثنية (البوذيّة وغيرها)

بطبيعة الحال كان فكر المغول الديني المبكر فكرا بسيطا يميل إلى الديانات الوثنية[١]، كما كان لاماتُهم "أي رجال الدين كما كانوا يُعرفون عندهم" في الغالب يدينون بالديانة البوذية التي راحت تنتشر بين المغول وتأخذ مكان الشامانية شيئا فشيئا واشتدت وقويت جدا باعتناق الخان الأكبر قوبيلاي قاآن (٦٥٨- ٦٩٣هـ/ ١٢٦٠- ١٢٩٣م) إياها[٢]، وقد شاعت البوذية في العهود التالية في أيام الإيلخانيين بين المغول فاعتنقها هولاكو خان وابنه آباقا خان الذي شيّد في عهده عددا كبيرا من المعابد البوذية[٣] وكذلك أرغون خان بن آباقا[٤] وكيخاتو خان وبايدو خان[٥]، وبناء على ذلك كان طبيعيا أن يكون موقف المغول -بعد استقرارهم في مناطق إيران

---

(١) فؤاد الصياد: المغول في التاريخ، صـ٣٣٤- ٣٣٥.

(٢) رشيد الدين: جامع التواريخ، الأصل الفارسي، جلد دوم، صـ٣٥١؛ فؤاد الصياد: المغول في التاريخ، صـ٣٣٦؛ المؤلف نفسه: الشرق الإسلامي في عهد الإيلخانيين، صـ٣٤.

(٣) شبولر: برتولد: العالم الإسلامي في العصر المغولي، نقله إلي العربية الأستاذ خالد أسعد عيسى، راجعه وقدّم له الدكتور سهيل زكار، الطبعة الأولى، دار إحسان للطباعة والنشر، دمشق، سنة ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م، صـ٦٦- ٦٧؛ فؤاد الصياد: الشرق الإسلامي في عهد الإيلخانيين، صـ٥٤؛ عبد السلام فهمي: تاريخ الدولة المغولية في إيران، صـ١٥٠.

(٤) مصطفى طه بدر: مغول إيران بين المسيحية والإسلام، صـ١٠؛ محمد رضا الشبيبي: مؤرخ العراق ابن الفوطي، جـ٢ صـ١٦٠؛ عبد السلام فهمي: تاريخ الدولة المغولية في إيران، صـ١٧٢؛ صبري سليم: الصراع السياسي والمذهبي بين الشيعة والسنة في عصر سيطرة إيلخانات المغول في إيران، صـ٣٥٨.

(٥) كان بايدو خان يتظاهر تارة بأنه مسيحي إرضاء للمسيحيين من حاشيته وتارة بأنه مسلم إرضاء للمسلمين منهم، لكن الثابت تاريخيا أنه كان بوذيا. راجع تفاصيل ذلك لدى: ابن العبري: تاريخ الزمان، صـ٣٧٦؛ شبولر: العالم الإسلامي في العصر المغولي: صـ٧٢؛ دائرة المعارف الإسلامية، جـ٥ صـ٣٦٦.

والعراق وآسيا الصغرى وغيرها- من الديانات الوثنية والبوذية موقف الموالاة بحكم احترامهم لعاداتهم وتقاليدهم.

وعلى الرغم من اعتناق المغول الإسلام ودخولهم فيه أفواجا في عهد أحمد تكودار بن هولاكو أولا، ثم لاحقا على نطاق أعمق وأوسع في عهد السلطان غازان خان الذي تسمى بالسلطان محمود غازان خان، على الرغم من ذلك فقد ظل الإيلخان المغولي وكبار قادته وسائر أمراء جيشه يكنون الاحترام والتوقير لرجال الدين الذين ظلوا على دياناتهم القديمة، لكن غازان خان تحديدا وجد بعد اعتناقه الإسلام أن من واجبه تحطيم أصنام البوذية وهدم معابد اليهود وكنائس المسيحيين وتحويل معظمها إلى مساجد، والدعوة إلى الدين الإسلامي الحنيف[١].

ب- موقفهم من اليهوديّة والمسيحيَّة

من اللافت للنظر في تاريخ المغول بوجه عام أنهم كانوا يكرهون اليهود ويحطون من شأنهم، وفيما يتعلق بالمغول الإيلخانيين الذين آلت إليهم العراق فالمعروف أن اليهود لم يظهر لهم وجود في البلاط إلا في الفترة التي تولى فيها الوزير سعد الدولة اليهودي الأبهري الوزارة العظمى أو صحابة ديوان الممالك في عهد أرغون خان، فقد استولى هذا الوزير على السلطة حتى تجاوز سلطة الإيلخان وأخذ يولي أقاربه وأتباعه اليهود المناصب العليا ويقصي غيرهم من النصارى والمسلمين، وعلى هذا الأساس انحصر الصراع الديني الرامي إلى اجتذاب المغول بين دعاة المسيحية والإسلام دون اليهود.

---

(١) عباس إقبال: تاريخ مفصل إيران، جـ١ صـ٢٦٠؛ عبد المجد آيتي: تحرير تاريخ وصاف، صـ١٩٨؛ صبري سليم: الصراع السياسي والمذهبي بين الشيعة والسنة، صـ٤٠٣.

ويجد الباحث في مسألة الآثار الدينية للغزو المغولي لبغداد نفسه مضطرا إلى تسليط الضوء على مكانة النصارى ثم مكانة اليهود لدى السلطة المغولية في بغداد، وهذا فيما يلي.

مكانة النصارى في عهدي هولاكو وأباقا

سبقت الإشارة إلى أن نصارى بغداد اتخذوا موقف الموالين للمغول فلم يدافعوا عن تلك المدينة، وقد ضمن لهم هذا الموقف ألا يتعرض أيٌّ منهم لأذي بعد الواقعة، وكان من الطبيعي أن ينال النصارى مكانة بارزة في بلاط المغول الإيلخانيين، وثمة بعض النقاط التي تبرز أسبابا أخرى لتمكن النصارى في العهد الإيلخاني وبخاصة نصارى بغداد، ومنها:

"دوقوز خاتون" زوجة هولاكو المسيحية

"المعروف أنّ طقز خاتون (أو دوقوز خاتون) زوجة هولاكو الأولى هي حفيدة "وانج خان" ملك قبائل "الكرايت"(١) ذات الأصول المسيحية في شرق منغوليا، وهو المسمى "برستر يوحنا" في الأسطورة، ولم تختلف هذه السيدة عن قومها في تعلقها بالمسيحية على المذهب النسطوري، ولأن أقوام "الكرايت" اعتنقوا المسيحية منذ زمن

---

(١) قوم كِرايت موطنهم الأصلي الواحات الشرقية الداخلة في صحراء جوبي، وجنوب بحيرة بايكال حتى سور الصين، وكان هؤلاء القوم يدينون بالمسيحية منذ أواخر القرن الرابع الهجري وقد ظلت قبائل الكرايت طوال القرنين الخامس والسادس الهجريين أقوى أقوام المغول، حيث استطاعوا إخضاع غيرهم من الطوائف المغولية لسلطانهم. وللمزيد حول قبائل الكرايت ومكانتها بين قبائل المغول راجع: رشيد الدين: جامع التواريخ، جـ١صـ٨٧؛ فؤاد الصياد: المغول في التاريخ، صـ٢٧- ٢٨.

بعيد، فقد حرصت "طقز خاتون" على حماية المسيحيين الذين أصبح لهم في أثناء حياتها وضع ممتاز [(١)].

وإرضاء للأميرة "دوقوز خاتون" غمر هولاكو خان المسيحيين بأفضاله، وبكثير من مظاهر التقدير والاحترام، فتم إنشاء كنائس جديدة في كثير من مناطق خانية فارس أو الدولة الإيلخانية، وقد أنشأ هولاكو عند مدخل دارها كنيسة تُقرع بها الأجراس، وصار القسُسُ والشَّمامسةُ يؤدّون القُدَّاسات والصلوات بانتظام، وأنشأت تلك الأميرة أيضا مدارس للأطفال يترددون إليها بكامل حريتهم، وقد نعِم كل من قدم من قبل المسيحيين على اختلاف لغاتهم، من رجال الكنيسة في حياتهم بالهدوء والأمن، وكل من التمس السلام حصل عليه وعاد مثقلا بالهدايا، واعتنقت المسيحية أيضا على المذهب النسطوري ابنة أخت طقز خاتون، وهي المسماة "توقتي خاتون" وكانت من زوجات هولاكو الأخريات أيضا[(٢)].

وفيما يتعلق بآباقا خان بن هولاكو « فقد تربى في كنف دوقوز خاتون زوجة أبيه المسيحيّة، وعلى الرغم من اعتناقه الديانة البوذية فقد كان شديد الميل للديانة المسيحية»[(٣)].

وكان هولاكو خان في أواخر حياته قد طلب الزواج من إحدى بنات إمبراطور الروم البيزنطيين ميخائيل باليولوجوس (٦٥٨- ٦٨١هـ/ ١٢٦٠- ١٢٨٢م)، وقد وافق إمبراطور الروم على هذا الطلب، وأرسل ابنته مريم بصحبة عدد من وصيفاتها مصحوبة بالتحف والهدايا من القسطنطينية إلى إيران، وعندما بلغ الركب مدينة قيسارية بآسيا الصغرى التي كانت تعرف عندئذ ببلاد الروم حدث أن مات هولاكو

---

(١) انظر: العريني: المغول، صـ٢٠٨.

(٢) انظر: السيد الباز العريني: المغول، صـ٢٠٨.

(٣) عباس اقبال آشتيانى: تاريخ مفصل ايران از استيلاى مغول تا اعلان مشروطيت، در جهار جلد، جلد اول، از حمله چنگيز تا تشكيل دولت تيمورى، مطبعة مجلس، طهران، ١٣١٢هـ. ش، صـ٢٠٢.

خان، ولأنّ البيزنطيين كانوا حريصين على إتمام المصاهرة مع المغول الإيلخانيين، فقد واصل الركب طريقه إلى إيران، وتزوج آباقا خان الإيلخان الجديد تلك الفتاة[١].

وقد زعم بعض المؤرخين أنّ آباقا أدى مراسم التعميد واعتنق المسيحية قبل الزواج بناء على طلب من عروسه[٢], لكن يبدو أن هذه مبالغة لا تؤيدها كثير من الروايات والوقائع التي تؤكد اعتناق آباقا خان الديانة البوذية.

أم هولاكو المسيحية

كان من الشخصيات المسيحية التي أثرت تأثيرا مباشرا على أوضواع النصارى في عهد المغول الإيلخانيين أيضا أميرة أخرى هي "سورجقتاني" أو "سرقويتي بيكي" أم هولاكو خان ويؤكد المستشرق "ستيفن رانسيمان" على أن هذه الأميرة وغيرها من النساء المسيحيات كان لهن دور باز في دعم المسيحيين في عهد المغول.

يقول ستيفن رنسيمان: « كانت أمّ هولاكو "سورجقتاني" نسطورية، وكذلك كانت زوجته "طقز خاتون" وكانت الأميرة"ماريا" البيزنطية زوجة لآباقا خان ابن هولاكو، كما تزوج "منكو" خان المغول الأعظم عددا من النصرانيات، وعلى رأسهن "كوتوكتاي" وكانت هؤلاء الأميرات شديدات التمسك بالنسطورية حريصات أشدّ الحرص على مساعدة النصارى، حاقدات حقدا أعمى على المسلمين»[٣].

وإذا سلطنا الضوء على نصارى بغداد وحياتهم في عهود هولاكو وآباقا خان وأرغون خان وكيخاتو خان وبايدو خان، أي في الفترة منذ استيلاء المغول على بغداد سنة ٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م حتى استيلاء غازان خان بن أرغون على العرش سنة ٦٩٤هـ/

---

(١) عباس إقبال: المرجع السابق، الصفحة نفسها.

(٢) عباس إقبال: المرجع نفسه والصفحة.

(٣) رانسيمان: ستيفن: تاريخ الحروب الصليبية، الطبعة الأولى، نقله إلى العربية الدكتور السيد الباز العريني، نشر دار الثقافة، بيروت، سنة ١٣٨٩هـ/ ١٩٦٩م، جـ٣، صـ٥١٢.

١٢٩٤م، وباستثناء مدة حكم أحمد تكودار المسلم القصيرة، فإننا نلاحظ وجود العديد من الروايات في المصادر، التي تؤكد استقرار أوضاع النصارى نسبيا وتولي بعضهم مناصب إدارية عليا.

من ذلك على سبيل المثال لا الحصر:

مسعود بن قوطي صاحب الموصل

كان على رأس مشاهير نصارى العراق في عهد المغول الإيلخانيين شخص يدعى مسعود بن قوطي، وكان مسعود هذا فيما يبدو حاكما على مدينة الموصل لمدة طويلة وتجلت سلطته وقوته ونفوذه في ظل رعاية الوزير المغولي بوقا جينكسانك(١) الذي جمع بين الوزارة العظمى وإمرة أمراء الجيش في أوائل عهد أرغون خان.

وقد تملك مسعود بن قوطي الغرور بالسلطة والجاه فلم يستجب لنصح الناصحين، وكان أرغون خان قد ولاه منذ بداية عهده ملكا(٢) على المَوْصِل ونواحيها فابتهج النصارى بذلك، وأراد مسعود تدعيم سلطته وتقويتها اعتمادا على نفوذ أمير الأمراء

(١) كان بوقا من كبار أمراء آباقا خان وقد نجح في الانقلاب على السلطان أحمد تكودار ابن هولاكو ومكّن أرغون بن أباقا من قتل عمه السلطان أحمد والاستيلاء على السلطة فكافأه أرغون بالوزارة العظمى للدولة وإمرة أمراء الجيش ومنحه سلطة مطلقة، لكن صعود نجم سعد الدولة مسعود الطبيب اليهودي في عهد أرغون كان كفيلا بالقضاء على بوقا بعد توليه الوزارة قرابة الأربع سنوات. وللمزيد حول هذا الوزير ودوره السياسي والحضاري راجع: مصطفى حسين: الدور السياسي والحضاري للوزراء زمن المغول الإيلخانيين في إيران، م١، صـ١٦٦ فما بعدها.

(٢) ابن العبري: تاريخ الزمان، صـ٣٤٨، هكذا يقول برصوم مكمل كتاب ابن العبري ولعله يقصد حاكما على الموصل.

الوزير بوقا «فجعل يقول متفاخرا: إني لست أبغي أن أعيش دون بوغا، فإذا مات بوغا فضلت الموت على الحياة بعده»[١].

وقد بلغ بمسعود من القوة والنفوذ ما جعل مؤرخا نصرانيا وهو برصوم الصافي أخو المؤرخ جريجوريوس ابن العبري إلى القول بأن مسعودا كان لا يأبه بجميع كبار الأمراء المغول اعتمادا على علاقته الوطيدة بالوزير المغولي بوقا الذي اجتمعت في يده السلطة المطلقة العسكرية والمدنية آنئذٍ في الدولة الإيلخانية.

يقول برصوم الصافي: «أما مسعود بن قوطي وإخوته وأنسباؤه، فلم يكونوا يراجعون في المعسكر الملكي إلا بوغا (بوقا) وحده، لا يكترثون لسائر الأمراء، ولا ينزلون ليُحيّوهم بالسلام، معتقدين أن أوامر بوغا تعلو على أوامر جميع الأمراء؛ ولذا تشبثوا بطاعته دون غيره، وهذا ما حمل الجميع على أن يوبخوهم... وطالما نصح لهم أولئك الأمراء كي يؤدوا الطاعة والخضوع والانقياد للأمراء الملازمين للملك، ولا يتشبثوا بطاعة الواحد ويخالفون البقية؛ إذ يتفق أن ذلك الأمير الواحد... تعرِضُ له محنةٌ ولا يسعُه من ثمّ أن يساعدهم»[٢].

تاج الدين ابن المختص صاحب أربيل

ومن بين الشخصيات النصرانية العراقية التي ارتفع شأنها في العهد الإيلخاني أيضا تاج الدين ابن المختص الذي عُيّن حاكما على مدينة أَرْبِيل[٣] في عهد أرغون

(١) المصدر السابق، الصفحة نفسها.

(٢) تاريخ الزمان، الترجمة العربية، صـ٣٥٦؛ مصطفى حسين: الدور السياسي والحضاري للوزراء زمن المغول الإيلخانيين في إيران، م١ صـ٢٣٧.

(٣) ترد في المصادر "إربل" أو "أَرْبِيل"، وهي إحدى مدن العراق العجمي أو بلاد الجبل، وموقعها بين الزّابَيْن (وهما النهران الصغيران اللذان ينبعان من المشرق ويصبان غربا بميل إلى الجنوب في نهر دجلة)، وأربيل بين المشرق والجنوب من مدينة الموصل ==

خان وكان تاج الدين هذا من أعيان نصارى العراق، فصار من العمال الذين استعملهم الأمير آروق أخو الأمير بوقا في حكم وإدارة المناطق التي عهد إليه بها من جانب أخيه(١).

شمعون الطبيب المعروف بـ"روم القلعة"

وتحدثنا المصادر كذلك عن أحد كبار الأطباء النصارى الذين كانت لهم مشاركة واضحة في الحياة الإدارية في العراق في العهد الإيلخاني وهو شمعون الطبيب المعروف بروم القلعة(٢).

وعلى الرغم مما حظي به نصارى العراق من مكانة ونفوذ وجاه في عهد أرغون خان بوجه خاص، إلا أنّ هذا لم يغن عنهم شيئا حينما وجدوا أنفسهم في معترك الصراعات التي كانت تنشب بين الأمراء المغول، وفي مرمى الوشايات التي كانت تحاك بين كبار رجال الدولة؛ ففي أعقاب سقوط الوزير المغولي أمير الأمراء بوقا جينكسانك نتيجة لاستبداده بالأمر وسوء معاملة الإيلخان وأمراء البلاط، وضلوع الطبيب اليهودي الطامع في الوزارة سعد الدولة مسعود الأبهري في الوشاية به، تعرض نصارى الموصل وأربيل لنكبة عارمة من التعذيب والتنكيل والمصادرة والقتل.

وفي هذه النكبة اعتقل أمراء المغول مسعود بن قوطي حاكم الموصل، وكان مريضا عندئذٍ فعذّبوه واستولوا على أمواله متهمين إياه على عادتهم بالاختلاس، ثم

==على مسيرة يومين منها. القلقشندي: صبح الأعشى، جـ٤صـ٣٦٦، وهي في العصر الحديث مدينة "أربيل" الكبيرة العامرة، مقرّ مركزيّ للواء من ألوية العراق الشمالية، ويعود تاريخها إلى أقدم العصور الآشورية. لسترنج: بلدان الخلافة الشرقية، حاشية رقم (٢) صـ١٢٢.

(١) ابن العبري: تاريخ الزمان، صـ٣٥٦؛ مصطفى حسين: الدور السياسي والحضاري للوزراء زمن المغول الإيلخانيين في إيران، م١ صـ٢٧٥.

(٢) تاريخ الزمان، الترجمة العربية، ص٣٥٥، ذيل الكتاب؛ رشيد الدين: جامع التواريخ، م٢، جـ٢، الترجمة العربية، صـ١٤٧.

حملوه إلى أربيل وقتلوه، ثم تتبعوا أهله بالقتل والمصادرة، كما اعتقلوا تاج الدين بن المختص صاحب أربيل، ثم عذّبوه وحصّلوا منه نحو خمسين ألف دينار، ولم يتحمل تاج الدين التعذيب فحاول الانتحار غير مرة فلم ينجح(١)، ثم ما لبث أن قُتل على يد سعد الدولة اليهودي الذي خلف بوقا في منصب الوزارة بعد وقت قصير نتيجة لإحدى الوشايات(٢)، ويذكر برصوم الصافي أخو المؤرخ ابن العبري أسماء أخرى لبعض النصارى الذين قتلوا في تلك النكبة(٣).

ويعلق أحد الباحثين على ما أصاب نصارى العراق من نكبة في أعقاب سقوط الوزير بوقا بقوله: « هكذا فُعل بنصارى العراق بعد سقوط بوقا، وذلك بشهادة المؤرخ النصراني برصوم الصافي الذي أكمل كتاب أخيه ابن العبري بعد وفاته، وكان شاهد عيان على أحوال أبناء دينه من نصارى الموصل وأربيل، ولا شك أن روايات هذا المؤرخ تكتسب أهميتها من معاصرة صاحبها للأحداث، وانفراده بها دون غيره من مؤرخي العصر المغولي، وعلى الرغم مما يظهر في بعض رواياته من تعصب للنصارى ضد المسلمين الذين يعنيهم أحيانا بوصف "العرب"، فإنه لم يستطع تجاهل ما اقترفه مسعود وغيره من النصارى، من آثام جرّت عليهم وعلى غيرهم من النصارى ألوانا من القتل والاضطهاد والتعذيب، بل انتقد تصرفاتهم ووصف مأربهم بالخبيث»(٤).

---

(١) ابن العبري: تاريخ الزمان، صـ٣٥٦؛ مصطفى حسين: الدور السياسي والحضاري للوزراء زمن المغول الإيلخانيين في إيران، م١ صـ٢٧٥- ٢٧٦.

(٢) المصدر السابق، صـ٣٦٢.

(٣) المصدر السابق أيضا، صـ٣٥٩.

(٤) مصطفى حسين: الدور السياسي والحضاري للوزراء زمن المغول الإيلخانيين في إيران، م١، صـ٢٧٦؛ وراجع: ابن العبري: تاريخ الزمان، الترجمة العربية، صـ٣٥٤- ٣٥٦، ذيل الكتاب.

وعلى الرغم مما اشتهر به الإيلخان أرغون خان في المصادر من رعاية للنصارى وحسن معاملتهم، فإن ما أصاب النصارى في مدن العراق والجزيرة من اضطهاد وقتل وتعذيب على أيدي أمراء الجيش المغولي في أواخر سنة ٦٨٧هـ (١٢٨٨م) وأوائل السنة التالية على مرأى ومسمع منه، يؤكد أنّ الأمر يحتاج إلى إعادة النظر، فأرغون لم يحرك ساكنا لمنع جنده وأمرائه من إيذاء النصارى، بل إنه ليس من المستبعد أن يكون أرغون هو الذي أمر جنده بذلك؛ لينتقم من النصارى الموالين للأمير بوقا، وقد يشير هذا إلى أنّ رغبة أرغون في جمع الأموال كانت مقدَّمة عنده على أي اعتبار؛ ولذا فقد ترك جنوده يعيثون فسادا في الموصل وأربيل ويعذبون النصارى ويصادرونهم طمعا في الأموال والثروات[١].

يهود العراق في عهد المغول

فيما يتعلق بيهود العراق وموقف المغول منهم بعد الاستيلاء على بغداد، فقد كان اليهود يمثلون طائفة دينية ذات سمات طبقية مميزة في المجتمع العراقي في العهد الإيلخاني، لكن دور اليهود لم يكن كالنصارى في معظم الفترات، وإنما برز ذلك الدور في عهد أرغون خان بن آباقا على وجه الخصوص، وكان هذا نتيجة لظهور شخصية انتهازية اتخذت من الوشاية بالآخرين سبيلا للترقي وتولي المناصب الرفيعة في البلاط، ألا وهي شخصية الطبيب سعد الدولة مسعود الأبهري.

الوزير سعد الدولة اليهودي

اسمه سعد الدولة[٢] مسعود بن صفي الدولة هبة الله بن مهذب الدولة موسى الإسرائيلي اليهودي الأبهري[١]، واسمه العبري وفقا لما ذكره أحد مؤرخي اليهود

---

(١) راجع: مصطفى حسين: المرجع السابق، م١، صـ٢٧٦.

(٢) عند الذهبي وابن العماد "سعيد الدولة" والمذكور أعلاه ادق لشهرته في المصادر. راجع: الذهبي: شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز: العبر في خبر ==

"مردخاي ابن الحربية"[٢] أما لقب سعد الدولة فقد مُنحه من قبل أرغون بعد أن تولى الوزارة فيما بعد[١].

==من غبر، الطبعة الأولى، مطبعة حكومة الكويت، الكويت، سنة ١٣٨٦هـ/ ١٩٦٦م، جـ٣ صـ٣٧٢؛ ابن العماد الحنبلي: أبا الفلاح عبد الحي: شذرات الذهب في أخبار من ذهب، الطبعة الأولى، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، بدون تاريخ، م٣ جـ٥، صـ٤١١، وقارن بما ورد لدى ابن الفوطي: تلخيص مجمع الآداب في معجم الألقاب، جـ٤ ق٣ صـ١٢٨، ترجمة رقم ٢٠١٤ (فخر الدولة أخو سعد الدولة اليهودي)؛ حمد الله المستوفي: تاريخ گزيده، صـ٥٩٨؛ عبد الله الشيرازي: تاريخ وصاف، صـ٢٣٥؛ عقيلى: آثار الوزراء، ص٢٨١؛ خواندمير: دستور الوزراء، صـ٢٩٦، الترجمة العربية، صـ٣٥٩؛ المؤلف نفسه: تاريخ حبيب السير، م٣ جـ١، صـ١٢٨؛ آيتى: تحرير تاريخ وصاف، صـ١٤١.

(١) راجع ترجمة أخيه فخر الدولة التي أوردها ابن الفوطي في معجمه تحت رقم٢٠١٤؛ الكرماني: نسائم الأسحار، صـ١٠٧؛ خواندمير: تاريخ حبيب السير، م٣ جـ١، ص١٢٨؛ آيتى: المرجع نفسه والصفحة، والأبْهَريّ نسبة إلى مدينة أبهر، وهي إحدى مدن بلاد الجبل (العراق العجمي)، تقع بين قزوين وزنجان، منها إلى الأخيرة خمسة عشر فرسخا. حمد الله المستوفي: نزهة القلوب، صـ٦٠، ٦٤؛ القلقشندي: صبح الأعشى، جـ٤ صـ٣٦٩.

(٢) حبيب لوي: تاريخ يهود ايران وقسمتهائى از تواريخ بعضى از ملل كه وابسته بتاريخ يهود ميباشد، جلد سوم، كتابهاى پنجم وششم وهفتم، سلطان سنجر تا عصر كنونى سلطنت فرخنده اعليحضرت محمد رضا شاه پهلوى، چاب اول، كتاب فروشى بروخيم، سال ٥٧٢١ عبرى/ ١٣٣٩ هـ. ش/ ١٩٦٠م، جـ٣ صـ٨٠؛ فاطمة نبهان: يهود إيران في العصر الإيلخاني من خلال كتاب "تاريخ يهود ايران" تأليف حبيب لوى، ترجمة ودراسة، صـ١٤، حولية كلية الآداب جامعة عين شمس، العدد ٢٦ لسنة ١٩٩٨م؛ مصطفى حسين: الدور السياسي والحضاري للوزراء زمن المغول الإيلخانيين في إيران، م١، صـ٢٨٤.

كان سعد الدولة في مبدأ أمره دلالا بسوق الصّاغة بمدينة الموصل(٢)، وقد تميز بعدد من السمات التي أهلته للترقي في الوظائف الإدارية، أهمها مهارته في علم الطبّ ومعرفته بعدة لغات، كما كان سعد الدولة كيّسا فطنا ذكيًّا ذا دراية، كثير البذل والعطاء كما وصفه بعض المؤرخين، كما كان جامعا بين الكفاءة والثراء(٣)، عارفا بعدة لغات نتيجة لمخالطته الأجناس المختلفة من عرب وترك وإيرانيين في مدينة بغداد، ومن اللغات التي تعلمها سعد الدولة في هذه المدينة اللغة التركيّة واللغة المغولية(٤) فضلا عن معرفته بالفارسية بحكم إيرانيته، وإتقانه العربية كما يستفاد من بعض الروايات، كما كان سعد الدولة ملمًّا برسوم البلاط وملازمة السلاطين، عارفًا بآداب خدمتهم(٥).

---

(١) برتولد شبولر: العالم الإسلامي في العصر المغولي، الترجمة العربية، صـ٧٠؛ مصطفى حسين: الدور السياسي والحضاري للوزراء زمن المغول الإيلخانيين في إيران، م١، صـ٢٨٤.

(٢) العمري: مسالك الأبصار، جـ٢٧ صـ٤٣٧؛ أبو الفداء: المختصر في أخبار البشر، جـ٢ صـ٣٥١؛ يوسف غنيمة: نزهة المشتاق في تأريخ يهود العراق، صـ162؛ مصطفى حسين: الدور السياسي والحضاري للوزراء زمن المغول الإيلخانيين في إيران، م١ صـ٢٨٦.

(٣) الكرماني: نسائم الأسحار، صـ١٠٧؛ رشيد الدين: جامع التواريخ، م٢ جـ٢، الترجمة العربية، صـ١٣٨- ١٣٩؛ عقيلى: آثار الوزراء، صـ٢٨١.

(٤) عبد الله الشيرازي: تاريخ وصاف صـ٢٣٥- ٢٣٦؛ آيتى: تحرير تاريخ وصاف، صـ١٤١؛ خواندمير: تاريخ حبيب السير، م٣، جـ١، صـ١٢٨؛ عباس اقبال: تاريخ مفصل ايران، م١، صـ٢٣٨، الترجمة العربية، صـ248.

(٥) مصطفى حسين: الدور السياسي والحضاري للوزراء زمن المغول الإيلخانيين في إيران، م١ ، صـ٢٨٦؛ وراجع: ابن الفوطي: الحوادث الجامعة، ص٤٥٦، حوادث سنة ٦٨٧هـ، صـ٤٥٧.

وبالإضافة إلى ما سبق فقد كان سعد الدولة « خبيرا بالشئون الإدارية والمالية، وبخاصة ما يتعلق منها بجباية الأموال واستيفائها وتنظيم الدخل والخرج، وقد تجلت خبرته –بوجه خاص– في معرفته بأحوال العمال والمتصرفين في ولاية بغداد وأعمالها، ووقوفه على أوضاعها الإدارية والمالية بفضل إقامته بها قبل التحاقه بخدمة بلاط أرغون خان بآذربيجان»(١).

وقد تولى سعد الدولة اليهودي عددا من المناصب الإدارية بولاية بغداد، منها نظر وقف البيمارستان العضدي الذي كان قد أنشئ في بغداد منذ عهد عضد الدولة البويهي، وقد عزل عن هذا المنصب سنة ٦٨٢هـ (١٢٨٣م) كما ذكر ابن الفوطي(٢).

وفي السنة التالية ٦٨٣هـ/ ١٢٨٤م حظي سعد الدولة بمنصب أعلى من سابقه، ألا وهو "نائب وحاجب شِحْنة(٣) بغداد"، وإلى هذا يشير رشيد الدين الهمذاني فيقول: «في سنة ٦٨٣هـ/ ١٢٨٤م عُيّن "تونسكا" شحنة لبغداد، فلما بلغها اختار سعد الدولة بن هبة الله بن مهذب الدولة الأبهري، الذي كان كفؤا ثريا، وخبيرا بشئون بغداد – كبيرها وصغيرها– ليكون نائبا عنه وحاجبا له»(٤).

---

(١) رشيد الدين: جامع التواريخ، م٢، جـ٢، الترجمة العربية، ص١٣٨– ١٣٩؛ الكرماني: نسائم الأسحار، صـ١٠٨؛ ميرخواند: تاريخ روضة الصفا، جـ٥، صـ٢٤٩؛ الصياد: الشرق الإسلامي في عهد الإيلخانيين، صـ١٦٣؛ مصطفى حسين: الدور السياسي والحضاري للوزراء زمن المغول الإيلخانيين في إيران، م١، صـ٢٨٥.

(٢) الحوادث الجامعة، صـ٤٣٣؛ خصباك: العراق في عهد المغول الإيلخانيين، صـ٧٥؛ مصطفى حسين: الدور السياسي والحضاري للوزراء زمن المغول الإيلخانيين في إيران، م١ ، صـ٢٨٥.

(٣) الشِّحْنة رئيس الشرطة أو الحامية العسكرية وهو مشهور في المصادر.

(٤) جامع التواريخ: م٢، جـ٢، الترجمة العربية، صـ١٣٨– ١٣٩.

واعتمادا على هذا المنصب استطاع سعد الدولة أن يتحكم في بغداد، ويتدخل في كافة شؤونها المالية والإدارية على مدى ثلاث سنوات، أي من سنة ٦٨٣هـ/ ١٢٨٤م حتى سنة ٦٨٦هـ/ ١٢٨٧م، فصار فيها الحاكم بأمر الشحنة المغولي تونسكا بسبب كفايته ودرايته وإحاطته بالأمور، وقد تزايد تسلط سعد الدولة على القائمين على إدارة بغداد في ذلك الوقت حتى تجاوز نفوذه صاحب ديوان الولاية نفسه[١].

وحينما ضيق سعد الدولة الخناق على عمال ولاية بغداد أخذوا يعملون على إبعاده عن بغداد فأوعزوا إلى المقربين من أرغون خان بأن يلحقوه بأطباء البلاط فانتقل سعد الدولة لمقر البلاط بآذربيجان ولازم أرغون خان[٢]، ولم يلبث سعد الدولة أن ارتفعت منزلته لدى الإيلخان نتيجة لكفاءته الإدارية والمالية وقد أوفد من قبل الإيلخان بصحبة عدد من أمراء المغول إلى ولاية بغداد ورجع إلى العاصمة تبريز بمبالغ هائلة من الأموال وكميات ضخمة من البضائع[٣].

وقد أثمرت جهود سعد الدولة بعد انتقاله إلى البلاط وملازمته الإيلخان أرغون بآذربيجان فكانت «أول ثمرة حصل عليها سعد الدولة بعد التحاقه بالعمل داخل البلاط الإيلخاني، تعيينه مشرفا على ولاية بغداد والعراق العربي وديار بكر، وكان هذا بعد عودته من الرحلة التي قام بها هو والأمير أوردوقيا إلى بغداد في أواخر سنة ٦٨٦هـ/ (١٢٨٧م)، حيث جمع أموالا طائلة وحملها إلى أرغون خان الذي كافأه بأن جعله

---

(١) رشيد الدين: المصدر السابق، م٢، جـ٢، صـ١٣٩؛ ابن الفوطي: الحوادث الجامعة، صـ٤٤٨، ٤٥٠؛ مصطفى حسين: الدور السياسي والحضاري للوزراء زمن المغول الإيلخانيين في إيران، م١، صـ٢٨٩.

(٢) راجع التفاصيل لدى: مصطفى حسين: المرجع السابق، م١، صـ٢٨٩ فما بعدها.

(٣) ابن الفوطي: الحوادث الجامعة، صـ٤٥٤؛ مصطفى حسين: المرجع السابق، م١، صـ٢٩٣.

مسئولا عن إحصاء الدخل والخرج لأموال بغداد وأعمالها، وهو ما كان يُعرف عندئذٍ بمنصب الإشراف، وقد حدث ذلك في المحرم سنة ٦٨٧هـ/ ١٢٨٨م طبقا لرواية ابن الفوطي، وعلى الفور اتجه سعد الدولة بصحبة أوردوقيا إلى بغداد لمباشرة عمله الجديد، ومواصلة جمع الأموال وإرسالها إلى خزانة الدولة»[١]، وطبقا لرواية المؤرخ النصراني برصوم الصافي فقد « أصبح عرش آل العباس وحكمهم في قبضة ذلك اليهودي»[٢]، يعني سعد الدولة.

وقد تجلت جهود سعد الدولة حين بلغت منزلته لدى أرغون خان منتهاها فتولى الوزارة العظمى للدولة وصار صاحب ديوان الممالك الإيلخانية، ليكون المسئول الأول عن تدبير الشؤون المالية والإدارية بالدولة الإيلخانية، وكان ذلك وفقا لأرجح الأقوال في جمادى الآخرة سنة سنة ٦٨٧هـ[٣]/ ١٢٨٨م.

وكان لتعيين سعد الدولة اليهودي وزيرا لمغول إيران الإيلخانيين أثر بالغ على الحياة الإدارية في ولاية بغداد؛ إذ عمل سعد الدولة على التخلص من عمال بغداد الذين كانوا رجالا للوزير السابق بوقا فقُتل ناصر الدين قتلغ شاه الصاحبي صاحب

---

(١) مصطفى حسين: الدور السياسي والحضاري للوزراء زمن المغول الإيلخانيين في إيران، م١ ، صـ٢٩٣؛ وراجع ابن الفوطي: الحوادث الجامعة، صـ٤٥٤.

(٢) ابن العبري: تاريخ الزمان، الترجمة العربية، صـ٣٥٤، ذيل الكتاب.

(٣) تاريخ وصاف، صـ٢٣٦- ٢٣٧؛ آيتى: تحرير تاريخ وصاف، صـ١٤٢؛ ميرخواند: تاريخ روضة الصفا، جـ٥، صـ٣٥٠- ٣٥١؛ خواندمير: دستور الوزراء، ص٢٩٧- ٢٩٨، الترجمة العربية، صـ٣٦٠؛ تاريخ حبيب السير، م٣ جـ١، صـ١٢٨-١٢٩؛ شيرين بياني: دين ودولت در ايران عهد مغول، جلد دوم، حكومت ايلخانى: نبرد ميان دو فرهنگ، مركز نشر دانشكاهى تهران، چاپ اول، ١٣٧٥ هـ. ش، جـ٢، صـ٤٢٢- ٤٢٣.

ديوان بغداد بعد مصادرة أمواله[1]، وكان ممن نكبهم سعد الدولة في أوائل وزارته في ولاية بغداد أيضا كل من زين الدين الحظائري ضامن تمغات بغداد، و"مجد الدين إسماعيل بن إلياس" صدر الحلة، وكان هذان من كبار رجال الحكم والإدارة في بغداد في عهد وزارة الأمير بوقا[2].

وبعد التخلص من أبرز عمال بغداد الذين تولوا شؤونها في عهد الوزير السابق بوقا عمل سعد الدولة على تعيين اليهود في مناطق الدولة الإيلخانية كافة، وقد حظي يهود العراق بوجه خاص بعناية سعد الدولة فولاهم في أرفع المناصب ولعل أبرزهم:

- **فخر الدولة إيليا أخو سعد الدولة:** عُيِّن حاكما على بغداد ونائبا عن الوزارة بها[3].
- **مهذب الدولة نصر الله بن إسحق بن الماشعيري:**[4] عُيِّن مشاركا لفخر الدولة في الحكم[5]، ومهذب الدولة هذا يهودي آخر من أقارب سعد الدولة، وهو يختلف عن ابن عمٍ لسعد الدولة يحمل اللقب نفسه، وكان مهذب الدولة قد قضى وقتا طويلا في مباشرة العمل الديواني والإداري في بغداد؛ إذ عمل نائبا عن مجد

---

(1) ابن الفوطي: الحوادث الجامعة، صـ٤٥٩.

(2) ابن الفوطي: الحوادث الجامعة، صـ٤٥٤– ٤٥٥، صـ٤٥٨؛ يوسف غنيمة: نزهة المشتاق في تأريخ يهود العراق، صـ166– 167؛ مصطفى حسين: الدور السياسي والخضاري للوزراء زمن المغول الإيلخانيين في إيران، م١، صـ٣٠٧.

(3) رشيد الدين: جامع التواريخ، م٢، جـ٢، الترجمة العربية، صـ١٥٢؛ ابن الفوطي: المصدر السابق، صـ٤٥٨؛ المؤرخ نفسه: تلخيص مجمع الآداب، جـ٤ ق٣، صـ١٢٨؛ الصياد: الشرق الإسلامي في عهد الإيلخانيين، صـ١٦٧؛ مصطفى حسين: الدور السياسي والحضاري للوزراء زمن المغول الإيلخانيين، م١، صـ٣١٠– ٣١١.

(4) ابن الفوطي: الحوادث الجامعة، صـ٤٥٨؛ تلخيص مجمع الآداب، جـ٤ ق٣، صـ١٢٨.

(5) ابن الفوطي: الحوادث الجامعة، الموضع نفسه؛ خصباك: العراق في عهد المغول الإيلخانيين، ص٢٠٢.

الدين ابن الأثير أحد الحكام ببغداد في أيام حكومة الأمير آروق في عهد وزارة "بوقا چينگسانگ"[1].

- **شمس الدولة بن الدَّباس:** وهو يهوديٌّ آخر، وقد ولاه سعد الدولة على أملاكه الخاصة في ولاية بغداد[2].

وبناء على ما سبق فقد تسلط اليهود على الدولة الإيلخانية وخاصة ولاية بغداد، معتمدين على نفوذ الوزير سعد الدولة، الذي استبد بالسلطة معتمدا على ثقة أرغون خان، فتجاهل كبار أمراء الجيش والبلاط ، لكن مرض الإيلخان أرغون خان المفاجئ في أواخر سنة ٦٨٩هـ وأوائل السنة التالية[3]، (١٢٩٠- ١٢٩١م) أثار رعب الوزير سعد الدولة فبدأ يترقب عاقبته الوخيمة ويشعر بالندم على سوء سياسته[4].

وخلاصة الأمر أنّ مرض الإيلخان أرغون هيأ فرصة مناسبة للأمراء لينتقموا من الوزير سعد الدولة، فما كان منهم إلا أن انقضوا عليه وقتلوه في أوائل سنة ٦٩٠هـ/ ١٢٩١م، وفقا لرواية رشيد الدين وهي الأرجح[5]، وبذلك يكون الوزير سعد الدولة اليهودي قد قضى في وزارة الدولة الإيلخانية مدّة زمنية تزيد على سنتين ونصف بقليل[6].

---

(1) مصطفى حسين: الدور السياسي والحضاري للوزراء زمن المغول الإيلخانيين، م١، صـ٣١١.

(2) ابن الفوطي: تلخيص مجمع الآداب، جـ٤، ق٣، صـ١٢٨؛ مصطفى حسين: المرجع السابق، الصفحة نفسها.

(3) رشيد الدين: جامع التواريخ، م٢، جـ٢، صـ١٦٢.

(4) خواندمير: دستور الوزراء، صـ٣٠٣، الترجمة العربية، صـ٣٦٤؛ تاريخ حبيب السير، م٣، جـ١، صـ١٣٢.

(5) رشيد الدين: جامع التواريخ، م٢، جـ٢، الترجمة العربية، صـ١٦١.

(6) استمرت هذه المدة منذ شهر جمادى الآخرة سنة ٦٨٧هـ حتى ربيع الأول سنة ٦٩٠هـ. مصطفى حسين: الدور السياسي والحضاري للوزراء زمن المغول الإيلخانيين في إيران، م١، صـ٣٧١.

وبسقوط الوزير سعد الدولة انتهى تسلط اليهود وحانت نكبتهم، فقد استولى الأمراء على أموال سعد الدولة وأقاربه الذين كان قد ولاهم المناصب الرفيعة، ولم يكتفوا بذلك، بل إنهم نكبوا معظم اليهود المقيمين في ولايات الدولة الإيلخانية كافة، فتعرض اليهود لمحنة دفعوا فيها ثمن تسلط سعد الدولة وغروره[1].

ولعلّ المؤرخ النصراني برصوم الصافي أخا ابن العبري أبرز المؤرخين المعاصرين لأحداث نكبة اليهود في تلك الآونة، وعن تلك النكبة يقول: «وما عتم أن سخط الله –تعالى– على اليهود في كل الأمصار؛ فقد بطش التتر أولا بسعد الدولة صاحب الديوان اليهودي... ثم وجّهوا وفودا إلى بلاد المغول كلها، فقبضوا على إخوته وأنسبائه وأوثقوهم بالقيود، ونهبوا أشياءهم وأخذوا أبناءهم وبناتهم وخُدّامهم وجواريهم وكل أموالهم، وبعد أن قُتل منهم من قُتل، عادوا إلى حالتهم السابقة؛ فالذي كان في الأمس يحل ويربط، ويرفل بالحُلل الملكية، أمسى اليوم متردِّيا مسحا خَلِقا ويداه موسَّختين، أعني أمسى صبّاغا لا كاتبا، ومستعطيا لا آمرا ومسلَّطا»[2].

ومن الملاحظ أنّ يهود بغداد كانوا الأشد تعرضا للنكبة والبطش من غيرهم من سائر يهود الدولة الإيلخانية، وقد أورد برصوم الصافي طرفا مما أصاب اليهود في بغداد على أثر قتل سعد الدولة، فذكر أن العرب من أهل بغداد انتهزوا فرصة غضب المغول على اليهود فثاروا عليهم، وتسلحوا قاصدين محلتهم الملاصقة لمحلة المسلمين، وحاولوا دخولها للسلب والنهب، لكنّ اليهود قاوموهم، فوقعت بين الطرفين

---

(1) حول تفاصيل مقتل سعد الدولة ونكبة اليهود في الدولة الإيلخانية راجع: عباس اقبال: تاريخ مفصل ايران، م١، صـ٢٤٣؛ فؤاد الصياد: الشرق الإسلامي في عهد الإيلخانيين، صـ١٧٥ فما بعدها؛ مصطفى حسين: المرجع السابق، م١، صـ٣٧٤ فما بعدها.

(2) تاريخ الزمان، الترجمة العربية، صـ٣٦٤، ذيل الكتاب، وكلمة "موسّختين" وردت هكذا بالأصل وهذا خطأ فلعله تصحيف وصوابه: "مُوَسَّختان".

معركة قُتل فيها عدد من الجانبين[1]، وكما يقول برصوم «ويقصر اللسان عن ذكر كل ما حدث لهم – أي اليهود- من الأسواء»[2].

ولعلّ من أبرز الاحداث التي توضح الآثار الدينية للغزو المغولي لبغداد تلك النكبة التي تعرض لها اليهود على أيدي أمراء المغول، « فقد كان يهود العراق أكثر اليهود في مختلف البلاد الإيلخانية تعرضا للنكبات والأهوال؛ إذ شهدت كثير من مدن العراق في هذه الأثناء من صنوف السلب والنهب والقتل والتمثيل ضد اليهود ما تقشعر له الأبدان، وهذا ما تؤكده الروايات العديدة التي أوردها المؤرخ البغدادي ابن الفوطي المعاصر لتلك الأحداث»[3].

ولقد كان من الطبيعي المتوقع « أن يكون اليهود من عمال سعد الدولة –الذين أقامهم ولاة لتدبير الشئون المالية والإدارية في العراق- على رأس من تعرضوا للنكبة هناك، وهؤلاء هم: فخر الدولة إيليا أخو سعد الدولة وحاكم ولاية بغداد ونائب الوزارة بها، وشريكه مهذب الدولة نصر الله بن إسحق بن الماشعيري، وأمين الدولة أخو سعد الدولة الأصغر، الذي كان حاكم ديار بكر وديار ربيعة»[4].

---

(1) ابن العبري: المصدر السابق، الصفحة نفسها، مصطفى حسين: المرجع السابق، م١، صـ٣٧٥.

(2) ابن العبري: المصدر نفسه، والصفحة.

(3) مصطفى حسين: الدور السياسي والحضاري للوزراء زمن المغول الإيلخانيين في إيران، م١، صـ٣٧٥. راجع ابن الفوطي: الحوادث الجامعة، صـ٤٦٤- ٤٦٥؛ يوسف غنيمة: نزهة المشتاق في تأريخ يهود العراق، صـ167- 168 .

(4) مصطفى حسين: المرجع السابق، م١، صـ٣٧٥.

جـ- موقف المغول من الإسلام

ثمة سؤال يطرح نفسه: إلى أي حدٍّ تمكن الدين الإسلامي في نفوس المغول؟ وماذا كان موقفهم من عاداتهم وتقاليدهم القديمة وخاصة تلك التي تتعارض مع تعاليم الإسلام؟

وللإجابة عن هذا السؤال يمكن ملاحظة أنّ موقف المغول الإيلخانيين من الإسلام كان موقفا مثيرا للدهشة؛ فعلى الرغم من وحشية الغزاة المغول وتسلطهم على الرعايا المسلمين بالقوة، وعلى الرغم من حالة الضعف والخضوع التي خيمت على المسلمين المغلوبين على أمرهم آنئذٍ، فإنّ الإسلام وجد طريقه إلى قلوب المغول، وتجلت قوة فكرة الإسلام في اعتناق تكودار بن هولاكو، -وهو ثالث إيلخانات المغول في إيران- الإسلام ومحاولته تغيير دين الدولة من البوذية والشامانية إلى الإسلام.

وعلى الرغم من فشل تكودار الذي تسمى بالسلطان أحمد، ووثوب ابن أخيه "أرغون بن أباقا" البوذي عليه ومقتله، وعودة الدولة إلى سابق عهدها الوثني، إلا أن محاولته كانت بمثابة الخطوة الأولى التي خطاها المجتمع المغولي في عهد الإيلخانيين نحو الإسلام، وهي التي توجت في عهد غازان بالتحول التام إلى الإسلام سنة ٦٩٤هـ/ ١٢٩٤م.

ومن المتفق عليه أنه في عهدي هولاكو وآباقا بن هولاكو، حظي المسلمون في بغداد بشيء من الاستقرار النسبي تحت الحكم المغولي نتيجة لوجود بعض صنائع المغول من العمال المسلمين وعلى رأسهم صاحب ديوان بغداد "علاء الدين عطا ملك الجويني"، أخو الوزير الأعظم للدولة الإيلخانية شمس الدين محمد الجويني صاحب ديوان الممالك الإيلخانية، وكذلك نتيجة لبقاء الكثيرين من عمال الخلافة العباسية الذين قدموا فروض الطاعة والولاء للمغول، وظلوا يعملون في الجهاز الإداري لولاية

بغداد الإيلخانية[1]، وعلى الرغم من اعتناق المغول الإسلام، فإنهم ظلوا شديدي الارتباط بعاداتهم وتقاليدهم.

وقد اتضح موقف المغول منذ البداية من الشيعة في ناحية وأهل السنة والجماعة في ناحية أخرى وذلك وفقا لموقف كل طرف من الطرفين حيال الغزو المغولي، وفيما يلي تحليل لذلك الموقف في ضوء ما ورد في المصادر.

موقف المغول من السنة والشيّعة

من الأمور المستقرة في البحث التاريخي أن المغول استغلوا الصراع المذهبي بين أهل السنة والجماعة من جانب، والشيعة من جانب آخر منذ اللحظة الأولى التي قرروا فيها الاستيلاء على مقر الخلافة العباسية بالعراق، وغير خاف على كلِّ مهتم بالبحث التاريخي في حادثة غزو بغداد أنّ المغول استغلوا الشيعة أفضل استغلال، ولعلّ موقف الوزير الشيعي مؤيَّد الدين بن العلقمي من أظهر الأدلة على ذلك؛ إذ تميل أغلب المصادر الإسلامية إلى اتهامه بخيانة الخليفة العباسي صراحة وبتدخله في أمر محاصرة بغداد لصالح المغول وتحريضهم على قتل الخليفة[2].

---

(1) راجع: ابن الفوطي: الحوادث الجامعة، صـ٣٣١- ٣٣٣.

(2) المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، جـ١، صـ٤٠٠؛ فؤاد الصياد: المغول في التاريخ، صـ٢٧١؛ بدوي: عبد المجيد أبو الفتوح: التاريخ السياسي والفكري للمذهب السني في الشرق الإسلامي من القرن الخامس الهجري حتى سقوط بغداد، الطبعة الأولى، نشر عالم المعرفة، جدة، سنة ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م، صـ٣٢٩.

وكذلك موقف نصير الدين الطوسي الذي اتخذه هولاكو مستشارا له ومنجما لبلاطه بعد استيلاء جيوش المغول على قلاع الإسماعيلية بإيران سنة ٦٥٤هـ/ ١٢٥٦م(١).

ومن الملاحظ أنَّ الشيعة كانوا يؤيدون الزحف المغولي على بلاد المسلمين وقد ظهر ذلك جليا حينما سقطت قلاع الإسماعيلية في إيران في أيدي المغول؛ فحينما سقطت القلاع واستقر هولاكو في همذان وبدأ في الإعداد لمهاجمة بغداد كان معاونوه أغلبهم من الشيعة وعلى رأسهم نصير الدين الطوسي وابن العلقمي الوزير وابن عمران الباجسرائي والفقيه ابن طاووس وغيرهم، هذا بالإضافة إلى ان الشيعة في الحلة والكوفة والنجف رحبوا بالمغول نكاية في أهل السنة من ناحية وخوفا من مواجهة المغول من ناحية أخرى(٢).

ويشهد أحد مؤرخي الشيعة بأنّهم جنوا ثمار تأييدهم للمغول حين يتحدث عن أثر الغزو المغولي على مكانة الشيعة في العراق فيقول: «استعاد العلويون الكثير من نفوذهم واحترامهم في العراق بعد الاحتلال المغولي بفترة قصيرة، وظلوا ينتظمون في نقابات منتشرة في مدن العراق المهمة يرأسهم نقيب العلويين في بغداد، الذي لم يعد مع ذلك يعتبر أحد كبار موظفي الدولة كما كان عليه الحال في الدولة العباسية»(٣).

---

(١) آربري: تراث فارس، صـ٣٨٩؛ محمد أحمد: إسلام الإيلخانيين، صـ٢٨؛ كارل بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية، ص٣٨٩؛ فؤاد الصياد: المغول في التاريخ، صـ٢٤١.

(٢) انظر: صبري سليم: الصراع السياسي والمذهبي بين الشيعة والسنة، صـ٢٧٩.

(٣) جعفر حسين خصباك: العراق في عهد المغول الإيلخانيين، صـ٢٦٥. ويؤيد هذا القول كل من: برتولد شبولر: العالم الإسلامي في العصر المغولي، صـ٦٥؛ حسن خليفة: الدولة العباسية قيامها وسقوطها، الطبعة الأولى، دار الفكر العربي، القاهرة، سنة١٣٦٧هـ/ ١٩٤٧م، صـ٢٣٨؛ دائرة المعارف الإسلامية، أصدرها بالإنكليزية ==

وتؤكد الأحداث التاريخية أن الشيعة من أهل الحلة والكوفة أرسلوا وفدا في أثناء حصار المغول بغداد لهولاكوا يعلنون تأييدهم له، وكان على رأس ذلك الوفد اثنان من أكابر رجالات الشيعة وهما: مجد الدين بن طاووس، وسديد الدين يوسف ابن المطهر الحلّي[1].

وقد سعد هولاكو بقدوم ذلك الوفد الشيعي، وعيّن لهم شحنة مغولي هو الأمير بوقا تيمور[2]، أما الشيعة من أهل الحلة والكوفة فقد أسرعوا بجمع الأموال وأرسلوها لهولاكو خان، ولم يكتفوا بذلك فحسب، بل أقاموا جسرا على الفرات لاستقبال جند المغول[3]، ولعلّ هذا يفسر سلامة الكوفة والحلة وأهلهما من النكبة التي عمت بلاد العراق على أثر الغزو المغولي، كما أرسل إليهم هولاكو خان مائة جندي مغولي

==والفرنسية والألمانية أئمة المستشرقين في العالم، النسخة العربية، إعداد وتحرير: إبراهيم زكي خورشيد، وأحمد الشنتناوي، وعبد الحميد يونس، طبعة دار الشعب، القاهرة، سنة ١٩٦٦م، جـ٥، صـ٣٦٤؛ صبري سليم: الصراع السياسي والمذهبي بين الشيعة والسنة، صـ٢٨٠.

(١) ابن عقبة: جمال الدين أحمد بن علي الحسني (ت٨٢٨هـ): عمدة الطالب في أنساب آل أبي طالب، الطبعة الأولى، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، بدون تاريخ، صـ٢٢٠؛ الشبيبي: مؤرخ العراق ابن الفوطي، جـ٢، صـ١٨٩؛ محسن الأمين: أعيان الشيعة، الطبعة الأولى، مطبعة الإنصاف، بيروت، سنة ١٣٨١هـ/ ١٩٦١م، جـ٤٣ ، صـ٣٦٤.

(٢) ابن العبري: تاريخ مختصر الدول، صـ٤٥٧؛ عباس العزاوي: تاريخ العراق بين احتلالين، جـ١، صـ٢٠٥.

(٣) ابن الفوطي: الحوادث الجامعة، صـ٣٣٠؛ رشيد الدين: جامع التواريخ، م٢، جـ١، صـ٢٩٦؛ خصباك: العراق في عهد المغول الإيلخانيين، صـ٥٧؛ عبد المجيد بدوي: التاريخ السياسي والفكري للمذهب السني في الشرق الإسلامي، صـ٣٢٣.

لحماية مشهد علي بن أبي طالب رضي الله عنه في النجف الأشرف مما قد يهدده من أخطار[١].

ومن الجدير بالملاحظة أنّ علاقة الإيلخانيين الأوائل - وعلى رأسهم هولاكو خان- بالمسلمين سواء أكانوا من الشيعة أم من السنة، كانت ترتبط بما يسعى إليه هؤلاء الغزاة من مصالح سياسية أو عسكرية، وهم بذلك لا يخرجون عن السياسة العامة للمغول من لدن جنكيزخان في إدارة الصراع مع خصومهم، وذلك بالعمل على تفتيت قوى هؤلاء الخصوم بإثارة الأقليات وتحفيزها للنزاع، مع الاستعانة ببعض الشخصيات المهمة من أصحاب المصالح أو المطامع الخاصة، وهذا يضمن للمغول صيانة جيشهم من الدخول في صراعات من شأنها استنزاف قوته وإضعافه فيما يمكن تحقيقه من أهداف دون تضحيات أو خسارة[٢].

وثمة بعض الشواهد التي تؤكد حرص هولاكو خان على اتباع سياسة متوازنة تجاه الشيعة والسنة ليثبت أقدامه في العراق؛ فعقب سقوط بغداد وانتهاء عمليات القتل والسلب والنهب، أمر هولاكو بإعادة تعمير ما خرّبه الهجوم المغولي دون تمييز بين المؤسسات السنيّة أو الشيعيّة، ومن هذا المنطلق تم إصلاح جامع الخليفة وتعميره وهو من أكبر مساجد أهل السنة والجماعة ببغداد، كما تم إصلاح وتعمير مشهد موسى الكاظم، وهو من أهم مشاهد الشيعة الإمامية الإثنى عشرية في بغداد الغربية[٣].

---

(١) رشيد الدين: جامع التواريخ، م٢، جـ١، صـ٢٩٦؛ مصطفى طه بدر: محنة الإسلام الكبرى، صـ١٥٥؛ صبري سليم: الصراع السياسي والمذهبي بين الشيعة والسنة، صـ٢٣٧.

(٢) انظر: صبري سليم: الصراع السياسي والمذهبي بين الشيعة والسنة، صـ٢٧٨.

(٣) صبري سليم: الصراع السياسي والمذهبي بين الشيعة والسنة، صـ٢٧٩.

وعلى الجملة فيمكن القول بأنَّ «التغيير الأساسي الذي أحدثه هولاكو في إدارة بغداد هو إزاحة الخليفة العباسي المستعصم بالله من على قمة السلطة، واستبداله بحاكم عسكري يعاونه مجموعة من القواد العسكريين تؤازرهم حامية مغولية قوية، وكذلك تثبيت معظم رجال الإدارة الذين خرجوا إليه في أثناء الحصار سواء أكانوا من السنة أو الشيعة وبخاصة ابن العلقمي وابن عمران»(١).

ومن المعروف أنّ أهل السنة والجماعة كانوا يشكلون غالبية سكان مدينة بغداد على حين شكلّ الشيعة والمسيحيون واليهود الطرف المقابل، وقد ركز المغول هجومهم على شرقي بغداد لأنهم يمثلون قلب أهل السنة الذين كان موقفهم مناهضا للمغول منذ البداية خلافا للشيعة الذين أيدوا المغول، وكانت نتيجة ذلك الموقف أن فقد أهل السنة الكثير من قادتهم السياسيين وعلمائهم وعامتهم(٢).

وعلى سبيل المثال لا الحصر، فقد خسر أهل السنة والجماعة خليفتهم العباسي المستعصم وكبار القادة كالدواتدرا الصغير وسليمان شاه وغيرهم، كما استشهد من علماء أهل السنة كثيرون منهم محي الدين ابن الجوزي أستاذ دار الخلافة وأبناؤه الثلاثة(٣).

---

(١) صبري سليم: المرجع السابق، صـ٢٤١.

(٢) انظر: صبري سليم: المرجع نفسه، صـ٢٤٦.

(٣) اليافعي: عفيف الدين أبو محمد عبد الله بن أسعد: مرآة الجَنان وعبرة اليقظان في معرفة حوادث الزمان وتقليب أحوال الإنسان وموت بعض المشهورين من الأعيان، الطبعة الأولى، المطبعة الوهابية، القاهرة، سنة ١٣٨٦هـ/ ١٩٦٧م، جـ٤ ، صـ١٤٧؛ ابن شطي: محمد جميل بن عمر البغدادي: مختصر طبقات الحنابلة، الطبعة الأولى، دار الكتاب العربي، بيروت، سنة ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م، صـ٥٧.

وخسر أهل السنة كذلك مؤدِّب الخليفة المستعصم شيخ الشيوخ صدر الدين أبو المظفر علي بن محمد بن النيار الشافعي؛ إذ ذبحه المغول في دار الخلافة بعد الواقعة(١)، والشيخ الصوفي الضرير أبو زكريا يحيى بن يوسف الصرصري الذي قاتل المغول حتى استشهد(٢)، وكذلك الشيخ الصوفي علي الخباز(٣)، والشيخ أبو المناقب شهاب الدين محمد بن أحمد الزنجاني الذي درّس بالمدرستين النظامية والمستنصرية ببغداد(٤).

وعلى الرغم مما بدا على الشيعة من قوة وتأييد نتيجة لركونهم إلى المغول، وعلى الرغم مما أصاب أهل السنة والجماعة من خسائر، فقد ظلت الأمور بين الفريقين متوازنة إلى حدِّ كبير، وظهر من بين أهل السنة مَن

---

(١) ابن الفوطي: الحوادث الجامعة، صـ٣٢٨- ٣٢٩؛ العيني: بدر الدين محمود بن أحمد: عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، حققه ووضع حواشيه دكتور محمد محمد أمين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، سنة ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م، جـ١، صـ١٩٢؛ ناجي معروف: تاريخ علماء المستنصرية، الطبعة الثالثة، مؤسسة دار الشعب، القاهرة، سنة ١٣٩٥هـ/ ١٩٧٥م، جـ١، صـ٥٩.

(٢) العيني: عقد الجمان، جـ١، صـ١٨٥- ١٨٦؛ اليافعي: مرآة الجنان، جـ٤، صـ١٤٧.

(٣) الذهبي: العبر في خبر من غبر، جـ٥، صـ٢٣٢؛ ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب في أخبار من ذهب، جـ٥، صـ٢٨٠.

(٤) السبكي: تاج الدين أبو نصر عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي (ت٧٧١هـ): طبقات الشافعية الكبرى، الطبعة الأولى، القاهرة، دار إحياء الكتب العربية، بدون تاريخ، جـ٥، صـ١٥٤؛ ابن تغري بردي: جمال الدين أبو المحاسن يوسف (ت٨٧٤هـ): النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، الطبعة الأولى، دار الكتب المصرية، القاهرة سنة ١٣٥٥هـ/ ١٩٣٦م، جـ٧ ، صـ٦٨.

رأبَ الله بهم الصدع وجبر الكسر، ومن هؤلاء عماد الدين عمر ابن محمد القزويني الذي شارك الإدارة المدنيّة المعيّنة من قبل المغول في بغداد؛ فقد قام بأعمال مهمة في تعمير المساجد والمدارس وترميم المشاهد والرُّبُط والزوايا، وأجرى الأرزاق من الوقوف على العلماء والفقهاء والصوفية(١)، كما ظهر كذلك مجد الدين محمد بن الأثير الذي تسلم مفاتيح دار الخلافة ليشرف عليها(٢).

كما كان لوجود الأخوين: شمس الدين محمد الجويني صاحب ديوان الممالك الإيلخانية أو الوزير الأعظم للدولة- وهو شافعي المذهب- وعلاء الدين عطا ملك الجويني صاحب ديوان العراق – وهو حنفي المذهب(٣)- أبلغ الأثر في إحداث توازن كبير بين كفتي السنة والشيعة في العراق في العصر الإيلخاني، وقد أظهر هذان الأخوان قدرا كبيرا من الكفاءة السياسية والإدارية على نحو جعل الحكومة الإيلخانية تمنحهما قدرا كبيرا من السلطة والنفوذ.

---

(١) ابن الفوطي: الحوادث الجامعة، صـ٣٣٣.

(٢) ابن الفوطي: المصدر السابق، صـ٣٣٣.

(٣) اليونيني: قطب الدين أبو الفتح موسى بن محمد بن أحمد: ذيل مرآة الزمان، الطبعة الأولى، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، الهند، حيدر آباد الدكن، سنة ١٣٧٤هـ/ ١٩٥٤م، جـ٤ ، صـ٢٢٢، صـ٢٢٤.

الآثار العلميّة والثقافيّة للغزو المغوليّ لبغداد

من المقرّر تاريخيا أن العلوم والثقافة تتأثران تأثرا كبيرا بالأوضاع السياسية على مرّ العصور، وغير خاف أن استيلاء المغول على مدينة بغداد التي كانت مقرّ البلاط العباسي ومحطّ أنظار العلماء والأدباء والفضلاء والمثقفين من مختلف بقاع العالم الإسلامي، بل وغير الإسلامي كذلك في العصر العباسي، هذا الاستيلاء زحزح تلك المدينة عن مكانتها، لتتحول من حاضرة مركزية مرموقة إلى مجرّد مقرٍّ إداريٍّ لإحدى الولايات الإيلخانية.

لقد قتل المغول العديد من العلماء والأدباء والشعراء، ولا شكّ أن هذا أثر تأثيرا سلبيا على حركة العلم والثقافة في البلاد الإسلامية عامة والعراق خاصة لعدة عقود تالية للغزو المغولي، والمغول كانوا يعتدون بجنسهم ويقدمونه على غيره من الأجناس، وقد ظلوا على تلك الحال حتى بعد اعتناقهم الإسلام.

والظاهر أنَّ الصورة الحضارية للمغول أصبحت أكثر تكاملا عندما أقام هولاكو خان نظامه الإيلخاني على أنقاض الخلافة العباسية، حيث كان بلاطه نموذجا لهذا التحول في العادات والتقاليد المغولية التي ذابت أمام التأثير التدريجي للحضارة العربية.

موقف الإيلخانيين من الثقافتين العربية والفارسية

إنّ الناظر لموقف المغول الإيلخانيين من الثقافتين العربية والفارسية يمكنه أن يتبين معالم واضحة لهذا الموقف، وأن يقف على بعض العوامل المؤثرة فيه والموجّهة له في نقاط أساسية، يمكن إجمالها في استعانة المغول بعمال من أهل البلاد التي استولوا عليها، واستعمال عناصر الإدارة المغولية في بغداد أداة لفرض الثقافة الجديدة، والدفع بالعنصر الفارسي وتغليب كفته على العنصر العربي في بغداد.

ومن العوامل اللافتة للنظر أيضا، التي كان لها أثرها البارز في تصوير موقف المغول من الثقافتين العربية والفارسية، اعتماد المغول على أهل البلاد المفتوحة وأثر ذلك على الثقافة، وكذلك اعتماد اللغة الفارسية لغة رسمية للبلاط المغولي، ولغة رسمية لإدارة الدواوين الحكومية، ومنها ديوان بغداد والعراق العربي، ثم رعاية العلماء والأدباء والشعراء من جانب المغول وعمالهم، وتوظيف ذلك لفرض سلطة وثقافة موجَّهة على المجتمع العراقي.

ويمكن تفصيل القول في العناصر السابقة فيما يلي:

أ- أثر استعانة المغول بأهل البلاد المفتوحة على الثقافة

لم يكن للمغول رصيد ثقافي أو حضاريّ خلاف عاداتهم وتقاليدهم التي لا تخرج عن حدود الياسا الجنكيزية وإيمانهم المتوارث بالولاء المطلق والطاعة العمياء للخان، وليس هذا بالأمر الغريب بالنسبة لقوم كانوا يقضون

حياتهم في عصورهم الأولى في حياة بدائية وبيئة صحراوية قاحلة يكاد النشاط الإنساني فيها يقتصر على رعي الثيران والأغنام وغيرها من الماشية.

ولعلّ من أقوى المؤثرات والعوامل التي أثرت بصورة مباشرة على الحياة والأوضاع الثقافية في ولايات الدولة الإيلخانية عامة وولاية بغداد خاصة، أنّ المغول لم يكن لديهم نظام إداري أو مالي خاص بهم، بل استمروا يستعينون بخبرات أهل البلاد التي استولوا عليها وبخاصة المسلمين من الفرس الإيرانيين والعرب في إدارة البلاد، ولاسيما في شؤونها المالية والإدارية، في حين احتفظ المغول لأنفسهم بتولِّي المناصب العسكرية(١).

وبدراسة الصورة أو الأوضاع الإدارية التي آلت إليها بغداد بعد الغزو المغولي تظهر مرحلتان من الإدارة واضحتان:

المرحلة الأولى: حاول فيها هولاكو خان الاستعانة بجميع من بقي على قيد الحياة من موظفي الخلافة للاستفادة منهم ريثما يتكون لديه من الموظفين من يسدّ مسدّهم(٢).

المرحلة الثانية: بدأت فيها السلطة المغولية تضع مقاليد الأمور الإدارية لبغداد في قبضة صنائعهم من الفرس الإيرانيين مع الإبقاء على بعض العناصر العربية في الإدارة.

---

(١) محمد القزاز: الحياة السياسية في العراق في عهد السيطرة المغولية، صـ١٢٣– ١٢٤.

(٢) محمد القزاز: المرجع السابق، صـ١٤٣.

وقد بدأت المرحلة الأولى منذ اللحظات الأولى بعد مقتل الخليفة العباسي في أوائل سنة ٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م، وعنها يقول رشيد الدين الهمذاني:

«وفي نفس اليوم الذي قتلوا فيه الخليفة أرسلوا إلى المدينة "مؤيَّد الدين بن العلقمي" ليقوم بالوزارة، و"فخر الدين الدامَغاني" ليكون صاحب الديوان، وجعلوا "علي بهادر" شحنة لها، وعيَّنوا المحتسبين لمراقبة المقاييس والأوزان، ونصبوا "عماد الدين عمر القزويني" نائبا للأمير "قراتاي"... وكذلك نُصِّب "نجم الدين أبو جعفر أحمد بن عمران" الملقَّب بـ"راست دل (المخلص) واليا على أعمال شرقيّ بغداد مثل طريق خراسان وخالص وبندنجين، وأمر هولاكو بأن يكون نظام الدين عبد المؤمن البندنيجي قاضيا للقضاة»(١).

وبعد مضيّ وقت قصير على تعيين فخر الدين بن الدامغاني صاحبا لديوان بغداد، اتُّهم بأنَّه أطلق سراح أحد السجناء المنتسبين للخليفة المستعصم، وكانت هذه التهمة كفيلة بالقضاء عليه؛ فقد اعتقله هولاكوخان، وما لبث ابن الدامغاني أن توفّيَ فعُيِّن "نجم الدين بن المعين" صاحبا لديوان بغداد بدلا منه، لكنه سرعان ما أصابه المرض الشديد فوافته المنية على الفور(٢).

وظهرت أسماء أخرى من موظفي الخلافة العباسية السابقين في إدارة بغداد بعد الغزو المغولي، منها "نجم الدين علي بن الدرنوس"، و"شرف الدين العلوي" المعروف بالطويل، و"تاج الدين علي بن الدوّامي"، و"سراج الدين بن البجلي"، و"صدر الدين

---

(١) رشيد الدين: جامع التواريخ، م٢، جـ١، صـ٢٩٥؛ وانظر: ابن الفوطي: الحوادث الجامعة، صـ٣٣١- ٣٣٢.

(٢) ابن الفوطي: الحوادث الجامعة، صـ٣٣٨؛ محمد القزاز: الحياة السياسية في العراق في عهد السيطرة المغولية، صـ٢٢١.

مبارك بن المخزومي"، و"عزّ الدين بن أبي الحديد"، وغيرهم ممن تولوا المناصب الإدارية ببغداد وأعمالها(١).

أما المرحلة الثانية فقد بدأت تظهر في غضون سنة أي سنة ٦٥٧هـ/ ١٢٥٩م، وفيها بدأ التراجع يطغى على عمال الخلافة العرب، وأخذت السلطة المغولية تُحِلّ الفرس من صنائعهم محلّ العرب من أهل العراق، وخاصة بعد أن توفيّ الوزير "مؤيد الدين ابن العلقمي" في جمادى الآخرة سنة ٦٥٦هـ(٢)/ ١٢٥٨م؛ فقد تم تعيين "علاء الدين عطا ملك الجويني" –كاتب هولاكو الخاص– في أرفع منصب إداري ببغداد، ألا وهو "صاحب ديوان بغداد"، وهو ما يعني أنه صار واليا للعراق، وقد شاركه في هذا المنصب في بادئ الأمر عماد الدين عمر بن محمد القزويني(٣).

وعلى الرغم من أن عطا ملك الجويني يعود لأصول عربية(٤)، إلا أنه ولد وعاش في خراسان، وكانت لغته الأولى الفارسية، فهو إلى الفرس أقرب من حيث النشأة والثقافة.

---

(١) راجع التفاصيل لدى ابن الفوطي: الحوادث الجامعة، صـ٢٣٢– ٢٣٣؛ عباس العزاوي: تاريخ العراق بين احتلالين، جـ١، صـ٢٠١.

(٢) ابن الفوطي: الحوادث الجامعة، صـ٢٣٣.

(٣) ابن الفوطي: الحوادث الجامعة، صـ٣٣٩.

(٤) اختلف المؤرخون في نسب علاء الدين الجويني؛ فمنهم من نسبه إلى إمام الحرمين عبد الملك الجويني الملقب بأبي المعالي إمام الحرمين ضياء الدين، رئيس الشافعية (٤١٩–٤٧٨هـ)، ومنهم من نسبه إلى الفضل بن الربيع بن يونس بن محمد بن عبد الله بن أبي فروة كيسان مولى عثمان بن عفان رضي الله عنه، الذي كان وزيرا للخليفة هارون الرشيد، وكانت وفاته سنة ٢٠٨هـ. والرأي الأخير هو الراجح؛ لأن المؤرخ البغدادي ابن الفوطي الذي اتصل بخدمة عطا ملك الجويني وأخيه الوزير شمس الدين، يذكر نسب علاء الدين متصلا إلى الفضل بن الربيع. راجع: ابن الفوطي: مجمع الآداب في ==

وقد حرص عطا ملك الجويني على أن يجعل مجلسه مقصدا للعلماء والأدباء والشعراء وعمل على رعاية الجميع، وبذل في ذلك غاية الجهد لدرجة جعلت السمة الثقافية الفارسية هي الغالبة على طابع الإدارة في فترة ولايته العراق في العهد الإيلخاني.

ب- الإدارة المغولية الفارسية لبغداد أداةً لفرض الثقافة

لم يكن المغول يعنون بالثقافة واللغة عموما، غاية الأمر أنهم كانوا يعتدّون بقوميتهم وعاداتهم وتقاليدهم الموروثة، وقد ضموا إلى ذلك رغبتهم في السيطرة والتغلب وإخضاع الشعوب الاخرى لنفوذهم، أما الصراع الثقافي وتغليب لغة على لغة فكان قائما بين الأجناس والشعوب التي خضعت للمغول، ولعلّ أبرز الأجناس التي اعتمد عليها المغول في حكم وإدرة المناطق التي استولوا عليها كان الفرس الإيرانيين.

وقد بدأ العنصر الفارسي يظهر بقوة في البلاط المغولي بعد استيلاء المغول على أملاك الدولة الخوارزمية في إيران، ثم استيلائهم على المناطق التي كان إسماعيلية إيران الشيعة يحكمونها، وحينما استولى المغول على بغداد وأملاك الخلافة العباسية اعتمدوا اعتمادا أساسيا على عمالهم الفرس الذين أظهروا للمغول الولاء والطاعة والخبرة والكفاءة المالية والإدارية، وفي مقدمة أولئك الفرس أسرة الطوسي وأسرة

==معجم الألقاب، جـ٢ ، ص٣١٥- ٣١٦، ترجمة رقم (١٥٣٧). كما أن القائلين بالرأي الأول من المتأخرين؛ كسيف الدين عقيلي، وغياث الدين خواندمير. راجع: عقيلي: آثار الوزراء، صـ٢٧٦؛ خواندمير: تاريخ حبيب السير، م٣ ، جـ١، ص١٠٤؛ المؤلف نفسه: دستور الوزراء، صـ٢٦٧.

الزنجاني[1]، وتُلحق بهم أسرة الجويني التي تعود لأصول عربية لكن أقطابها الذين خدموا المغول ولدو وعاشوا في بلاد الفرس واكتسبوا اللغة الفارسية فصاروا فرسا من حيث المولد والنشأة والثقافة.

ويمكن أن نلاحظ من خلال ما ورد في المصادر المعتبرة أن إدارة ولاية بغداد في أوائل العهد الإيلخاني شهدت محاولة واضحة قام بها صنائع المغول من الفرس أو ممن ولدوا وعاشوا في بلاد الفرس فصاروا مثلهم وخاصة آل الجويني، لفرض ثقافتهم على المجتمع العراقي بمعاونة المغول مستغلين في ذلك رغبة المغول في السيطرة والتغلب والحصول على الأموال.

وقد سلكت كثير من الأسر الفارسية مسلك الجوينيين وفي مقدمتها أسرة الطوسي، ثم أسرة الزنجاني، وغيرها من الأسر.



جـ - أثر اعتماد الفارسية لغة رسمية للبلاط الإيلخاني على المجتمع البغدادي

أخذت النزعة القومية في إيران تتبلور وتعود من جديد بقوة وخطى واضحة ثابتة، وذلك منذ أن سقطت بغداد عاصمة الخلافة العباسية في قبضة المغول سنة ٦٥٦هـ،

---

(1) اشتهر من أسرة الزنجاني صدر الدين أحمد الخالدي الزنجاني الشهير بصدر جهان، الذي كان وزيرا لكيخاتو خان ثم غازان خان، وأخوه قطب الدين الزنجاني قاضي قضاة الممالك الإيلخانية في عهد كيخاتو خان. للمزيد حول سيرة آل الزنجاني راجع: مصطفى حسين: الدور السياسي والحضاري للوزراء زمن المغول الإيلخانيين في إيران، م٢، صـ٣٩٥ فما بعدها.

فتحولت بذلك إلى مدينة تابعة للعاصمة الإيلخانية "مراغة" في عهد هولاكو خان، ثم "تِبريز" التي أصبحت منذ عهد آباقا خان مركزا للحكم المغولي والإدارة في إيران[١].

وقد بدأت إيران بوجه عام تستعيد في ظلّ حكم هولاكو وأبنائه الإيلخانيين حدودها السياسية الفارسية القديمة، كما بدأت لغتها الفارسية تستردّ مكانتها الثقافيّة القديمة، وذلك على حساب اللغة العربية وثقافتها التي كانت منتشرة في إيران قبل الغزو المغولي[٢].

وبطبيعة الحال كانت اللغة الفارسيّة هي اللغة الرسمية للديوان والبلاط في ولايات الدولة الإيلخانية كافة، ومنها ولاية بغداد، وقد فرض هذا الوضع اختيار أصحاب الديوان ومعظم العمال والكتّاب من الفرس الموالين للمغول ليتسنى لهم تدبير الشؤون المالية والإدارية بلغتهم القومية في سهولة ويسر.



د- موقف المغول من الصراع الثقافي بين العرب والفرس

كان من الطبيعي في ظلّ الحكم المغولي أن يحدث صراع بين بقايا العمال العرب الذين خضعوا للمغول بعد سقوط بغداد، والعمال الفرس الذين قدِموا مع المغول من وسط آسيا ومن إيران إلى المناطق العربية بالعراق.

---

(١) دوروتيا كرافولسيكي: العرب وإيران، دراسات في التاريخ والأدب من المنظور الأيديولوجي، الطبعة الأولى، دار المنتخب العربي، بيروت، سنة 1413هـ/ 1993م، صـ١٨٨؛ إدوارد براون: تاريخ الأدب في إيران، صـ٥٨٦؛ صبري سليم: الصراع السياسي والمذهبي بين الشيعة والسنة، صـ٤٠٢.

(٢) إدوارد براون: تاريخ الأدب في إيران، صـ٥٨٦؛ دونالد ولبر: إيران ماضيها وحاضرها، صـ٦٧؛ صبري سليم: الصراع السياسي والمذهبي بين الشيعة والسنة، صـ٤٠٢.

ومن المقرّر أن السلطة المغولية كانت ترغب دائما في وقوع مثل تلك الصراعات بما يؤمن بقاءها ويمنع أيّ اتحاد ضدها، كما أن تلك السلطة لم يكن يعنيها أن ينتصر الطرف العربي أو ينتصر الطرف الفارسي، ولم يكن يشغلها أي الطرفين على حق وأيهما على خلافِه، بل الطرف الذي يحقق مصالح الوجود المغولي ويبذل جهده في تحصيل الأموال على أي نحو وبأي طريقة، كان دائما في رعاية الدولة مستقلا بتأييدها وقوتها.

ومن أبرز تلك الصراعات ما كان يقع مثلا بين سعد الدولة اليهودي وهو فارسي من مدينة "أبهر" وبين عمال بغداد الذين ظلوا يشغلون بعض المناصب الإدارية في عهد المغول، وكان معظم هؤلاء من العرب العراقيين، وقد استغل سعد الدولة سلطته وقوة صلته بالبلاط الإيلخاني وأخذ يعمل على جمع الأموال من عمال بغداد بالحق وبالباطل سالكا سبل الجور والبطش والتعذيب والمصادرة(١).



هـ - اهتمام المغول بالتنجيم والمنجمين والمراصد الفلكية

من الظواهر الثقافية الجديرة بالانتباه في العهد الإيلخاني اهتمام إيلخانات المغول بالتنجيم والمنجمين والمراصد الفلكية، فقد عرف البلاط المغولي منصب منجم البلاط، ولعل أشهر من تولى هذا المنصب اثنان من أبرز علماء العصر أحدهما سنيّ هو حسام الدين المنجم، والآخر شيعيّ هو نصير الدين الطوسيّ.

---

(١) راجع مثلا: رشيد الدين: جامع التواريخ، م٢، جـ٢، الترجمة العربية، صـ١٤١؛ ميرخواند: المصدر نفسه، صـ٣٥٠- ٣٥٧.

ومما اشتهر في المصادر المحاولة التي بذلها حسام الدين المنجم لاستنقاذ الخليفة العباسي المستعصم بالله من القتل؛ فقد حذّر حسام الدين هولاكو خان من قتل الخليفة وزعم أن قتل الخليفة سيؤدي إلى وقوع كوارث طبيعية مدمرة، لكنّ نصير الدين الطوسي أفسد مخطط حسام الدين وأنكر عليه رأيه أمام هولاكو وجرّأ هذا الإيلخان على سفك دم الخليفة المستعصم[1]، وكان هذا الموقف من جانب الطوسي كفيلا بالقضاء على حسام الدين المنجم؛ إذ كان مصيره القتل[2].

أما المراصد الفلكية فقد حظيت باهتمام هولاكو ثم آباقا خان من بعده، وقد أنشأ نصير الدين الطوسي مرصدا فلكيا ضخما في العاصمة الإيلخانية الناشئة "مراغة" بناء على أمر هولاكو خان[3].

وقد استقدم الطوسي إليه العلماء والخبراء في مختلف العلوم من مختلف الأقطار، وألحق بالمرصد مكتبة ضخمة ضمت ذخائر الكتب في مختلف العلوم والفنون فتجاوز عدد مجلداتها أربعمائة ألف مجلد من الكتب التي نهبت من خراسان وبغداد والجزيرة والشام في أثناء الغزو المغولي، وذلك وفقا لأحد التقديرات[4].

---

(1) رشيد الدين: جامع التواريخ، م٢، جـ١، صـ٢٧٩- ٢٨٠؛ عبد المحمد آيتي: تحرير تاريخ وصاف، صـ١٦؛ صبري سليم: الصراع السياسي والمذهبي بين الشيعة والسنة، صـ٢٢٦- ٢٢٧.

(2) مصطفى طه: محنة الإسلام الكبرى، صـ١٢٦.

(3) رشيد الدين: جامع التواريخ، م٢، جـ١، صـ٣٠٣- ٣٠٤؛ ميرخواند: تاريخ روضة الصفا، جـ٥ صـ٢٥٤؛ خواندمير: تاريخ حبيب السير، جـ٣، م١، صـ١٠٣.

(4) الصفدي: الوافي بالوفيات، جـ١، صـ١٧٩؛ سيديو: لويس أميلي: تاريخ العرب العام، الطبعة الثانية، نقله إلى العربية الأستاذ عادل زعيتر، نشر شركة عيسى البابي الحلبي، القاهرة، سنة ١٣٨٩هـ/ ١٩٦٩م، صـ٣٥٥؛ عارف تامر: نصير الدين الطوسي في ==

أما مصادر الإنفاق فقد استطاع الطوسي أن يحصل على كل ما يحتاج إليه من أموال للإنفاق على هذا المرصد، إذ صرّح له هولاكو بالإنفاق على الرصد وشؤونه من عوائد الأوقاف التي كان واليا عليها، وقد خصص هولاكو لذلك عشر تلك العوائد[١]، وقد أشار صلاح الدين الصفدي[٢] وابن شاكر الكتبي[٣] إلى ضخامة الأموال التي أنفقها الطوسي في هذا الشأن، وقد توارث بعض أبناء الطوسي منصبه في الولاية على الأوقاف والإشراف على شؤون المرصد الفلكي وعلمائه.

و - رعاية العلماء والأدباء وتعمير البلاد وأثر ذلك على الثقافة

كان من أبرز الأدوات التي وظفها عمال المغول في بغداد لنشر ثقافتهم وفرضها على المجتمع البغدادي، ما بذلوه من أموال في صورة منح وعطايا للعلماء والأدباء والشعراء، وقد تفوق في ذلك العمال الفرس على غيرهم وفي مقدمتهم آل الجويني وعميدهم علاء الدين عطا ملك صاحب ديوان بغداد، وأخوه الوزير شمس الدين محمد صاحب ديوان الممالك.

وقد شجّع علاء الدين الجويني المصنّفين على تصنيف الكتب بلغته القومية وهي الفارسية، فبدأ بنفسه وألّف كتابا ضخما في ثلاث مجلدات في تاريخ المغول وهو "تاريخ جهان كشاي" أي تاريخ فاتح العالم ويقصد به جنكيز خان.

==مرابع ابن سينا، الطبعة الأولى، نشر مؤسسة عزّ الدين، بيروت، سنة ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م، صـ٨٧.

(١) ابن العبري: تاريخ الزمان، صـ٣٣٠؛ عبد الحليم: رجب محمد: انتشار الإسلام بين المغول، الطبعة الأولى، مطبعة الجبلاوي، بولاق، القاهرة، سنة ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٦م، صـ٧١.

(٢) الوافي بالوفيات، جـ١، صـ١٨١.

(٣) فوات الوفيات، جـ٣، صـ٢٥٠.

ولعلّ أشهر ما صُنف بالفارسية استجابة لتشجيع علاء الدين الجويني كتاب "الأوامر العلائية في الأمور العلائية" الذي يعد المصدر الرئيس لتاريخ دولة سلاجقة الروم، ومصنفه هو ناصر الدين الحسين يحيى بن علي الجعفري الرغدي، المعروف بابن بيبي (ت ٦٨٤هـ/ ١٢٨٥م)، وهو يشير إلى علاء الدين الجويني بلفظة العلائية الأولى، في حين يعني بالثانية السلطان علاء الدين كَيْقُبَاد الأول (٦١٦- ٦٣٤هـ/ ١٢١٩- ١٢٣٦م) أعظم سلاطين دولة سلاجقة الروم، وقد نصّ المؤلف في مقدمة الكتاب على أنه قام بتصنيف كتابه هذا استجابة لأوامر صدرت إليه من قبل علاء الدين عطا ملك الجويني[١].

وقد أشاد كثير من المؤرخين بعلاء الدين عطا ملك الجويني وجهوده في استدراك أمر العراق بعد النكبة التي تعرض لها من قبل المغول[٢]

ويشهد كثير من المؤرخين بأنَّ علاء الدين الجويني بذل جهودا مضنية في إصلاح ما أصاب العراق من خراب على أثر الغزو المغولي، كما على ازدهاره، حتي إنّ بعض أولئك



---

(١) ابن بي بي: الأوامر العلائية في الأمور العلائية، تحقيق محمد جواد مشكور، مكتبة طهران، ١٣٥٠هـ. ش، صـ٥، صـ٩، صـ٧٤٣؛ الترجمة العربية لمختصر هذا الكتاب "مختصر سلجوقنامه" بعنوان "أخبار سلاجقة الروم"، نقله إلى العربية الدكتور محمد السعيد جمال الدين، الطبعة الأولى، المركز القومي للترجمة بجمهورية مصر العربية، سنة ٢٠٠٧م، صـ (و– ز) من مقدمة المترجم.

(٢) راجع ما ورد عن جهود علاء الدين الجويني العمرانية والدينية والثقافية في ولاية العراق العربي لدى كل من: ابن الفوطى: الحوادث الجامعة، صـ٣٥٧ فما بعدها؛ عبد المحمد آيتى: تحرير تاريخ وصاف، صـ٣٣ فما بعدها؛ محمد السعيد جمال الدين: علاء الدين عطا ملك الجويني حاكم العراق بعد انقضاء الخلافة العباسية في بغداد، صـ١٤ فما بعدها.

المؤرخين بالغ فذكر أن بغداد أصبحت في ظل ولاية علاء الدين الجويني أكثر عمرانا وأجود مما كانت عليه في زمن الخلافة العباسية(١).

ويبدو أن علاء الدين أراد التكفير عن ذنبه في مصاحبة هولاكو وجيشه؛ ولذا بذل أقصى الجهد في تعمير العراق وزراعتها، ورعاية أهلها ولا سيما العلماء والفضلاء، كما رفع عن كواهل الرعية كثيرا من أعباء الضرائب الجائرة، وأنشأ القرى والمزارع وشق قنوات الري التي وصف بعضها بوصف النهر، منها النهر الذي تفرع من الفرات فوصل منطقة الأنبار إلي الكوفة والنجف، والذي أنفق عليه مائة ألف دينار، كما أقام مائة وخمسين قرية على جانبي ذلك النهر، كما اهتم علاء الدين ببناء المساجد والمدارس والأربطة، فأخذت بغداد وما حولها من العراق العربي في عهد علاء الدين تتجه نحو العمران من جديد بعد أن كان الخراب قد خيّم على معظمه على أثر الغزو المغولي(٢).

ومما يذكر لعلاء الدين الجويني أنه حرص على النهوض بالحياة الدينية والثقافية والأدبية العامة في العراق على الرغم من خضوعه في معظم فترات ولايته لحكم هولاكو خان وآباقا خان الوثني، فقد عمل على إضفاء الطابع الإسلامي على العراق،

---

(١) ابن شاكر الكتبي: فوات الوفيات، جـ٢ ، صـ٥٢- ٥٣؛ محمد السعيد جمال الدين: علاء الدين عطا ملك الجويني حاكم العراق، صـ١٥؛ السباعي محمد: عطا ملك الجويني وكتابه جهان گشا، صـ١٨؛ الصياد: الشرق الإسلامي في عهد الإيلخانيين، صـ٣٧.

(٢) محمد السعيد جمال الدين: علاء الدين عطا ملك الجويني حاكم العراق، صـ١٤- ١٥؛ مصطفى حسين: الدور السياسي والحضاري للوزراء زمن المغول الإيلخانيين، م١، صـ١٥٣- ١٥٤.

واهتمّ بمدارس أهل السنة والجماعة التي كانت لا تزال قائمة بعد الغزو في بغداد، وبخاصة المدرستين: النظامية والمستنصريّة[١].

وقد أسهمت زوج علاء الدين: شمس الضحى بنت عبد الخالق بن ملك شاه ابن أيوب بدورها في النهوض بالحياة الفكرية والثقافية كذلك فأنشأت من مالها الخاص المدرسة العصمتية بظاهر بغداد، ووقفت عليها الأوقاف وألحقت بها رباطا للصوفية، وكانت كما يصفها بعض المؤرخين امراة صالحة كثيرة البرّ والإحسان[٢]، فعززت بذلك جهود زوجها العمرانية والدينية والثقافية[٣].

ومن المقرر لدى كثير من المؤرخين أنّ الجوينيين الذين خدموا المغول الإيلخانيين أكثر من ثلاثة عقود كانوا أهل علم وفضل، وأرباب جود وسخاء، وأنهم كانوا يعظمون شأن العلماء ويعلون من قدرهم، ويفيضون عليهم برّهم وإنعامهم، كما تشهد لهم المصادر بأنّ مجالسهم كانت حافلة بالعلماء والأدباء والشعراء والمصنفين في مختلف العلوم، فأُلفت باسمهم الكتب، ونُظمت الأشعار في مدحهم والثناء عليهم، وقد بلغت جائزة من يؤلف باسم أحدهم كتابا ألف دينار، حتى بلغ ببعض المؤرخين

---

(١) للمزيد حول المدرستين راجع: صبري سليم: الصراع السياسي والمذهبي بين الشيعة والسنة، صـ٧٤- ٨١، ٨٨- ٩٠.

(٢) ابن الفوطي: الحوادث الجامعة، ص٤١٠، حوادث سنة ٦٧٨هـ.

(٣) للمزيد حول جهود علاء الدين الجويني وزوجه في الارتقاء بالحياة الحضارية عامة في العراق، راجع ما ذكره الأستاذ الدكتور صبرى سليم في رسالته للدكتوراه تحت عنوان "الصراع السياسي والمذهبي بين الشيعة والسنة في عصر سيطرة إيلخانات المغول في إيران (٦٥٠- ٧٣٦هـ/١٢٥٢- ١٣٣٥م) صـ٣١٠ فما بعدها.

أن ذكر أنّ الأخوين شمس الدين وعلاء الدين قدّما للناس أكثر من ألف جائزة في احتفال واحد حضره الإيلخان آباقا خان في مدينة بغداد[١].

تعقيب:

طفنا خلال هذا الفصل في الآثار الدينية والثقافية للغزو المغولي لبغداد، ورأينا كيف كان لهذا الغزو آثارٌ عميقة في الحياة الدينية تعود في مبدأ أمرها لموقف أصحاب الديانات المختلفة من الغزو المغولي.

وقد عرض هذا الفصل لموقف أهل الذمة من الغزو المغولي ومنهم اليهود، وقد أبدى بعضهم شيئا من مقاومة الغزاة، أما النصارى فقد اختاروا الانحياز إلى صف الغزاة منذ البداية، وقد كان لتباين المواقف بين أهل الذمة في ذلك أثره في الحياة العامة للدولة الإيلخانية الناشئة.

وتتبع الفصل كذلك دور النصارى في الحياة السياسية وأوضاعهم بوجه عام وما تعرض له بعضهم من نكبة نتيجة لسوء تصرفهم أو ركونهم لجانب المستبدين من الأمراء، كما تتبع أيضا دور يهود بغداد في الحياة السياسية والإدارية وما حصلوه من مال وجاه في أواخر عهد أرغون خان في ظل رعاية الوزير سعد الدولة اليهودي، ثم ما أصابهم من نكبة بعد سقوط ذلك الوزير.

وكان مما عرّج عليه الفصل كذلك موقف المغول من الصراع المذهبي بين الشيعة والسنّة، مؤكدًا أن السلطة الإيلخانية حرصت أتم الحرص على توظيف ذلك الصراع من أجل الحفاظ على الوجود المغولي في بلاد العراق.

---

(١) القزويني: مقدمة تحقيق الجزء الأول من تاريخ جهانكشاي، صـ (س د)، الصياد: المرجع السابق، صـ١٥٩- ١٦٠.

وكان من أبرز ما رصده الفصل الحالي كذلك ما كان من آثار للغزو المغولي لبغداد على الناحية الثقافية، وكان من بينها تنامي دور العناصر الفارسية الموالية للمغول في الحياة السياسية والإدارية والاجتماعية في العراق بعد استقرار المغول بها، كما رصد الفصل الحالي موقف المغول من الصراع الثقافي بين عمالهم العرب والفرس في العراق، مؤكدا على أنّ المغول لم تكن لهم أهداف ثقافية خاصة وأنه لم يكن يعنيهم تغليب كفة طرف على الآخر إلا بقدر ما يحقق أغراضهم ويوافق مصلحتهم الخاصة.



******

***

*

الخاتمة



خاتمة البحث

حاول هذا البحث رصد أثر الغزو المغولي لبغداد سنة ٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م على المظاهر الحضارية فيها، وانتهى إلى عدة نتائج وتوصيات مهمة على النحو التالي:

أولا: النتائج:

١- كان للغزو المغولي لبغداد أثر كبير في إعادة رسم الخريطة السياسية للعراق والشام والجزيرة وآسيا الصغرى في ظل قيام دولة مغولية قوية هي الدولة الإيلخانية التي حولت مكانة مدينة بغداد من حاضرة الخلافة العباسيّة إلى مجرد مركز إداري لإحدى ولايات الدولة الناشئة.

٢- كان للغزو المغولي لبغداد آثار واضحة على المظاهر الحضارية في بغداد، في نواحيها كافة، على المستوى الإداري والاقتصادي والاجتماعي والعمراني والديني والثقافي.

٣- تمثلت الآثار الاقتصادية للغزو المغولي لبغداد بوضوح في المزيد من التدهور والتراجع في النشاط الزراعي والصناعي والتجاري بوجه عام غالبا؛ وذلك نتيجة لتناقص الفلاحين والصناع والتجار الذين راحوا ضحية الغزو المغولي، كما تمثل في سوء الأحوال الاقتصادية للرعية من أهل بغداد وغيرها من مدن العراق، نتيجة لتفاقم مساوئ نظام الضرائب الجائر وشيوع المصادرات على مدى العقود التالية لغزو بغداد.

٤- تمثلت الآثار الاجتماعية للغزو المغولي لبغداد على نحو واضح فيما أصاب التركيبة السكانية لتلك المدينة من تغيّر، بظهور العنصر المغولي بقوة وما اتصل به

من عناصر فارسية طغى ظهورها وأثرها الاجتماعي على العنصر العربي الذي تراجع بقوة في تلك الفترة.

٥- تباينت مواقف أهل الديانات المختلفة في بغداد من يهودية ومسيحية وإسلام من الغزاة المغول، فكان لهذا التباين أثره الواضح على أوضاع اليهود والنصارى والمسلمين في بغداد في العصر الإيلخاني، وقد أحسن المغول استغلال الصراعات الدينية والمذهبية بين أهل بغداد لتحقيق مآربهم وحفظ مصالحهم.

٦- كان اتخاذ اللغة الفارسية لغة رسمية للبلاط والإدارة في دواوين الولايات الإيلخانية، ومنها بغداد، عاملا رئيسا في وضوح الآثار الثقافية للغزو المغولي لتلك المدينة، واستغل الغزاة الصراعات القومية والثقافية بين الفرس من عمال المغول بعضهم بعضا، وبين الفرس وغيرهم من العرب، وذلك لخدمة أهدافهم السياسية.

ثانيا التوصيات:

يوصي البحث المهتمين بدراسة العصر المغولي بتركيز زاوية البحث التاريخي في العصر المغولي على النواحي الحضارية وتجنب قصر البحوث على النواحي السياسية، أو الاستغراق في تفاصيل السياسة؛ فالحاجة ماسة لتناول الجوانب الحضارية المحتلفة للعصر المغولي بشيء من الرويّة والمنهجية والتحليل العلمي، فعلى الرغم من بذل جهود بحثية طيبة تتناول العصر المغولي، فإن الأمر مازال يتطلب مزيدا من الجهود.

كما يوصي البحث أيضا بنقل المزيد من المصادر الفارسية المهمة المتعلقة بتاريخ المغول إلى اللغة العربية؛ فمازالت المكتبة العربية بحاجة إلى تلك المصادر في لغة عربية تعين على إجراء مزيد من البحوث والدراسات التاريخية في العصر المغولي.

قسم الملاحق

ملحق رقم (١)

قائمة سلاطين الدولة الإيلخانية وفترات حكمهم



ملحق رقم (٢)

خريطة الدولة الإيلخانية

ملحق رقم (١)

قائمة سلاطين الدولة الإيلخانية وفترات حكمهم

• هولاكو خان بن تولوي خان بن جنكيز خان.	٦٥٦– ٦٦٣هـ	١٢٥٨– ١٢٦٤م
• آباقا خان بن هولاكو.	٦٦٣– ٦٨٠هـ	١٢٦٤– ١٢٨١م
• أحمد تكودار بن هولاكو.	٦٨١– ٦٨٣هـ	١٢٨٢– ١٢٨٤م
• أرغون خان بن آباقا.	٦٨٣– ٦٩٠هـ	١٢٨٤– ١٢٩١م
• گيخاتو خان بن آباقا.	٦٩٠– ٦٩٤هـ	١٢٩١– ١٢٩٥م
• بايدو خان بن طراغاي بن هولاكو.	٦٩٤– ٦٩٤هـ	١٢٩٥– ١٢٩٥م
• محمود غازان خان بن أرغون.	٦٩٤– ٧٠٣هـ	١٢٩٥– ١٣٠٤م
• محمد خدا بنده (أولجايتو) بن أرغون.	٧٠٣– ٧١٦هـ	١٣٠٤– ١٣١٦م
• أبو سعيد بهادر خان بن محمد خدا بنده.	٧١٧– ٧٣٦هـ	١٣١٧– ١٣٣٥م

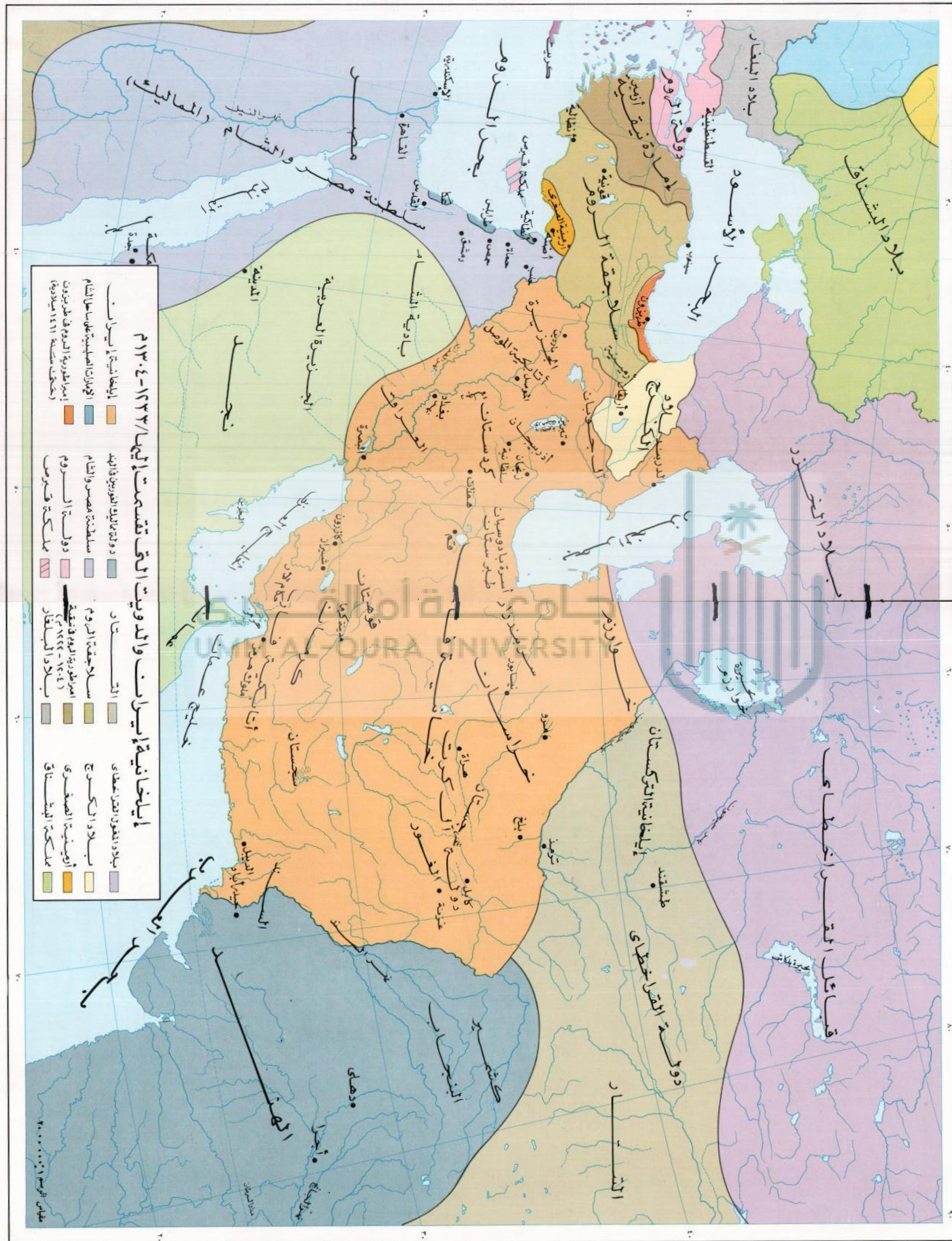
الإيلخانيون المتنافسون على السلطة في فترة المتغلبة

• أرپا خان.	٧٣٦– ٧٣٦هـ	١٣٣٥– ١٣٣٥م
• موسى خان بن علي بن بايدو.	٧٣٦– ٧٣٦هـ	١٣٣٥– ١٣٣٥م
• محمد خان بن يول قُتلُغ بن تيمور بن أنبارجي.	٧٣٦– ٧٣٨هـ	١٣٣٥– ١٣٣٧م
• ساتي بيك خاتون ابنة محمد خدا بنده.	٧٣٩– ٧٤٠هـ	١٣٣٨– ١٣٣٩م
• طغاي تيمور خان بن سوداي كاو بن بابا بهادر.	٧٣٩– ٧٥٤هـ	١٣٣٨– ١٣٥٣م
• شاه جهان تيمور.	٧٣٩– ٧٤١هـ	١٣٣٨– ١٣٤٠م
• سليمان خان بن يوسف شاه بن سوكه بن يشموت.	٧٤١– ٧٤٤هـ	١٣٤٠– ١٣٤٣م
• أنوشروان العادل.	٧٤٤– ٧٥٦هـ	١٣٤٣– ١٣٥٥م

****

ملحق رقم (٢)

خريطة الدولة الإيلخانية، نقلا عن حسين مؤنس، أطلس تاريخ الإسلام، صـ٢٢٤- ٢٢٥.



قائمة المصادر والمراجع

أولا: المخطوطات.
ثانيا: المصادر العربية والمعرّبة.
ثالثا: المصادر والمراجع الفارسية غير المعرّبة.
رابعا: المراجع العربية والمعرَّبة.
خامسا: رسائل الماجستير والدكتوراه
سادسا: المراجع الأوربية غير المعرّبة.

قائمة المصادر والمراجع

أولا: المخطوطات:

ابن الشحنة: أبو الوليد محمد بن كمال الدين محمد بن محمود:

- روض المناظر في علم الأوائل والأواخر، مخطوط رقم (٢٧٠) بمعهد إحياء المخطوطات العربية بالقاهرة.

الإدفوي: جعفر بن ثعلب بن جعفر كمال الدين أبو الفضل:

- البدر السافر في أنس المسافر، مخطوط رقم (٨١) بمعهد إحياء المخطوطات العربية بالقاهرة.

رشيد الدين: فضل الله بن أبي الخير الهمذاني:

- تاريخ جنكيز خان، مخطوط رقم ١٠٧ بمعهد إحياء المخطوطات العربية بالقاهرة.

ثانيا: المصادر العربية والمعرّبة:

ابن العبري: أبو الفرج جمال الدين غريغوريوس الطبيب الملطي:

- تاريخ الزمان، نقله إلى العربية الأب إسحق أرملة، دار المشرق، بيروت، لبنان، سنة ١٩٩١م، وقد توفي المصنِّف سنة ٦٨٥هـ فأتم أخوه برصوم الصافي كتابه فيما يتعلق بما تلا هذه السنة من أحداث.

- تاريخ مختصر الدول، وقف على طبعه ووضع حواشيه الأب أنطون صالحاني اليسوعي، الطبعة الثانية، المطبعة الكاثوليكية ، بيروت، سنة ١٩٥٨م.

ابن العماد الحنبلي: أبا الفلاح عبد الحي:

- شذرات الذهب في أخبار من ذهب، الطبعة الأولى، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، بيروت، بدون تاريخ.

ابن الفقيه: أبو بكر أحمد بن محمد الهمذاني:

- مختصر كتاب البلدان، ليدن، سنة ١٣٠٢هـ.

ابن الفوطي: كمال الدين عبد الرازق بن أحمد الشيباني (ت٧٢٣هـ):

- الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة، مطبعة الفرات، المكتبة العربية، بغداد، سنة ١٣٥١هـ (منسوب لابن الفوطي).

- تلخيص مجمع الآداب في معجم الألقاب، تحقيق الدكتور مصطفي جواد، الطبعة الأولى، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، مطبوعات مديرية إحياء التراث القديم، المطبعة الهاشمية بدمشق، سنة ١٣٨٢هـ/ ١٩٦٢م.

- مجمع الآداب في معجم الألقاب، خمسة أجزاء، تحقيق محمد الكاظم، الطبعة الأولى، مؤسسة الطباعة والنشر، وزارة الثقافة والإرشاد الإسلامي، طهران، سنة ١٤١٦هـ.

ابن بطوطة: محمد بن عبد الله بن إبراهيم اللَّواتي الطنجي المعروف بابن بطوطة:

- تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، جزءان، القاهرة، ١٩٣٨م.

ابن تغري بردي: جمال الدين أبو المحاسن يوسف (ت٨٧٤هـ):

- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، الطبعة الأولى، دار الكتب المصرية، القاهرة سنة ١٣٥٥هـ/ ١٩٣٦م.

ابن تغري بردي: جمال الدين أبو المحاسن يوسف:

- المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي، الطبعة الأولى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، سنة ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٤م.

ابن سعيد: علي بن موسى الشهير بابن سعيد المغربي:

- بسط الأرض في الطول والعرض، تحقيق الدكتور خوان قرميظ خينيس، تطوان، المغرب، ١٣٧٨هـ/ ١٩٥٨م.

ابن شاكر الكتبي: محمد بن شاكر بن أحمد بن عبد الرحمن بن شاكر:

- فوات الوفيات والذيل عليها، تحقيق إحسان عباس، الطبعة الأولى، دار صادر، بيروت، لبنان، سنة ١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣م.
- عيون التواريخ، نقلا عن محمد القزاز: الحياة السياسية في العراق في عهد السيطرة المغولية.

ابن طباطبا: محمد بن علي بن طباطبا المعروف بابن الطقطقي:

- الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، مطبعة الموسوعات بمصر، سنة ١٣١٧هـ.

ابن عقبة: جمال الدين أحمد بن علي الحسني (ت٨٢٨هـ):

- عمدة الطالب في انساب آل أبي طالب، الطبعة الأولى، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، بدون تاريخ.

أبو الفداء عماد الدين إسماعيل صاحب حماة:

- المختصر في أخبار البشر، دار الكتاب اللبناني، بيروت، بدون تاريخ.

أبو الفداء: الحافظ إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي:

- البداية والنهاية، تحقيق حسن إسماعيل مروة، مراجعة عبد القادر الأرناؤوط وبشار عواد معروف، الطبعة الثانية، دار ابن كثير، دمشق، سنة ١٤٣١هـ/ ٢٠١٠م.
- البداية والنهاية في التاريخ، مطبعة السعادة، القاهرة، سنة ١٩٣٢م.

أبو الفداء: الملك المؤيد عماد الدين إسماعيل بن على بن أيوب (ت ٧٣٢هـ):

- تاريخ أبي الفداء المسمَّى المختصر في أخبار البشر، علّق عليه ووضع حواشيه محمود ديّوب، دار الكتب العلمية، بيروت، بدون تاريخ.

البغدادي: صفي الدين عبد المؤمن بن عبد الحق (ت٧٣٩هـ):

- مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، تحقيق علي محمد البجاوي، الطبعة الأولى، دار الجيل، بيروت، سنة ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م.

الجويني: علاء الدين عطاملك بن بهاء الدين محمد:

- تاريخ فاتح العالم (جهانگشاى)، ترجمة محمد ألتونجي، مجلدان، الطبعة الأولى، دار الملاح للطباعة والنشر، سنة ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.

الحموي: شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي البغدادي:

- معجم البلدان، الطبعة الأولى، دار صادر، بيروت، (د.ت).

الديار بكري: حسين بن محمد:

- تاريخ الخميس في أحوال أنفس نفيس، الطبعة الأولى، المطبعة الوهبية، القاهرة، سنة ١٢٨٣هـ/ ١٨٦٦م.

الذهبي: شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز(ت٧٤٨هـ):

- العبر في خبر من غبر، الطبعة الأولى، مطبعة حكومة الكويت، الكويت، سنة ١٣٨٦هـ/ ١٩٦٦م.

رشيد الدين: فضل الله بن عماد الدولة أبي الخير بن موفق الدولة الهمذاني (ت٧١٨هـ):

- جامع التواريخ: تاريخ المغول، المجلد الثاني، الجزء الأول، تاريخ هولاكو مع مقدمة كاترمير، نقله عن الفارسية الأستاذ محمد صادق نشأت، والدكتور محمد موسى هنداوي، والدكتور فؤاد عبد المعطي الصياد، وترجم مقدمة كاترمير عن الفرنسية الدكتور محمد القصاص، القاهرة، ١٩٦٠م.

- جامع التواريخ، المجلد الثاني، الجزء الثاني، الإيلخانيون (تاريخ أبناء هولاگو من آباقا خان إلى گيخاتو خان)، نقله إلى العربية محمد صادق نشأت، وفواد عبد المعطي الصياد، وراجعه يحيى الخشاب، دار إحياء الكتب العربية، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، الجمهورية العربية المتحدة، سنة ١٩٦٠م.

- جامع التواريخ، تاريخ غازان خان، ترجمة الدكتور فؤاد الصياد، الطبعة الأولى، الدار الثقافية للنشر، القاهرة، سنة ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م.

- جامع التواريخ، المجلد الأول، تاريخ خلفاء جنگيز خان من أوگتاى قآن إلى تيمور قآن، نقله إلى العربية الدكتور فؤاد عبد المعطي الصياد، راجعه وقدم له الدكتور يحيى الخشاب، الطبعة الأولى، دار النهضة العربية، بيروت، سنة ١٩٨٣م.

السبكي: تاج الدين أبو نصر عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي (ت٧٧١هـ):

- طبقات الشافعية الكبرى، الطبعة الأولى، القاهرة، دار إحياء الكتب العربية، بدون تاريخ.

السيوطي: الإمام جلال الدين:

- تاريخ الخلفاء، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، القاهرة، سنة ١٣٧١هـ/ ١٩٥٢م.

شرف خان البدليسي:

- شرف نامه، ألفه بالفارسية شرف خان البدليسي، ترجمه إلى العربية محمد علي عوني، راجعه وقدم له الدكتور يحيى الخشاب، دار إحياء الكتب العربية، سنة ١٩٦٢م.

الصفدي: صلاح الدين خليل بن أيبك:

- الوافي بالوفيات، الطبعة الأولى، دار نشر فرانزشتاينر، فيسبادن، ألمانيا، سنة ١٣٩٠هـ/ ١٩٧٠م.

العمري: شهاب الدين أحمد بن يحيي ابن فضل الله:

- مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، الجزء الثالث، تحقيق أحمد عبد القادر الشاذلي، المجمع الثقافي، أبو ظبي، سنة 1424هـ/ 2003م.

العَيْنِي: بدر الدين محمود بن أحمد (ت٨٥٥هـ):

- عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، عصر سلاطين المماليك، جـ١ حوادث وتراجم ٦٤٨- ٦٦٤هـ، تحقيق محمد محمد أمين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، سنة ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م.

- السيف المهنّد في سيرة الملك المؤيّد شيخ المحمودي، تحقيق فهيم شلتوت، القاهرة، سنة ١٩٦٦- ١٩٦٧م.

القزويني: زكريا بن محمد بن محمود:

- آثار البلاد وأخبار العباد، الطبعة الأولى، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، سنة ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م.

- آثار البلاد وأخبار العباد، طبعة دار صادر، بيروت، سنة ١٩٦٠م.

القلقشندي: أبو العباس أحمد بن علي بن أحمد:

- صبح الأعشى في كتابة الإنشا، سلسلة الذخائر، الهيئة العامة لقصور الثقافة، طبعة مصورة عن طبعة دار الكتب الخديوية، القاهرة، صدرت في الفترة ٢٠٠٤- ٢٠٠٦م.

ماركو بولو:

- رحلات ماركو بولو، ترجمها إلي الإنجليزية وليم مارسدن، وترجمها إلي العربية عبد العزيز جاويد، ثلاثة أجزاء، الطبعة الثانية، الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٩٥- ١٩٩٦م.

المقريزي: تقي الدين أبو العباس أحمد بن علي:

- السلوك لمعرفة دول الملوك، الطبعة الأولى، القاهرة، سنة ١٣٥٣هـ/ ١٩٣٢م.

اليافعي: عفيف الدين أبو محمد عبد الله بن أسعد:

- مرآة الجَنان وعبرة اليقظان في معرفة حوادث الزمان وتقليب أحوال الإنسان وموت بعض المشهورين من الأعيان، الطبعة الأولى، المطبعة الوهابية، القاهرة، سنة ١٣٨٦هـ/ ١٩٦٧م.

اليونيني: قطب الدين أبو الفتح موسى بن محمد بن أحمد:

- ذيل مرآة الزمان، الطبعة الأولى، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، الهند، حيدر آباد الدكن، سنة ١٣٧٤هـ/ ١٩٥٤م.

ثالثا: المصادر والمراجع الفارسية غير المترجمة

ابن بي بي:

- الأوامر العلائية في الأمور العلائية، تحقيق محمد جواد مشكور، مكتبة طهران، ١٣٥٠هـ. ش.

آيتى: عبد المحمد:

- تحرير تاريخ وصاف، از انتشارات بنياد فرهنگ ايران، چاپخانۀ علمى، خرداد ماه ١٣٤٦هـ.ش.

بارتولد شبولر:

- تاريخ مغول در ايران: سياست، حكومت، وفرهنگ، دوره ايلخانان، ترجمۀ دكتر محمود مير آفتاب، بنگاه ترجمه ونشر كتاب، تهران، ١٣٥١هـ . ش.

بطروشفسكى:

- نهضت سربداران خراسان، ترجمه كريم كشاورز، چاب سوم، انتشارت پيام، بهار ١٣٥١هـ. ش.

پِی نَن رشید وو:

– سقوط بغداد وحکمروایی مغولان در عراق (میان سالهای ۱۲۵۸و ۱۳۳۵میلادی)، ترجمه دکتر اسد الله آزاد، انتشارات دانشگاه مشهد، ۱۳٦۷هـ. ش.

پیتر ویلی:

– قلاع حشاشین، ترجمه وحواشی از علی محمد ساکی چاپ دوم، انتشارات علمی، تهران، ۱۳۷٤هـ. ش.

جعفر مهدی نیا:

– هفت بار اشغال ایران، چاپ اول، انتشارات پانوس، تهران، ۱۳۷۷هـ. ش.

جوزجاني: أبي عمرو منهاج الدين عثمان بن سراج الدين، معروف به "منهاج سراج":

– طبقات ناصري، (أُلّف في الفترة ما بين ٦٥٧– ٦٥٨هـ)، تحقيق عبد الحي حبيبي قندهاري، كابل، ١٣٤٣هـ.ش.

الجويني: علاء الدين عطا ملك بن بهاء الدين محمد:

– تاريخ جهانكشاى، جلد اول، در تاريخ چنگيز خان واعقاب او تا كيوك خان، بسعى واهتمام وتصحيح محمد بن عبد الوهاب قزوينى، مطبعة بريل، ليدن، هلاند، ١٣٢٩هـ/ ١٩١١م،

– تاريخ جهانكشاى، جلد ثانى، در تاريخ خوارزمشاهيان، بسعى واهتمام وتصحيح محمد بن عبد الوهاب قزوينى، مطبعه بريل، ليدن، هلاند، ١٣٣٤هـ/ ١٩١٦م.

– تاريخ جهانكشاى جلد سوم، در تايخ منگو قاآن وهولاگو واسماعيليه، بتصحيح محمد بن عبد الوهاب قزوينى، ليدن، هلاند، ١٣٥٥هـ/ ١٩٣٧م.

حافظ آبرو:

– ذيل جامع التواريخ رشيدى (شامل وقايع ٧٨١- ٧٠٣ هجرى قمرى)، باهتمام دكتر خانبابا بيانى، سلسله انتشارات انجمن آثار ملى شماره ٨٨، چاب دوم، تهران، ١٣٥٠هـ. ش.

حبيب لوي:

– تاريخ يهود ايران وقسمتهائى از تواريخ بعضى از ملل كه وابسته بتاريخ يهود ميباشد، جلد سوم، كتابهاى پنجم وششم وهفتم، سلطان سنجر تا عصر كنونى سلطنت فرخنده اعليحضرت محمد رضا شاه پهلوى، چاب اول، كتاب فروشى بروخيم، سال ٥٧٢١ عبرى/ ١٣٣٩ هـ. ش/ ١٩٦٠م.

حسينقلي ستوده:

– تاريخ آل مظفر، جزئين، طهران، سنه ١٣٤٧هـ. ش.

حمد الله بن أبى بكر بن محمد بن نصر مستوفى قزوينى:

– تاريخ گزيده، تحقيق عبد الحسين نوائى، چاپ سوم، مؤسسه انتشارات امير كبير، تهران، ١٣٢٤هـ.ش.

– نزهة القلوب، با مقابله وحواشى وتعليقات وفهارس بكوشش محمد دبير سياقى، كتابخانۀ طهورى، تهران، خيابان شاه آباد، اسفند ماه، ١٣٣٦ خورشيدى.

خواندمير: غياث الدين بن همام الدين الحسيني المدعوّ به خواندمير:

– دستور الوزراء، با مقدمۀ وتحقيق سعيد نفيسى، طهران، ١٣١٧هـ. ش.

– تاريخ حبيب السير فى اخبار افراد بشر، جزء اول از مجلد سوم، از انتشارات كتابخانه خيام، خيابان ناصر خسرو، ١٣٣٣هـ. ش.

رضا شعباني:

- گزيده تاريخ ايران، چاپ اول، مركز مطالعات فرهنگى بين المللى، تهران، ١٣٨١هـ.ش.

زاده: هاشم رجب:

- آئين كشوردارى در عهد وزارت رشيد الدين فضل الله همذانى (متوفى ٧١٨هـ)، انتشارات توس، دانشگاه تهران، ارديبهشت ماه، ٢٥٣٥ شاهنشاهى. (والترجمة العربية لعنوان هذا المرجع: النظم الإدارية في ظل وزارة رشيد الدين فضل الله الهمذاني).

شيرازى: شرف الدين عبد الله بن فضل الله معروف بـ"وصاف حضره":

- تجزية الأمصار وتزجية الأعصار، مشهور بـ"تاريخ وصاف"، طبع بمباى، ١٢٩٦هـ.

شيرين بيانى:

- تاريخ آل جلاير، تهران، ١٣٤٧هـ. ش. - دين ودولت در ايران عهد مغول، جلد دوم، حكومت ايلخانى: نبرد ميان دو فرهنگ، مركز نشر دانشكاهى تهران، چاپ اول، ١٣٧٥ هـ. ش.

- زن در ايران عصر مغول، مؤسسه انتشارات وچاپ دانشگاه تهران، ١٣٥٢هـ. ش.

عباس اقبال آشتياني:

- تاريخ مفصل ايران از استيلاى مغول تا اعلان مشروطيت، در جهار جلد، جلد اول، از حمله چنگيز تا تشكيل دولت تيمورى، مطبعة مجلس، طهران، ١٣١٢هـ.ش.

عقيلى: سيف الدين حاجى بن نظام:

– آثار الوزراء (از كتب مؤلفه در نيمـۀ قرن نهم هجرى)، بتصحيح وتعليق مير جلال الدين حسينى ارموى محدث، انتشارات دانشگاه تهران، شمارۀ ٥٢٨، تهران، ١٣٣٧هـ . ش.

قاسم غني:

– بحث در آثار وافكار واحوال حافظ ، جـ١، تاريخ عصر حافظ يا تاريخ فارس ومضافات وايالات مجاوره در قرن هشتم هجرى، تهران، ١٣٢١هـ. ش.

القاشاني: أبو القاسم عبد الله بن محمد:

– تاريخ اولجايتو (تاريخ پادشاه سعيد غياث الدنيا والدين اولجايتو سلطان محمد طيب الله مرقده)، به اهتمام مهين همبلى، بنگاه ترجمه ونشر كتاب، تهران، ١٣٤٨هـ. ش.

القزويني: محمد بن عبد الوهاب:

– مقدمة تحقيق الجزء الأول من تاريخ جهانكشاي، مطبعة بريل، ليدن، هلاند، ١٣٢٩هـ/ ١٩١١م.

كرمانى: ناصر الدين منشى:

– نسائم الأسحار من لطائم الأخبار در تاريخ وزراء، (مؤلّف بسال ٧٢٥هـ)، بتصحيح ومقدمه وتعليق مير جلال الدين حسينى ارموى محدّث، انتشارات دانشگاه تهران، بى تاريخ.

مجموعة مستشرقين:

– تاريخ ايران از دوران باستان تا پايان سده هجدهم ميلادى (تاريخ إيران منذ العهد القديم حتى نهاية القرن الثامن عشر الميلادي)، تأليف مجموعة من المستشرقين هم: ن. و. پيگولوسكايا، آ. يو. ياكوبوسكى، اى. پ. پطروشفسكى، آ. م. بلنيتسكى، ل. و. استرويوا، ترجمه إلى الفارسية كريم كشاوز، پيام، تهران، ١٣٥٤.

منوچهر مرتضوي:

- مسائل عصر ايلخانان، چاپ دوم، مؤسسه انتشارات آگاه، تبريز، ١٣٧٠هـ.ش.

ميرخواند: مير محمد بن سيد برهان الدين خواوندشاه الشهير بـ"ميرخواند":

- تاريخ روضة الصفا، جلد پنجم، از انتشارات كتابفروشيهاى مركزى وخيام وپيروز، تهران، ارديبهشت ماه، ١٣٣٩هـ. ش.

رابعا: المراجع العربية والمترجمة إلى العربية:

آ. آشتور:

- التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للشرق الأوسط في العصور الوسطى، ترجمة عبد الهادي عبلة، مراجعة أحمد غسان سبانو، دار قتيبة للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، سنة ١٩٨٥م صـ٣١٩.

أ. ج. آربري:

- تراث فارس، الطبعة الأولى، نقله إلى العربية مجموعة من أساتذة كلية الآداب، جامعة القاهرة، واشترك في ترجمته وراجعه الدكتور يحيى الخشاب، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، سنة ١٣٧٩هـ/ ١٩٥٩م.

إبراهيم الدسوقي شتا:

- المعجم الفارسي الكبير (فرهنگ بزرگ فارسى)، فارسي- عربي، مكتبة مدبولي (كتانفروشى مدبولى)، القاهرة، ١٤١٢هـ. ق/ ١٣٧٠هـ. ش/ ١٩٩٢م.

ابن بيبي:

- أخبار سلاجقة الروم"، وهو الترجمة العربية لكتاب "مختصر سلجوقنامه"، نقله إلى العربية الدكتور محمد السعيد جمال الدين، الطبعة الأولى، المركز القومي للترجمة بجمهورية مصر العربية، سنة ٢٠٠٧م، صـ (و- ز) من مقدمة المترجم.

ابن شطي: محمد جميل بن عمر البغدادي:

- مختصر طبقات الحنابلة، الطبعة الأولى، دار الكتاب العربي، بيروت، سنة ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م.

الأعظمي: علي ظريف:

- مختصر تاريخ بغداد القديم والحديث، مطبعة الفرات، بغداد، سنة ١٩٢٦م.

ألتونجي: محمد:

- معجم المعرّبات الفارسية منذ بواكير العصر الجاهلي حتى العصر الحاضر، راجعه الدكتور السباعي محمد السباعي، الطبعة الثانية، مكتبة لبنان، بيروت، سنة ١٩٩٨م.

بدر: مصطفى طه:

- محنة الإسلام الكبرى، أو زوال الخلافة العباسية من بغداد على أيدي المغول، الطبعة الثانية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، سنة ١٩٩٩م.

بدوي: عبد المجيد أبو الفتوح:

- التاريخ السياسي والفكري للمذهب السني في الشرق الإسلامي من القرن الخامس الهجري حتى سقوط بغداد، الطبعة الأولى، نشر عالم المعرفة، جدة، سنة ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.

براون: إدوارد جرانفيل:

- تاريخ الأدب في إيران من الفردوسي إلى السعدي، ألفه بالإنجليزية إدوارد براون، ونقله إلى الفارسية الأستاذ علي أصغر حكمت، ونقله من الفارسية إلى العربية الدكتور إبراهيم أمين الشواربي، مطبعة السعادة بمصر، سنة ١٣٧٣هـ/ ١٩٥٤م.

بروكلمان: كارل:

- تاريخ الشعوب الإسلامية، الطبعة الخامسة، نقله عن الألمانية نبيه أمين فارس، ومنير البعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، سنة ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م.

بول: ستانلي لين:

- تاريخ الدول الإسلامية ومعجم الأسر الحاكمة، ألفه بالإنجليزية ستانلي لين بول، ونقله إلى التركية خليل أدهم إلدَم، ونقله من التركية إلى العربية الدكتور أحمد السعيد سليمان، طبعة دار المعارف، مصر، سنة ١٩٧٢م.

توماس أرنولد:

- الدعوة إلى الإسلام، بحث في تاريخ نشر العقيدة الإسلامية، نقله إلى العربية الدكتور حسن إبراهيم حسن والأستاذ عبد المجيد عابدين، الطبعة الثالثة، نشر مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، سنة ١٣٦٧هـ/ ١٩٤٧م.

جمال الدين: محمد السعيد:

- دولة الإسماعيلية في إيران- بحث في تطور الدعوة الإسماعيلية إلى قيام الدولة مع ترجمة للنص الفارسي الذي ورد عنها في كتاب "تاريخ جهانگشاى" لعطا ملك الجويني، مطابع سجل العرب، سنة ١٩٧٥م.
- علاء الدين عطا ملك الجويني حاكم العراق بعد انقضاء الخلافة العباسية في بغداد، الطبعة الأولى، سنة ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م.

الحجي: حياة ناصر:

- العلاقات بين دولة المماليك ودولة مغول القفجاق في الفترة ما بين ٦٥٨- ٧٤١هـ/ ١٢٦٠-١٣٤١م، الحولية الثانية لكلية الآداب، جامعة الكويت، ١٩٨١م/ ١٤٠٠هـ.

حسن خليفة:

- الدولة العباسية قيامها وسقوطها، الطبعة الأولى، دار الفكر العربي، القاهرة، سنة ١٣٦٧هـ/ ١٩٤٧م.

حسنين: شيرين عبد النعيم:

- الثقافة العربية الإسلامية في إيران في العصرين المغولي والتيموري، مجلة ثقافتنا للدراسات والبحوث، المجلد الخامس، العدد الثامن عشر، سنة ١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨م.

خصباك: جعفر حسين:

- العراق في عهد المغول الإيلخانيين (٦٥٦-٧٣٦/ ١٢٥٨- ١٣٣٥م)، الفتح. الإدارة. الأحوال الاقتصادية. الأحوال الاجتماعية، الطبعة الأولى، كانون الثاني، ١٩٦٨م.

خليل أدهم:

- تاريخ الدول الإسلامية ومعجم الأسر الحاكمة، نقله عن التركية الدكتور أحمد السعيد سليمان، طبعة دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٢م.

دونالد ولبر:

– إيران ماضيها وحاضرها، ترجمه عن الإنجليزية الدكتور عبد النعيم حسنين، الطبعة الثانية، دار الكتاب المصري بالقاهرة، ودار الكتاب اللبناني، بيروت، سنة ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.

رانسيمان: ستيفن:

– تاريخ الحروب الصليبية، الطبعة الأولى، نقله إلى العربية الدكتور السيد الباز العريني، نشر دار الثقافة، بيروت، سنة ١٣٨٩هـ/ ١٩٦٩م.

زانباور:

– معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي، أخرجه الدكتور زكي حسن بك، حسن أحمد محمود، واشترك في ترجمة بعض فصوله الدكتورة سيدة إسماعيل كاشف وحافظ حمدي وأحمد ممدوح، مطبعة دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، سنة ١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨م.

السباعي: محمد السباعي:

– عطا ملك الجويني وكتابه جهان گشا، دار الزهراء للنشر، القاهرة، سنة ١٤١٢هـ/ ١٩٩١م.

سليمان: حربي أمين:

– المؤرخ الإيراني الكبير غياث الدين خواندمير كما يبدو في كتابه دستور الوزراء، تأليف وترجمة وتعليق الدكتور حربي أمين سليمان، تقديم الدكتور فؤاد عبد المعطي الصياد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، سنة ١٩٨٠م.

سيديو: لويس أميلي:

– تاريخ العرب العام، الطبعة الثانية، نقله إلى العربية الأستاذ عادل زعيتر، نشر شركة عيسى البابي الحلبي، القاهرة، سنة ١٣٨٩هـ/ ١٩٦٩م.

شبولر: برتولد:

– العالم الإسلامي في العصر المغولي، نقله إلي العربية الأستاذ خالد أسعد عيسى، راجعه وقدّم له الدكتور سهيل زكار، الطبعة الأولى، دار إحسان للطباعة والنشر، دمشق، سنة ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م.

الشبيبي: محمد رضا:

- مؤرخ العراق ابن الفوطي، الطبعة الأولى، مطبوعات المجمع العلمي العراقي، بغداد، سنة ١٣٧٠- ١٣٧٨هـ/ ١٩٥٠- ١٩٦٨م.

شوكت حجة:

- مواقف أئمة المسلمين من الغزو الإيلخاني (مغول فارس) لبلاد الشام ومصر، بحث بمجلة الجامعة الإسلامية (سلسلة الدراسات الإنسانية)، المجلد الخامس عشر، العدد الثاني، يونيو، سنة 2007 م.

صبحي عبد المنعم:

- سياسة المغول الإيلخانيين تجاه دولة المماليك في مصر والشام زمن الإيلخان أبي سعيد (٧١٦- ٧٣٦/ ١٣١٦- ١٣٣٥م)، الطبعة الأولى، العربي للنشر والتوزيع، سنة ٢٠٠٠م.

الصياد: فؤاد عبد المعطي:

- السلطان محمود غازان خان المغولي واعتناقه الإسلام، الطبعة الأولى، مكتبة الأنجلو المصرية، سنة ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م. مؤرخ المغول الكبير رشيد الدين فضل الله الهمذاني، الطبعة الأولى، دار الكاتب العربي، القاهرة، ١٣٨٦هـ/ ١٩٦٧م.

- المغول في التاريخ، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، سنة ١٩٨٠م.

- الشرق الإسلامي في عهد الإيلخانيين (أسرة هولاكو خان)، منشورات مركز الوثائق والدراسات الإنسانية بجامعة قطر، سنة ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.

- السلطان محمود غازان خان المغولي واعتناقه الإسلام، الطبعة الأولى، مكتبة الأنجلو المصرية، سنة ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م.

عارف تامر:

- نصير الدين الطوسي في مرابع ابن سينا، الطبعة الأولى، نشر مؤسسة عز الدين، بيروت، سنة ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م، صـ٨٧.

عاشور: سعيد عبد الفتاح:

- العصر المماليكي في مصر والشام، الطبعة الثانية، القاهرة، سنة ١٩٧٦م.

عباس اقبال آشتياني:

– تاريخ المغول منذ حملة جنكيز خان حتى قيام الدولة التيمورية، نقله إلى العربية عبد الوهاب علوب، طبعة المجمع الثقافي، أبو ظبي، الإمارات العربية المتحدة، ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م.
– تاريخ إيران بعد الإسلام من بداية الدولة الطاهرية حتى نهاية الدولة القاجارية (سنة ٢٠٥– ١٢٤٣هـ/ ٨٢٠– ١٩٢٥م، نقله إلى العربية الدكتور محمد علاء الدين منصور، الطبعة الأولى، دار الثقافة والنشر والتوزيع، القاهرة، سنة ١٩٨٩م.

عبد الحليم: رجب محمد:
– انتشار الإسلام بين المغول، الطبعة الأولى، مطبعة الجبلاوي، بولاق، القاهرة، سنة ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٦م.

العريني: السيد الباز:
– المغول، الطبعة الأولى، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، سنة ١٤٠٢هـ/ ١٩٨١م،

العزاوي: عباس:
– تاريخ العراق بين احتلالين، الجزء الأول: حكومة المغول، بغداد، سنة ١٣٥٣هـ/ ١٩٣٨م.
– تاريخ النقود العراقية لما بعد العهود العباسية من سنة ٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م إلي سنة ١٣٣٥هـ/ ١٩١٧م، طبع شركة التجارة والطباعة، الصالحية، بغداد، سنة ١٣٧٧هـ/ ١٩٥٨م.
– تاريخ الضرائب العراقية، بغداد، ١٩٥٩م.

العلبي: أكرم حسن:
– معارك المغول الكبرى في بلاد الشام، دار المأمون للتراث، الطبعة الأولى، بيروت، سنة ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.

الغامدي: سعد بن محمد حذيفة:
– سقوط الدولة العباسية ودور الشيعة بين الحقيقة والاتهام، الطبعة الثالثة، دار ابن حذيفة، سنة ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م.

غنيمة: يوسف رزق الله:
– نزهة المشتاق في تأريخ يهود العراق، مع ملحق بتأريخ يهود العراق في القرن العشرين بقلم مير بصري، الطبعة الثانية، دار الوراق للنشر، لندن، سنة 1997م.

فاطمة نبهان:

- يهود إيران في العصر الإيلخاني من خلال كتاب "تاريخ يهود ايران" تأليف حبيب لوى، ترجمة ودراسة، صـ١٤، حولية كلية الآداب جامعة عين شمس، العدد ٢٦ لسنة ١٩٩٨م.

فهمي: عبد السلام عبد العزيز: تاريخ الدولة المغولية في إيران، طبعة دار المعارف، القاهرة، سنة ١٩٨١م.

الفيل:

- الجغرافية التاريخية للعراق بين الفتح المغولي والفتح العثماني، نقلا عن القزاز: الحياة السياسية في العراق في عهد السيطرة المغولية.

فيليب حتى:

- تاريخ العرب، الطبعة الرابعة، بدون تاريخ.

القزاز: محمد صالح داوود:

- الحياة السياسية في العراق في عهد السيطرة المغولية، مطبعة القضاء في النجف الأشرف، سنة ١٣٩٠هـ/ ١٩٧٠م.

كرافولسيكي: دوروتيا:

- العرب وإيران، دراسات في التاريخ والأدب من المنظور الأيديولوجي، الطبعة الأولى، دار المنتخب العربي، بيروت، سنة 1413هـ/ 1993م.

لسترنج (كي):

- بلدان الخلافة الشرقية، نقله إلى العربية بشير فرنسيس وكوكيس عواد، الطبعة الثانية، مؤسسة الرسالة، سنة ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥.

مؤنس: حسين:

- أطلس تاريخ الإسلام، الطبعة الأولى, الزهراء للإعلام العربي، القاهرة، سنة ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.

مجموعة مستشرقين:

- دائرة المعارف الإسلامية، أصدرها بالإنكليزية والفرنسية والألمانية أئمة المستشرقين في العالم، النسخة العربية، إعداد وتحرير: إبراهيم زكي خورشيد، وأحمد الشنتناوي، وعبد الحميد يونس، طبعة دار الشعب، القاهرة، سنة ١٩٦٦م.

محسن الأمين:

- أعيان الشيعة، الطبعة الأولى، مطبعة الإنصاف، بيروت، سنة ١٣٨١هـ/ ١٩٦١م.

محمد أحمد محمد: إسلام الإيلخانيين، الطبعة الأولى، شركة الصفا للطباعة والترجمة والنشر، القاهرة، سنة ١٤١٠هـ/ ١٩٨٩م.

مينورسكي:

- ترجمة المعارف الإسلامية، م٤، مادة "تبريز"، نقلا عن: القزاز: الحياة الساسية في العراق في عهد السيطرة المغولية.

ناجي معروف:

- تاريخ علماء المستنصرية، الطبعة الثالثة، مؤسسة دار الشعب، القاهرة، سنة ١٣٩٥هـ/ ١٩٧٥م.

هنداوي: محمد موسى:

- المعجم في اللغة الفارسية، تقديم الدكتور عبد الوهاب عزام، الطبعة الثانية، مكتبة الأنجلو ودار مطابع الشعب، سنة ١٣٨٤هـ/ ١٩٦٥م.

يونس: محمد محمد:

- ابن يمين الفريومدي وشعره دراسة تحليلية نقدية، دار الهاني للطباعة والنشر، سنة ١٩٩٤م.

خامسا: رسائل الماجستير والدكتوراه:

أ- رسائل الدكتوراه:

سليم: صبري عبد اللطيف:

- الصراع السياسي والمذهبي بين الشيعة والسنة في عصر سيطرة إيلخانات المغول في إيران (٦٥٠-٧٣٦هـ/ ١٢٥٢- ١٣٣٥م)، رسالة دكتوراه غير مطبوعة من قسم التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية بكلية دار العلوم جامعة القاهرة، سنة ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م.

عودة: فاطمة نبهان:

- تاريخ وصاف ومكانته بين المصادر الفارسية في التاريخ الإسلامي مع ترجمة الجزء الثالث، رسالة دكتوراه في اللغة الفارسية وآدابها، من كلية الآداب جامعة عين شمس، إشراف أ. د. فؤاد عبد المعطي الصياد، وأ. د. شيرين عبد النعيم حسنين، سنة ١٤١٢هـ/ ١٩٩١م.

مناحي: سعد موسى:

- العراق في العهد الجلائري (٧٣٧- ٨٣٥هـ) دراسة في تطوره السياسي، رسالة دكتوراه من قسم التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية بكلية دار العلوم جامعة القاهرة، سنة ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.

ب- رسائل الماجستير:

حسين: مصطفى محمد:

- الدور السياسي والحضاري للوزراء زمن المغول الإيلخانيين في إيران(٦٥٦- ٧٥٦هـ/ ١٢٥٨- ١٣٥٥م) رسالة ماجستير غير مطبوعة من قسم التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية بكلية دار العلوم جامعة القاهرة، سنة ٢٠١٠م.

عبد الرحيم: أماني رجب أحمد:

- دولة السربداريين في خراسان (٧٣١- ٧٨٢هـ/ ١٣٣٠- ١٣٨٠م) مع ترجمة كتاب "نهضت سربداران خراسان" تأليف آي. پ. پطروشفسكى، ترجمه إلى الفارسية كريم كشاورز، رسالة

ماجستير، من قسم لغات الأمم الإسلامية، شعبة اللغة الفارسية وآدابها بكلية الآداب جامعة عين شمس، سنة ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م.

سادسا: المراجع الأوربية غير المترجمة:

Asher, A.:
- The Itinerary of Rabbi Benjamin of Tudela, translated and edited by A.Asher, London and Berlin, 1840.

Ata Malik Juvaini:
- The History of the World conquerer, 2vols, translated by J.A. Boyle (Manchester University Press, 1958).

Browne. E.G.:
- A History of Persian Literature under Tartar Dominion. Cambridge,1920.

D'osson:
- Histoire des Mongols depuis Tchinguiz-Kan Jusq'a Timour Bey ou Temerlan, Tome III, Amsterdam, 1852.

Howorth:
- History of the Mongols, London, 1878.

M.Minovy and V.Minorsky:
- Nasir Al-Din Tusi on Finance, Bulletin of the School of Oriental Studies, (University of London, 1940- 1942).

Richard Coke:
- Baghdad the City of Peace, p. 152, London, 1927.

Schneider: Bret. E:
- Mediaeval researches from Eastern Asiatic Sources (st. Peters burg- London 1887)

****

فهرس المحتويات

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

الباحث

****

*****

**

*



Kingdom of Saudia Arabia

Ministry of Education

Umm- Al qura University

Faculty of Shariah And Islamic Studies

Department of History

The Impact of the Mongol Invasion on The Cultural Aspects of Baghdad

(656–740 A.H / 1258– 1339 A.D)

A. MASTER. Thesis

under the supervision of:

Prof. Dr. Sa’ad bin Abdullah bin Saleh Al– Beshry

Professor of Islamic History at Faculty of

Shariah And Islamic Studies – Umm– Al qura University

prepared by

Mohammed bin Sulaiman khan

(1438 A.H / 2017 A.D)